Bibliotheca Alexandrina
0040642

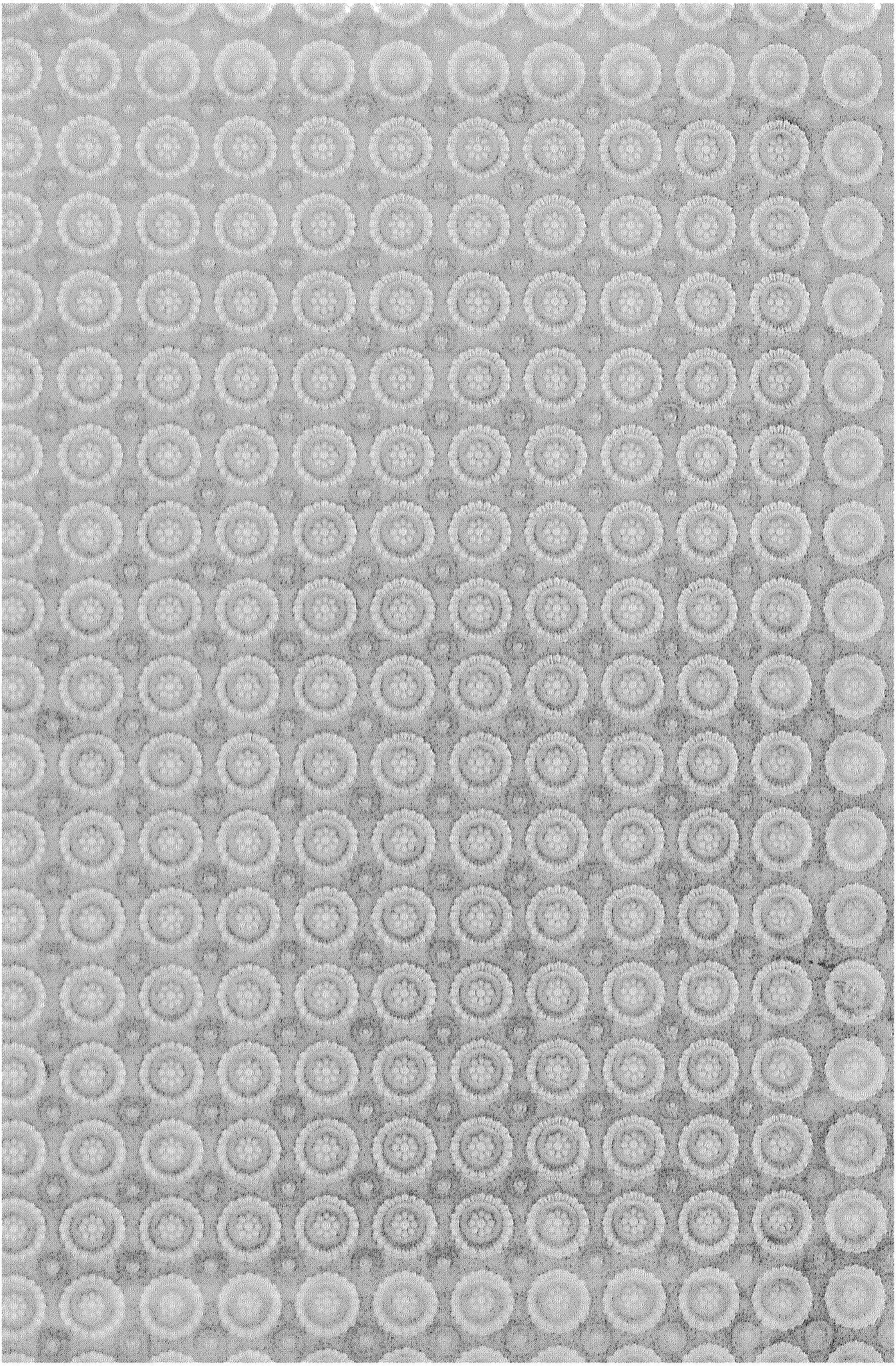

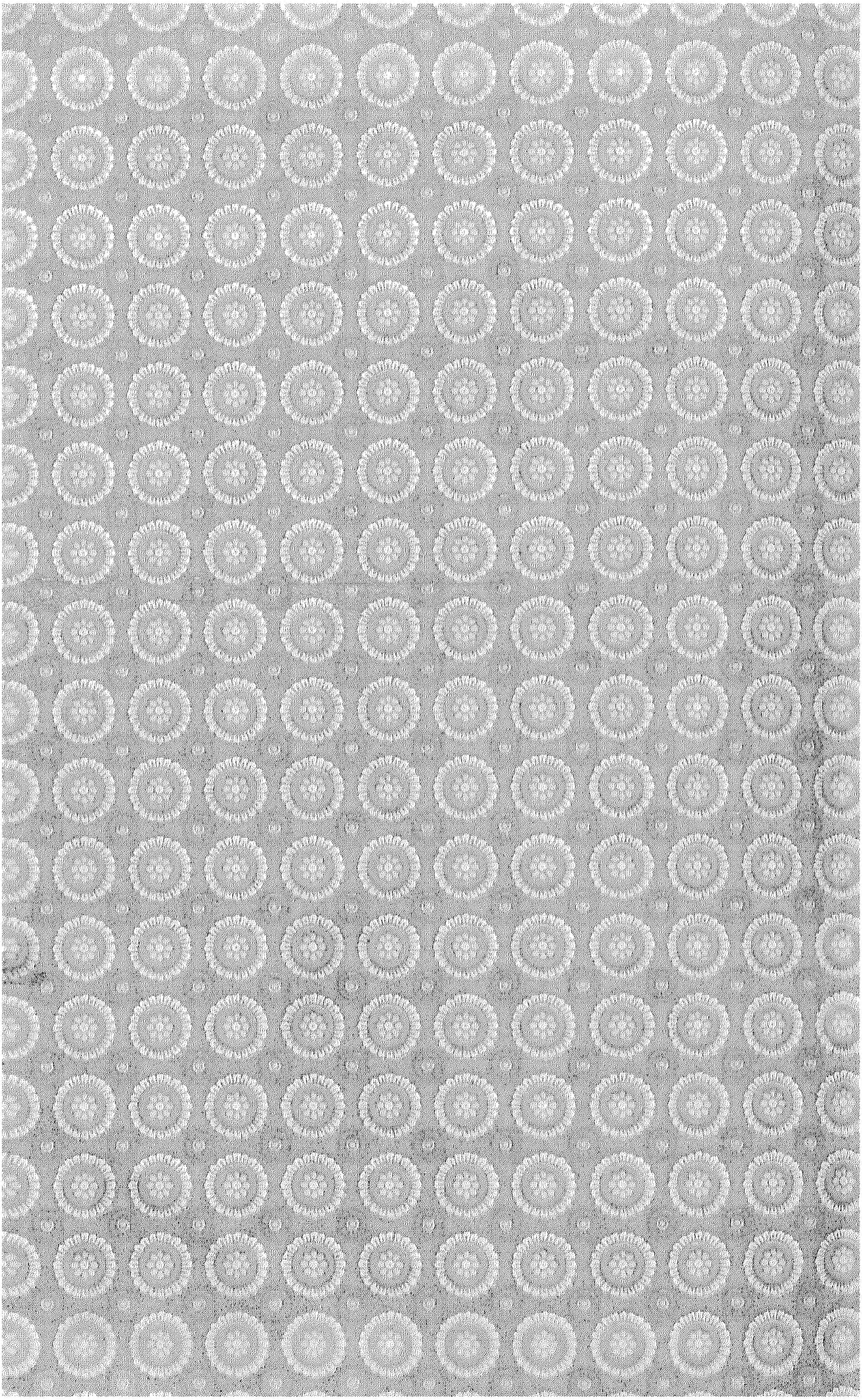

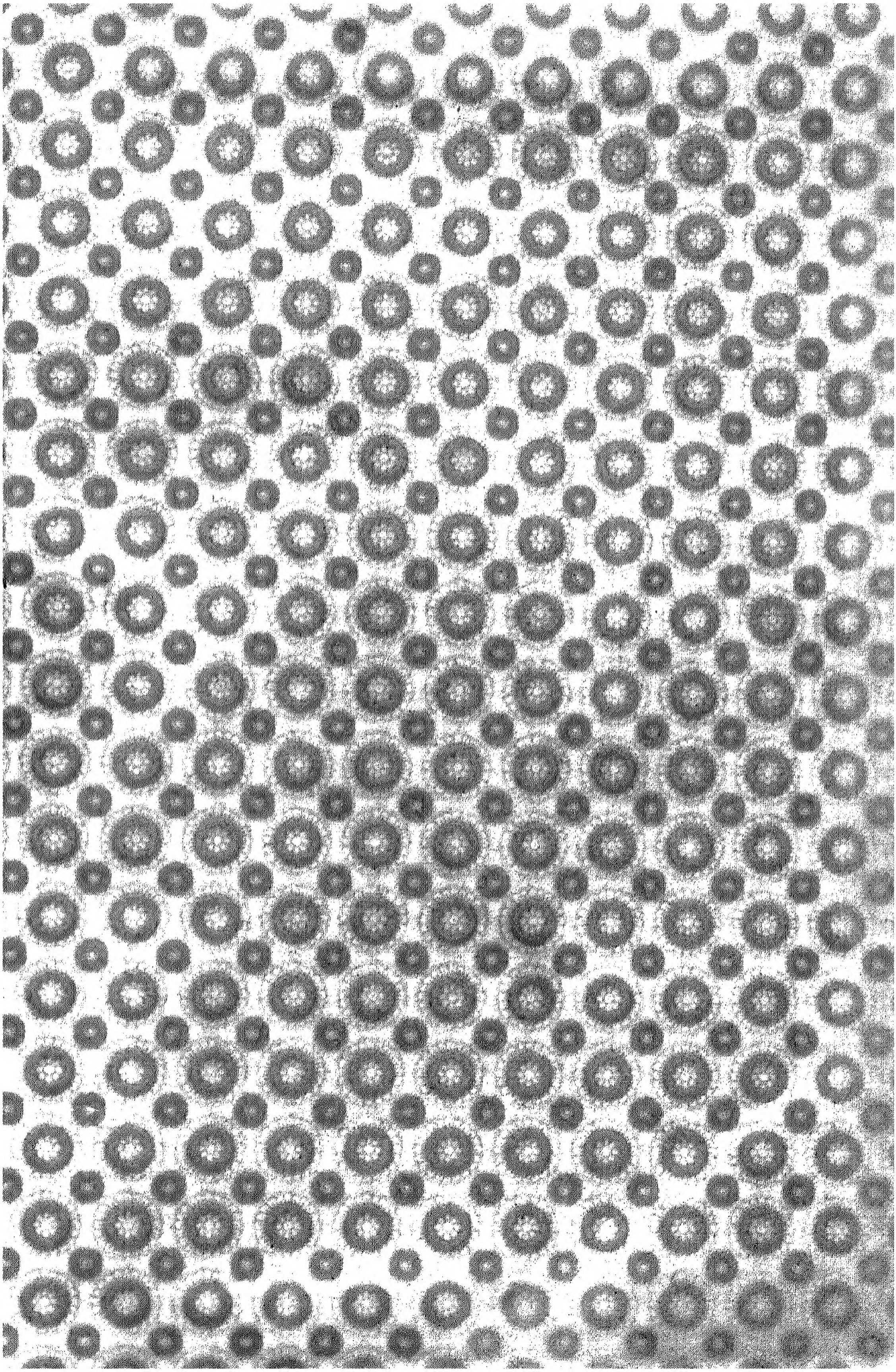

قبائل بدو الفرات

عام ١٨٧٨

الطبعة الأولى
١٤١٢ هـ — ١٩٩١ م
جميع الحقوق محفوظة
التوزيع الخارجي :
مركز نور الشام للكتاب
ص.ب ٢٤٩ دمشق سوريا
تلكس ٤١٢٤٣٢ / نوشام

قبائل بدو الفرات

عام ١٨٧٨

للرحالة البريطانية

الليدي آن بلنت

ترجمة

أسعد الفارس   نضال خضر معيوف

دار الملاح
للطباعة والنشر
دمشق - سوريا

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الترجمة

لم تشهد الارض العربية مثل هذه الحشود من الرحالة وضباط المخابرات الاجنبية مثلما شهدته في القرنين الميلاديين ، الثامن عشر والتاسع عشر ، وفي مطلع القرن العشرين ومعظم نشاطاتها كانت تستهدف التجمعات القبلية أكثر من غيرها ••• فما هي دوافعهم ؟ ولماذا عرضوا أنفسهم لاخطار التجول في البوادي والقفار ؟ جاؤوا — كما يقولون — للاستكشاف وتعلم المجهول والسياحة في الديار ، والبعد عن الحياة الاوروبية الصاخبة ، وتعلم اللغة العربية ، وشراء الخيول العربية الاصيلة ! الا أن أهدافهم باتت مكشوفة ، وعلى الاخص عندما جاءت جحافل المستعمرين الى بلادنا وبيد قادتها مذكرات هذا الرحالة ، وخرائط ذلك الضابط الذي كان يتخفى في بلادنا بثياب تاجر أو حاج الى الديار المقدسة ••• كانوا يتغنون بالحرية ويعيبون على العثمانيين اتباعهم سياسة فرق تسد ، ويدعون العرب للتحرر من نيرهم الاستعماري • فلما جاء قومهم سحقوا الاحرار والحرية ، ونصبوا أنفسهم أوصياء على الشعوب باسم الحضارة والتمدن ولم يخرجوا من الديار الا على أكوام الجماجم . بعد أن زرعوا في كل قطر مشكلة . وفي كل بلد استعمروه بلية •

عرف الترحال أنه وسيلة لجمع المعلومات وتدوينها . يقوم به أفراد مختصون ينتمون الى مجتمعات قوية متفوقة تملك القوة العسكرية والسياسية والاقتصادية • وعلى الرحالة كتابة مشاهداته وتبويب الاخبار التي جمعها في رحلته ، وتقديمها جاهزة لابناء بلده وساستهم ومفكريهم الذين يودون غزو

البلدان المستطلعة ، أو تمتين الروابط معها • وزاد بعضهم على هذا التعريف قوله : ان الرحالة رجل متحضر يملك مفهوماً فكريا وصاحب رسالة حضارية يريد نشرها بين الشعوب المتخلفة ، الا آن الاستكشاف كان ولا يزال مرتبطا بالسياسة لا بالحضارة ، ونادرا ما حاد عن أهدافه السياسية أو تخلى عنها . ودليلنا على ذلك هوية الجهات التي شجعت الرحالة وموّلتهم وتتبعت أخبارهم •

فالدول الاوروبية – ومنها بريطانيا بالذات – تملك ركاما هائلا من كتب الرحلات ومذكرات الجواسيس عن المناطق التي تطمع بها • كانت تدعمهم مؤسسات متخصصة أمثال : الجمعية الملكية الجغرافية ، وشركة الهند الشرقية، والمتحف الوطني ، ومصلحة الاستخبارات العسكرية • فالكولونيل شيزني مسح وادي الفرات عام ١٨٣٥ بتكليف من وليم الرابع ، ونيبور⁽¹⁾ قاد بعثته الى ديار العرب بتوصية من ملك الدانمارك نفسه • وكارل شوان⁽²⁾ بتكليف من المخابرات الالمانية • ولاسكاريس⁽³⁾ بتكليف من قادة حملة نابليون في مصر • ولورانس⁽⁴⁾ بتكليف من المخابرات البريطانية •

لن نحيط بكل الاسماء التي مارست نشاطها الاستكشافي السري أو العلني في بلادنا ولكن نذكر من أهمها :

١ – بركهارد « ١٧٨٤ – ١٨١٧ » الرحالة السويسري الذي زار سورية ولبنان وفلسطين ، وتسلل الى الحجاز متنكرا • كتب مذكراته في كتاب « رحلة الى بلاد العرب » •

---

(١) مستشرق دانيماركي ١٧٣٣ – ١٨١٥ م جاب مصر والعراق وبلاد الاناضول واليمن . له كتاب « وصف بلاد العرب ».

(٢) كارل شوان : ضابط الماني قدم الى عرب الرولة في بادية الشام خلال الحرب العالمية الاولى محاولا كسبهم الى جانب الالمان وسمى نفسه رضوان الرويلي .

(٣) لاسكاريس : عسكري فرنسي كلفته قيادة حملة نابليون بالتسلل الى عرب بادية الشام للتمهيد لوصول الحملة الى بلاد الشام .

(٤) لورنس توماس : ١٨٨٨–١٩٣٥ ضابط الاتصال بين جيش الشريف حسين والجيش الانكليزي عام ١٩١٤ .

٢ ــ وليم جورج براون « ١٧٦٨ ــ ١٨١٣ » رحالة انكليزي جاب مصر وسورية والسودان وبعض البلاد الافريقية . وضع مذكراته باسم « سياحة في افريقية وسورية » . قتل وهو في طريقه الى طهران .

٣ ــ وليم بالغريف « ١٨٢٦ ــ ١٨٨٨ » رحالة انكليزي صاحب كتاب « رحلة الى بلاد العرب » .

٤ ــ الليدي الانكليزية « آن بلنت » صاحبة كتاب « حج الى نجد » و « قبائل بدو الفرات » ، وزوجها ولفرد سكاون بلنت صاحب كتاب « التاريخ السري للاحتلال البريطاني لمصر » .

٥ ــ القناصل وأعضاء البعثات الدبلوماسية ، أمثال الانكليزي ريتشارد بورتون « ١٨٢١ ــ ١٨٩٠ » وزوجته السيدة بورتون صاحبة كتاب « الحياة الداخلية في سورية » .

تعتبر قصص الرحلات جزءا لا يتجزأ من نشاط الاستشراق . وآثار المستشرقين تعتبر حلقة هامة من تراث الامبراطوريات المستعمرة التي كانت ترغب بتوطين نفسها في المستعمرات أطول مدة ممكنة .

سافر الرحالة لخدمة الأوطان التي انطلقوا منها ، ليكونوا عيونها التي ترى وآذانها التي تسمع وأقلامها التي تكتب ... ورب حادث عابر أو خبر طريف ينقله الرحالة لقيادة بلده يغير مجرى عملياتهم جذريا في المناطق المحتلة . ذهب الكابتن بورتون الى مكة متنكرا بزي حاج مسلم(١) من أفغانستان . وهناك اختلط بالحجاج المسلمين . وتعرف على رجل هندي ظنه من الافغان فاسر اليه الهندي ــ بدافع التعاطف الديني ــ خبر الاعداد لانتفاضة شعبية ضد الانكلليز في الهند فأسرع بورتون وأرسل برقية الى القيادة البريطانية هناك .

---

(١) اساطير أوروبا عن الشرق . السيدة رنا القباني .

كان العداء للاسلام والمسلمين من بديهيات الامور عند الرحالة الغربيين، ولهذا عملوا جاهدين لتنشيط الدعوات القومية، وتشجيع الحركات الانفصالية واثارة القلاقل والفتن ، وحملوا الاسلام مسؤولية الاخفاق في الاقاليم التي تحكمها الدولة العثمانية ، وتباكوا على أطلال المدن الاثرية الرائعة التي كانت ذات يوم تعج بالسكان المبدعين، الذين بنوا معالمها وعجائبها • وعندما آلت الى المسلمين قالوا : انها أصبحت خاوية بسبب سوء الادارة ووحشية العقيدة الاسلامية • قال ولفرد بلنت : « اذا ما أريد للعرب أن يعودوا الى حياة البادية الاصلية ، وأن تنطلق طاقاتهم الكاملة من مكانها ، فلا بد من أن يتحرروا أولا من نير الحكم العثماني » •

ورث الرحالة الغربيون عقد سابقيهم من كتاب العصور الوسطى وكرههم للشرق الذي وصفوه موطنا للفسق والعنف والملذات، فساروا على نهجهم على الرغم من مشاهداتهم الحية في بلاد الشرق • ولن أستطيع القيام بمسح شامل لآثار الرحالة الذين جسدوا فكرة العصور الوسطى عن الشرق في أذهان الغربيين ولكن نذكر منهم : غالان(١) و لين(٢) و بورتون(٣) و دوتي(٤) و لورنس.

ترجم غالان حكايات ألف ليلة وليلة الى الفرنسية ــ تلك الحكايات التي وصلت وتفاعلت أخبارها في أوروبا ما بين عامي ١٧٠٤ و ١٨٣٨ ــ واستغل منصبه في البعثة الفرنسية في القسطنطينية لينسج على منوالها ألف حكاية وحكاية ، صوّرت المرأة الشرقية مومسا وجارية وسلعة تباع وتشترى على الرغم من أن

---

(١) غالان : ١٦٤٦ ــ ١٧١٥ م باحث فرنسي درس اللغة العربية ، ورحل الى البلاد الشرقية ، وترجم كتاب الف ليلة وليلة ، وحكم لقمان .

(٢) ادوارد لين ١٨٠١ ــ ١٨٧٦ مستشرق انكليزي أقام في مصر ما بين ١٨٣٣ ــ ١٨٣٥ فلقب بمنصور افندي وضع كتاب « سلوك المصريين المعاصرين وعاداتهم ».

(٣) بورتون : عسكري ورحالة ودبلوماسي انكليزي ١٨٢١ ــ ١٨٩٠ عمل في الهند وسورية .

(٤) دوتي : ١٨٤٣ ــ ١٨٦١ رحالة انكليزي جاب شمال الجزيرة .

العرب تعتبر حكايات ألف ليلة وليلة نوعا من التسلية الهابطة(١) التي لا شعبية لها الا في صفوف الاميين .

تبعه لين عام ١٨٤٠ فحمل مذكراته: «سلوك المصريين المعاصرين وعاداتهم» أخبار ألف ليلة وليلة معتبرا نفسه خبيرا بأحوال الشرق . ترك لين كل ايجابيات المجتمع المصري ليحشو كتابه بالتفاهات والسلبيات التي شاهدها في مصر . فوصف المصري بالرجل المتراخي الهمة المؤمن بالخرافات ، المفرط بالملذات المحرمة ، والمتعصب الديني الاعمى .

أما بورتون الذي عمل في سورية والهند فقد أضاف الى هوامش كتاب ألف ليلة وليلة قصصا داعرة عن الشرق ، حتى إن زوجته مزقت أحد كتبه بعد موته لبذاءته وعهره . وعلى هدى كتابات هؤلاء قام الفنانون والرسامون بنشر اللوحات الفنية والشرقية . فهذا يرسم الحمام التركي وفيه أكوام الاجساد العارية ، وذاك يرسم مشهد الاعدام بالسيف في بلاط الملوك ، وآخر يرسم سوق الجواري وهنّ يُعرضن فيه عاريات ... هذه هي العقلية التي ينظر بها الغربيون لبلاد الشرق .

ولكن هذا لا يعني انعدام وجود الرحالة المنصف أو المعتدل الا أن وجوده يندر في صفوف الغربيين . التقطت من بين الرحالة كتاب الليدي آن بلنت الانكليزية عن بدو الفرات، وفيه قصة رحلتها في سورية وبلاد الرافدين عام ١٨٧٨ وكتابها عن رحلتها النجدية « حج الى نجد » ، فوجدت الثاني قد ترجمته دار اليمامة السعودية عام ١٩٦٧، ووجدت الاول على حاله بلغة الانكليز دون ترجمة ـ بعد أن وصلني من أحد مدرسي جامعة اكسفورد بوساطة مشكورة من مؤرخنا السوري الدكتور(٢) عارف تامر ـ وثيقة تاريخية جديدة بالاهتمام والدراسة . فقررت ترجمته والزميل نضال خضر .

---

(١) مروج الذهب للمسعودي

(٢) وضع ـ حفظه الله ـ هذا الاثر الثمين بين ايدينا وشجعنا على ترجمته .

آثرنا أن يكون النص مبسطا مفهوما يراعي كافة المستويات الثقافية في الوطن العربي ، وبطبيعة الحال تصدينا لمهمة صعبة تهيبها المترجمون قبلنا للحشد الهائل من أسماء الاعلام العشائرية ، وأسماء المدن والقرى التي مرت بها من خلال الرحلة في بلاد الشام والفرات ودجلة ، اننا نعتقد أن الترجمة لن تكون سليمة بأيدي غير أبناء الفرات ولهذا وفقنا والحمد لله بتحقيق الاماكن والاعلام تحقيقا دقيقا . فيندر أن يجد القراء شخصا في غير اسمه الصحيح ... كان تعاملنا مع أدبية عالية الثقافة أتعبتنا وهي تقتطف مثلا من الفرنسية وقصيدة من الاسبانية وحكمة من الصينية ، وأرهقتنا بتقصي أسماء الخيول وذكر أنواع من الحيوانات والنبات في المناطق التي استطلعتها .

يا ترى في أي زمرة من زمر الرحالة نصنف الليدي آن بلنت ورفيق دربها وزوجها ولفرد سكاون بلنت ؟ انه سؤال تصعب الاجابة عليه بدقة ، لان الرحلة لم تكن بدون أهداف سياسية بعد أن قال ولفرد في المقدمة : « ان وادي الفرات معروف لدى كل الناس جميعا كطريق بري مستقبلي للهند ، وندرك على أعلى المستويات أن امتلاكه من قبل دولة صديقة هو أمر حيوي للمصالح البريطانية» فهدف الرحلة كان لصالح الاستعمار البريطاني : اكتشاف وادي الفرات وعقد صلات حسيمة مع البدو وتعطيل مخططات الروس والالمان في المنطقة .

ولان ولفرد عمل مخلصا في البعثات التبشيرية في أكثر من بلد عربي . هذه هي الصورة التي احتفظ بها لولفرد وزوجته في مخيلتي ، ولكنني للحق والامانة أقول : لم أجد في آثارهما المعلنة التحامل والتجني الذي اتبعه غالان وبورتون واين وغيرهم من رحالة الغرب ، وعلى العكس من ذلك نسبت اليهما بعض المصادر الميل الى الاسلام والمسلمين والتحمس لقضاياهم الوطنية .

١ ـــ نقل الدكتور عدنان البني في كتابه نساء على دروب تدمر قولا لثوربون عن ولفرد في كتاب مرآة دمشق : « كان لديه مشروع مملكة عربية متحدة يكون على رأسها الامير عبد القادر الجزائري » .

٢ ــ جاء في الموسوعة العربية الميسرة⁽¹⁾ عن بلانت قول دون أدلة :

« بلانت ولفرد سكاون ١٨٤٠ ــ ١٩٢٢ شاعر وكاتب سياسي انكليزي . ناصر الاسلام والقوميات الشرقية . عمل حينا في السلك الدبلوماسي ، ثم كرس حياته للرحلات والدفاع عن البلدان التي استعمرتها انكلترا . وبشّر بحقها في الحكم الذاتي . مثل ايرلندا والهند ومصر . له عن مصر كتاب مشهور ترجم الى العربية عنوانه : « التاريخ السري للاحتلال البريطاني لمصر » سجن من أجل مواقفه تلك من الاستعمار . ولد كاثوليكيا ولكنه مال الى الاسلام . وان لم يعتنق دينا بعينه . لـه شعر ومذكرات شخصية » .

٣ ــ قالت السيدة رنا القباني في كتابها « أساطير أوروبا عن الشرق »[2]: « بلانت سليل عائلة اقطاعية كان يحب الريف ومتعاطفا مع كل ما هو ريفي . ويرى أن العرب يمثلون الريف والفروسية .. فالعرب في نظره هم النبلاء والكرماء الذين يشمخون بأثوابهم الفضفاضة مع خيولهم المطهمة » . ونقلت قوله بعد زيارته للجزائر : « عندما نرى العرب وهم بين قطعان خيولهم وابلهم، ونرى حياتهم الريفية النبيلة الغنية بالتقاليد الرفيعة والمفعمة بذكريات البطولة ، ثم نرى الى جانب ذلك قذارة المستعمرين الشائنة وحاناتهم وخنازيرهم ، فانه من المستحيل أن يخفى على أنظارنا التباين الهائل بين هؤلاء وأولئك ، أو أن تبعد عنا غضبا يتملكنا حيال هذه المفارقة العجيبة التي جعلت من الفرنسيين أسيادا ومن العرب خدما لهم » .

٤ ــ حل الشيخ محمد عبده ضيفا في منزل الليدي بلنت وزوجها ولفرد في بريطانيا بعد هروبه من مصر[3] واستنكرا حادثة دنشواي والمحاكمات الصورية والاعدامات التي تلتها ، وقابلا « أحمد عرابي » في مصر . وقال ولفرد:

---

(١) الموسوعة العربية الميسرة . عن مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر .

(٢) صدر الكتاب بالانكليزية عام ١٩٨٦ عن دار ماكميلان البريطانية بعنوان : Europe's Myths of Orient . استفدت منه في وضع هذه المقدمة . والمصادر المذكورة ضبطت الكنية « بلانت » بينما آثرنا كتابتها « بلنت » .

(٣) من مقال لولفرد كتبه في صحيفة « بال مال جازيت » في آب عام ١٨٨٤ .

« زرت عرابيا لآخر مرة صباح يوم سفري الى بريطانيا ، وكان قد مضى على وجودي في مصر أكثر من ثلاثة شهور ، بدت لي وكأنها العمر كله اذ أنني استغرقت تماما في التعرف عليها ، وأصبحت أرى فيها وطنا ثانيا لي ، وعزمت على ربط مصيري بمصير أهلها وكأنهم أقران وطني » •

وعلى الرغم من كل ما ذكر تبقى شخصيتا «ولفرد بلنت» وزوجته آن بلنت محاطة بالالغاز وتتخللها التناقضات • ولعل هذه المقدمة ، وهذا الكتاب المترجم سيكونان فاتحة أمل لمزيد من البحث لكشف ما تبقى من خفايا حياة هذين الرحالين في المستقبل •

وردت في الطبعة الانكليزية بعض الهوامش المنسوبة للمندوب السامي البريطاني في بغداد « اللورد جيمس كلوديوس ريش » ترجمتها وأضفت لها كثيرا من الهوامش الضرورية لتزيل الغموض عن بعض الاماكن والاعلام والاحداث الهامة التي وردت في النص •

وفي ختام هذه المقدمة أتوجه بالشكر الجزيل الى أستاذنا الدكتور عدنان البني ـ مدير التنقيب في مديرية الآثار والمتاحف السورية ـ الذي قرأ معظم النص وقدم لنا نصائح هامة لاتقدر بثمن، كما أشكر الزميل عدنان الفيصل لمساعدته لنا في تهذيب النصوص من الناحية اللغوية •

اننا لا ندعي الكمال فيما فعلنا ونترك للقراء والباحثين تقدير جهودنا في ترجمة هذا الأثر الثمين من أدب الرحلات والله ولي التوفيق •

اسعد الفارس ٢٩ صفر ١٤٠٩
البوكمال ـ سورية ١٠ ـ ١٠ ـ ١٩٨٨

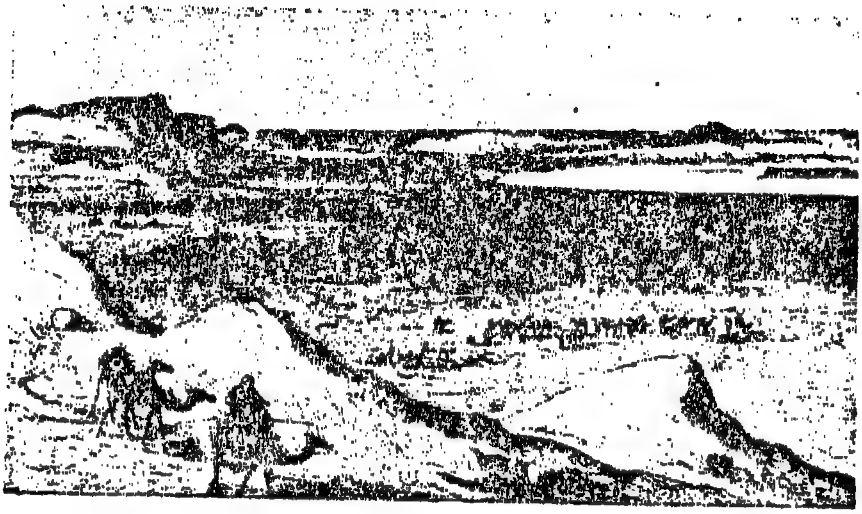

سهل المالحة ونهر الفرات

الإهداء

إلى

سعادة نواب بهادور إقبال دولة (١)
سليل أمراء أود (OUDE)

---

(١) أمير هندي شاهدته في بغداد .

تقديم

في الوقت الذي تتجه فيه الانظار نحو الشرق تحاول آسيا بعد طول انتظار أن تأخذ دورها التاريخي القديم ، وما نقدم له مشهد حي لما يجري في أشهر المقاطعات الاسيوية ، وبودنا أن لا يمر هذا المشهد دون أن نلفت انتباه الرأي العام البريطاني الى أن وادي الفرات هو طريق المستقبل الى الهند ، وأن امتلاكه من قبل قوة صديقة يدخل في صلب المصالح الحيوية للشعب البريطاني .

وعلى الرغم من الاستعدادات التي تجري على قدم وساق لتنفيذ خرائط ومخططات الخط الحديدي الى الخليج العربي ، فما أقل الذين يكتبون عن ذلك من الذين يملكون المعرفة بالمناطق المذكورة وبالقبائل التي تسكنها . ان وادي الفرات يعتبر غامضا في ذهن الشعب البريطاني أكثر من أي واد آخر يماثله من حيث الاهمية في العالم القديم ، ولم أجد له وصفا وافيا منذ أيام⁽¹⁾ كزينوفون « Xenophon » الا وصف الكولونيل شيزني « Chesney » المكلف بمسح النهر عام ١٨٣٥ م من قبل وليم الرابع والذي قدم لنا مجلدات

---

(١) كزينوفون : مؤرخ وفيلسوف وقائد اثيني ٤٢٧ ـ ٣٥٥ ق.م . كان من تلامذة سقراط .

ضخمة من الاحصائيات والخرائط ، كانت حصيلة بعثته الاستكشافية الى الفرات • كما لا أجد من رحالة كان قد أجرى دراسة للمنطقة أو قص لنا مغامراته في كتاب مطبوع • وفي العشرين عاما الماضية كان الفرات منطقة خطر بالنسبة للاوربيين والآسيويين على حد سواء ، وكان الرحالة على حق في تجنب ارتياد الفرات لأن قبائل العنزة كانت تستأثر بالسيادة المطلقة على المنطقة • ولكن هذا الواقع قد تبدل اليوم وأصبحت طرق القوافل آمنة على الاقل خلال أشهر الشتاء • وليس من سبب معقول يجعل مغامرا مثل كوك « Cook »(1) يقود جماعته الخاصة من حلب الى بغداد بالسهولة التي يقودها من « دان » الى بئر السبع •

ولا أبالغ عندما أقول : ان المجلدين اللذين أقدم لهما يخصان السائح الذي سلك طريق الفرات وقد أعذر بسبب تأخير نشر هذه المذكرات حتى اليوم والمغامرات البعيدة التي قامت بها المؤلفة بين القبائل البدوية في العراق والجزيرة والصحاري الغربية •

ان هذه البوادي كانت قد وصفت من قبل أكثر من مرة • وزار قبائلها أناس كثيرون الا أن ظروف الرحلة الحالية في هذه المجلدات ستكون محاولة رائدة في اعطاء نظرة شاملة عن الحياة البدوية ، وعموم السياسة المتبعة هناك ، وعلى سبيل المثال لا أذكر رحالة كان قد زار قبائل شمر المستقلة في العراق أو

---

(١) كوك مغامر شجاع ١٧٢٨–١٧٧٩ سهل وصول الانكليز الى الشمال الامريكي ومنها منطقة دان ، وقام برحلات استكشافية الى جزر شرق آسيا ، وفتح طرق الاسفار العلمية. قتله سكان جزر السندويس «جزر هاواي» في آخر رحلة له الى هناك .

قبائل العنزة في الحماد(١) • ان الصحاري في ديار العرب تعتبر كأرض « توم تيدلر » بالنسبة للاوربيين ، فبدلا من أن تبحث فيها عن القبائل تكون عرضة لارتياد المجهول • ولكن الظروف الحالية غيرت الوضع ، وجعلت الصحراء مسكنا للرحالة مثلما هي مسكن للقبائل ذاتها •

أما عن مساهمتي في فصل من فصول الكتاب في نهاية المجلد الثاني ، فاني أقدر أنني أملك حجة مقنعة تخولني كتابة ذلك بسبب اقامتي عشرين عاما في بغداد ، وانشغالي لتسع سنوات في عمل تبشيري في سورية • ولكن هذا لن يزيد الكتاب قيمة أكثر مما فيه • فلا أنا ولا المحررة ندعي أننا قد لبينا كافة طموحات السياح ، والذين سيحالفهم الحظ في معرفة المزيد واكتشاف كثير من المجهول • فنحن تركنا انكلترا بهدف متواضع نرغب فيه تعليم الاجيال ما يجب أن يحيط به الرحالة • ولم نكن ندري بأن الحظ قد وضعنا في طريق اكتساب معارف حقيقية وثمينة كنا قد نذرنا أنفسنا جديا من أجلها ، وفي وقت قياسي لا يتناسب مع حجم العمل المنجز • وأعجب للشجاعة والمصادفة التي لعبت دورا بارزا في تحقيق المشاريع الجدية والمصادفة وحدها كانت قد خدمتنا في كثير من الاحيان •

بدأت رحلتنا في ظروف مثيرة عندما كانت الحرب البلغارية في أوار مستعر وفي وقت تحررت فيه مصادر الباب العالي « الامبراطورية العثمانية »

---

(١) قد يكون السيد « هنري ليارد » لديه شيء يقوله في هذا المجال الا ان مذكراته لم تنشر بعد. أما الدكتور بورتر وكانون تريسترام والسيد غراهام فهم وحدهم الذين يعرفون القبائل عند الحدود السورية ، اما السيد بالغريف فقد كان عبر الصحراء كحضري وكتب عن الحضر اكثر من سكان البادية ، وقد نجد الصورة الحية لسياسة بدو الصحاري في القصص والروايات التي كتبها لامارتين وغيره من كتاب الروايات الحالمة .

من قيود الانضباط في الأصقاع البعيدة ، حيث كنا نخاطب الناس بحرية ونحصل على معلومات ميدانية كان بعضهم يمضي سنوات طويلة من أجل الحصول عليها .

وأقول ثانية : ان الظروف أجبرتنا على أن نوغل في البوادي في بعض الاحيان بدون موكب مرافقة ولا مترجمين ، وأحيانا بدون مرشدين ، فشاهدنا الواقع بوضوح ، وقد قربنا ذلك من مزاج أهل البادية ، وأصبحوا يميلون الينا . فلم تكن الزيارة بالنسبة انا وللذين جئنا لزيارتهم محفوفة بالمخاطر والصعاب ، ولكنها كانت من الامور غير الاعتيادية التي جعلت البدو يثنون على الثقة التي تتوقعها فيهم ، ولهذا أصبحنا أصدقاءهم الجدد .

كانت البادية في شتاء العام الماضي في فوضى عارمة ، وكنا شهود عيان على حدوث الازمة السياسية هناك ، وعلى بعض مراحل الحرب القبلية . ولم يكن بوسعنا الا أن نكون مستمعين . كان لأساليب العطف والمودة فعل سحري في نفوس الاصدقاء الجدد ، اذ شجعتهم على الثقة بنا ثقة لم تكن تمنح للغرباء من قبل . وهكذا أحطنا في غضون أسابيع قليلة بكثير من الحقائق عن البادية وعن سكانها هي أدق مما جمع في سنوات عديدة في مدن الحدود السورية . ولعل عذري في الفصول الختامية من هذا الكتاب الذي تجرأت فيه على القول وبمقتضى المسؤولية : ان البحث كان يشكل يوميات محررة ، وكل ما يفترض فيها من زخرفات وتنميق فأنا الوحيد الذي أعتبر مسؤولا عنها . انها خلاصة المعلومات التي جمعتها في الصحراء . ولا أضمن الدقة المطلقة في كل ما جمعت عن الحياة والعادات والقصص المذكورة . وأعترف انني اعتمدت القليل من

المصادر المباشرة والكتب • ولكنني أضفت حقائق مثيرة عن تربية الحصان العربي وجداول نسبه التي تدل على سلالة الحصان العربي الأصيل •

ومما لا شك فيه أننا قد لاقينا صعوبات بالغة في تهجية مفردات البحث الذي نقوم به • فلا أنا ولا المؤلفة يدعي الالمام بالعربية المكتوبة ولا باللهجات العامية غير لهجة الصحراء • ومن غير المناسب لذوقنا أن تتبنى نظاما صوتيا لنطق الكلمات مغايرا للمألوف ، وعلى سبيل المثال لا يمكننا تهجئة كلمة علي « بآرلي » ولا حسين « بحوسين » دون أن نحك عيوننا أكثر من مرة • ومن جهة أخرى نجد القليل من قراء الانكليزية من يهتم برؤية الكلمة الفرنسية « أودي » أو الالمانية « دسشيبل » مقابل كلمة الوادي أو الجبل •

وقد استعذنا بالله من الشيطان عند التقيد باللهجة أو التهجئة القديسة للغة المشتركة التي استخدمها غالان Gallad في ترجمة كتاب ألف ليلة وليلة• فالاحرف الصوتية مكتوبة كما في الايطالية باستثناء حالة الحرف الطويل « i » أو قبل ساكنين مزدوجين حيث يتبعان القاعدة الانكليزية : والاحرف الساكنة تتبع الانكليزية أيضا ومع ذلك فنحن لا ندعي الدقة ، فربما تجاوزنا القواعد في بعض الاحيان لأن العمل كله قد كتب على عجل ، والعجالة عذرنا في حال عدم قيامنا برحلات تغرينا بالعودة الى الشرق من جديد قبل أن تتقدم في السن •

وفي الختام : اننا نحتج على الخضوع الكامل لكل المعارف الترفية التي جمعت حتى الآن ، وانني أتخذ موقفا محددا من الناقد الذي لم يجرب حياة

الترحال وأقول له بلسان المثل العربي الذي يقول : « ان حافر جوادي يقف فوق مركز الارض وان لم تصدق فاذهب وقس بنفسك » .

كرابيت ــ تشرين الاول
عــــام ١٨٧٨
ولفرد سكاون بلنت(١)

* * *

---

(١) زوج الليدي بلنت ورفيقها في الرحلة .

الفصل الاول

« طالما ان الفيافي واسعة والصحارى ساكنة والمقالع والصخور والتلال الوعرة فيها تلامس باعناقها كبد السماء كان علي ان اشدو واتكلم » .

شكسبير (١)

أهداف الرحلة ــ زيارة الجمعية الجغرافية الملكية ــ سرنا باتجاه حلب ــ الرحلة عبر اسكندرون ــ قصة التاجر المتجول عن الفرات ــ حبة حلب ــ حططنا الرحال في آسيا .

تركنا انكلترا في العشرين من تشرين الثاني عام ١٨٧٧ م ، عاقدين العزم على زيارة بغداد وامضاء الشتاء في بعض الاصقاع الآسيوية ، لنجد المناخ مناسبا والطريق خالية من الاوروبيين . ولم تكن هذه هي المرة الاولى التي عرفنا بها ديار العرب ، بل زرنا من قبل أكثر من بلد عربي ، واكتسبنا خبرة وذوقا بالحياة البدوية وطرق عيشها . وتعلمنا بعض الكلمات العربية ؛ ولكننا تتلهف الى تحصيل المزيد من الخبرات في رحلة جادة وهادفة أكثر من أي رحلة قمنا بها حتى الآن وهكذا توالت أحداث رحلتنا حتى أصبحنا في المشرق .

عبرنا من اسبانيا الى المغرب ومنه الى مصر وسورية ، ومن هناك اخترنا وادي الفرات وأرض العراق مسرحا لأحداث بعثتنا القادمة . وعندما شرعنا بتنفيذ الخطة اعترضتنا مجموعة من العقبات والمصاعب التي عملنا على تذليلها الواحدة بعد الاخرى ومن هذه المصاعب : ضآلة المعلومات الجغرافية الرسمية في انكلترا عن المنطقة التي ننوي زيارتها ، وعندما استشرنا « برادشو » قدم لنا خطة مثالية تتبع فيها طريق السكة الحديدية عبر الفرات الى الشرق ، ولكن فوجئنا بأن ذلك المشروع لم يكن الا مجرد خطة لم يتم تنفيذها بعد . الا اننا

---

(١) تبدا بلنت الفصل بحكمة أو بأبيات من الشعر لمشاهير الادباء .

اطلعنا في مقر الجمعية الجغرافية الملكية على خرائط المسح الذي أجراه الكولونيل « شيزني » في وادي الفرات عام ١٨٣٦ بالاضافة الى أننا لم نجد في الجمعية أي رحالة كان قد زار الفرات منذ ذلك التاريخ باستثناء السيد ليارد(١) والكولونيل رولنسون(٢) وقد نصحنا أن نمر بالقسطنطينية في طريقنا لنستشير السفير البريطاني هناك • ولكن الفكرة البديلة كانت في استشارة السيد هنري نفسه الذي يقيم في لندن ، وهو الشخص الذي يستطيع الاجابة على كل استفساراتنا نتيجة لاقامته الطويلة في بغداد • اتصل « ولفرد » بالسيد هنري فاستقبله الاخير بلباقة فائقة ، وشرح له بأن الخط الحديدي لوادي الفرات لم يدشن بعد ؛ ومن المستحيل السير مع قافلة البريد عبر ذلك الطريق نظرا لوجود القبائل الثائرة التي تستوطن قرى معينة على ضفاف النهر • وقال : ان الطريق النظامي الى بغداد يمر من ديار بكر الى الموصل ، وهو طريق ممتع ولكنه يمر بالقرب من ميادين الحرب بين روسيا وتركيا ، وهو ما نرغب بارتياده في الوقت الحاضر • الا أن السيد هنري يعتقد بأن الانسب لنا هو أن نأخذ خط سير السفن التركية التي تقوم برحلات اسبوعية من حلب الى بغداد ، وعلى متن تلك السفن تتوفر الراحة والامان على حد قول السيد هنري •

بحثنا أمر السفن التي تبحر عبر الفرات من الذين خبروها أو يعرفون مالكيها هناك ، فتبين لنا أنهم يعرفون السفن التي تبحر عبر دجلة وليس الفرات حتى انهم لم يتمكنوا من أن يقترحوا طريقا مختصرا الى بغداد ، الا عن طريق بومباي والخليج العربي • والشخص الوحيد الذي زودنا بمعلومات واضحة حول الموضوع هو سيد نبيل كان قد ارتحل منذ بضع سنين الى بلاد فارس ، منحدرا عبر دجلة الى الموصل وبغداد على ظهر طوف(٣) خشبي •

---

(١) هنري ليارد : رحالة وباحث زار بدو دجلة والفرات حوالي عام ١٨٤١ م ، وعاش بين الجبور فترة من الزمن

(٢) لعلها تقصد المستشرق الانكليزي هنري رولنسون ١٨١٠ — ١٨٩٥ م ، الذي تمكن من حل رموز الكتابة المسمارية في بلاد الرافدين !.

(٣) الطوف : صفائح خشبية ، وجلود منفوخة يستخدم في عبور الانهار في بلاد الرافدين •

ويفترض أن شيئا مماثلا قد يوجد على الفرات . وقال ان « الطوف » وسيلة سفر ممتعة ومريحة ، وعلى الاخص في الاجواء الحارة حيث يجلس المسافرون وأرجلهم مدلاة في الماء في غالب الاحيان .

تلك هي الصعوبات التي واجهتنا في الحصول على معلومات صحيحة عن البلد الذي نود زيارته ، ونضيف اليها العقبات التي بدت لنا أكثر جدية وخطورة، ومفادها أن مدينة قَرص(١) كانت قد سقطت . ويفترض أن اقليم أرمينية مليء بفرق الجيوش الممزقة والهاربة من ساحات القتال .

وأن عثمان باشا(٢) تقلد منصبه في بلغاريا . وقد هرع كل جندي ورجل الى القسطنطينية للدفاع عن العاصمة من كافة أرجاء الدولة العثمانية ، في الوقت الذي جاءت فيه الاخبار في الصحف بقصص المذابح التي ارتكبت والعصيانات المسلحة والفوضى التي تسود الاقاليم المجردة من الحاميات النظامية ، وأن البلاد ستشهد موجة تعصب اسلامي وشيكة الوقوع ، وربما يخضع الرحالة الانكليز للتفتيش أكثر من غيرهم ، ويعاملون معاملة سيئة لأن الشعور العام في تركيا يزداد مرارة ضد انكلترا التي خانت تعهداتها .

تبين لنا صدق المعلومات السابقة ، وأن البلد يعج بالفارين من الجيش وباللصوص وقطاع الطرق الذين يستفيدون من الفوضى وانعدام القانون . وتوقعت بعض الصحف حصول تمرد في الهند ، وأن طاعونا قد ظهر في بغداد . وفي مثل هذه الاجواء لم يعد الامر مناسبا للسفر . ومن حسن الحظ أننا لم نتأثر بالروايات التي كان يبعث بها مراسلو جريدة التايمز عن قصص الاسود المفترسة وقصص قطاع الطرق . وأعلن ولفرد عن رأيه بسخافة تلك المعلومات،

---

(١) قرص : مدينة في ارمينيا كانت سببا للخلاف بين تركيا وروسيا .

(٢) عثمان باشا : قائد عثماني ، نظم الجيش في أيام السلطان عبد الحميد الثاني ١٨٣٧ ـ ١٩٠٠ ، ولد في أماسيا وتوفي في استنبول .

وقال : ان حلب ليست في أرمينيا ، وان آخر ما يمكن أن ينسحب اليه الجيش المهزوم هو الصحراء السورية . واذا كان الطاعون قد انتشر في بغداد فان الجدري الآن ينتشر في لندن وعلينا أن نعرف كل مستجد في وقته المناسب .

كم كنت مقتنعة ومسرورة للتأكيدات والتمنيات التي تفاءل بها ولفرد في الوقت الذي كنا فيه نشرع في الرحلة . وقد أخذنا لكل شيء عدته . فاذا ربح الاتراك الحرب فهم سيكونون وقحين وخطرين ، ولكن لسوء حظهم أنهم كانوا بحاجة الى أي صديق يمد لهم يد العون والمساعدة .

أخذ التجنيد الالزامي كل الشباب المشاغبين من المقاطعات العثمانية ، ولم يبق سوى العجائز والشيوخ ، وتبين أن غياب الجنود والشرطة أثلج صدر كل الشرفاء في سورية ، وجعل هذه الفترة فترة ارتياح ممتعة ، وربما مثيرة للاستياء في بعض الاحيان . ولم يكن أحد يتصور في أوربا بطء الطريقة التي تنتقل بها الاخبار في الشرق وكيف أنها تقابل بالشك في غالب الاحيان ، ولهذا كنا قد أسرعنا في رحلتنا لنعود بعدها الى أرض الوطن قبل أن تصل أخبار كوارث السلطان ، وقبل أن ينجلي الموقف بشكل كامل في البادية .

كل شيء جاهز للتنفيذ .. تأثرنا لحفل الوداع المثير ، فعانقنا أصدقاءنا بحرارة ، وولينا وجوهنا شطر المشرق معلنين بدء الرحلة . كانت نقطة البدء الاهتداء بمعلومات بسيطة تقول : ان الوصول الى حلب يتطلب منا المرور بميناء بحري يدعى « الاسكندرون » ، نصل اليه من ميناء مرسيليا بواسطة السفن التجارية التي تقوم برحلات أسبوعية الى هناك . لن أصف الاثني عشر يوما التي أمضيناها في رحلتنا البحرية ، قبل أن تتتبع بعض الاحداث والتطلع بذكاء الى الارض التي تمتد أمامنا .. كان القبطان رجلا أمينا على سلامة المسافرين . أبحر عبر المتوسط منذ أربعين يوما ، ولكنه لم يسمع بمسافرين

على ظهر السفينة يريدون النزول في ميناء اسكندرون وهم في طريقهم الى بغداد ، بينما يعرف أن مدينة حلب تقع على مسافة مائة ميل في البر ، ولم يكن هناك من طريق واضح يصل اليها • وأضاف قائلا : ان السياح يتجنبون المرور بها بسبب مرض غريب يصيب كل من يمر بتلك البلاد ، وكرر ذلك أمامنا أكثر من مرة • وعلمنا أن حبة حلب عبارة عن انتفاخ يظهر على الوجه أو اليدين • وربما على القدمين ، ثم يتقيح ويتقرح لستة أشهر أو سنة ، ثم يختفي بعد ذلك تاركا على وجه الاطفال ندبات واضحة ، ويفضل أن يترك بدون معالجة ، لأنه سيزول من تلقاء نفسه ، ويترك آثاره في جلد الصغار أكثر من الكبار • وآثاره في وجوه السكان بمدينة حلب تتضح بندبات عميقة ، ولا يعرف سببه فيما اذا كان الماء أو الهواء • وليس هناك من وسيلة ناجعة تقي من شر هذا المرض ، وليس له دواء معروف ولا معالجة(١) تذكر • فبعضهم يعزو سببه الى الماء في نهر صغير في مدينة حلب ، ولكنه قد يظهر في الموصل وبغداد وفي كل المدن العليا من العراق تحت أسماء مختلفة ، ففي بغداد يسمونه علامة البلح • وهناك قصص عن رحالة كانوا قد أصيبوا بهذا الداء بعد أن تجاهلوا خطره • وأضاف طبيب الباخرة ـ مخاطبا بالفرنسية ـ القول : ان براعم المرض قد تزهر من جديد بعد عشر سنين من بدء الاصابة • أوقفنا التحدث عن مثل هذه الامور لأنها لا تخدم أغراض رحلتنا ، ولا نرغب بالمزيد من مثبطات الهمة • صاحبنا في مدينة أزمير مسافر معروف من بلد « ڤو(٢) »، جاء الى ظهر السفينة بحبات تظهر في وجهه ، وعرض علينا مبادلة أي شيء نملكه بما يحمله من التين وريش النعام ، وهو التاجر الذي عانى الكثير من أجل التجارة ، اذ جاب الحبشة وحوض النيل الازرق ، وسافر من تفليس(٣) الى بغداد ومن بغداد

---

(١) كان هذا في الماضي البعيد ، اما اليوم فيمكن بسهولة .

(٢) « ڤو » : تعني مقاطعة او كانتون « Canton » وهو تعبير يستخدم في سويسرا بصورة خاصة .

(٣) تفليس عاصمة اذربيجان .

الى دمشق في قافلة . ويزعم أن الرحلة قد كلفته « ٣٠٠ » جنيها استرلينيا ناهيك عن عناء السفر . ولم يسمع في حياته بشخص يزور بغداد لمجرد المتعة . ونصحنا ـ فيما اذا كنا لا نزال نصر على المضي في الرحلة ـ أن نتاجر بالحرير، فقد يساعدنا ذلك على تغطية نفقات السفر .

يعرف هذا التاجر الفرات ويصفه بأنه نهر عظيم كنهر « الراين » ، ولكنه مجرد من الروافد . وتمنى علينا هذا التاجر أن نقضي الشتاء في بيروت حيث الفندق الفرنسي والمقهى الممتع . ونضيف الى صفوف الرواة شخصا «بولنديا» يعمل في خدمة الاتراك ، ومهندسا فرنسيا كانا في طريقهما الى مدينة أضنة أحدهما ابتاع جيادا من مدينة الدير[1] على الفرات ، والاخر كان قد شارك في رحلة مائية تجريبية قامت بها سفن بخارية حكومية في أعالي النهر قبل أربع سنوات . ولم يشجعانا على ارتياد البر الا عن طريق ديار بكر ومن ثم الى الموصل ، وهي مسيرة خمسة أسابيع للقافلة ، ثم نطوف منها الى بغداد عبر دجلة ، وقالا : لم يصدف لأحد منا السفر عبر الفرات ، ولا ندري فيما اذا كانت الرحلة عبره آمنة . ولكن في الخامس من كانون الاول انتهت بنا الشكوك والحيرة الى نهاية مفاجئة عندما وصلنا الى خليج اسكندرون . وفي الصباح الباكر وجدنا أنفسنا وقد حططنا الرحال في البر الآسيوي . وانتهت قبل وصولنا المتاعب والشكوك .

* * *

---

(١) تعني دير الزور على الفرات .

الفصل الثاني

« يجب ان تعلموا ان ابي كان تاجراً تركي الأصل » .

ترسترام شاندي

ميناء اسكندرون ــ بقايا شركة الشرق ــ تاجر بغال ينقلنا الى حلب ــ جياد البوني[1] في بيلان ــ عبرنا بوابات سورية ــ مقتل تاجر البغال ــ الجنود الاتراك ــ لهو على العاصي ــ ليلة في خان ــ عواصف ثلجية ــ حصان ميت ــ قرية طوقان ــ اليوم الاخير من بؤس الشتاء ــ الوصول الى حلب .

الاسكندرون : الاكسندرينا ــ كما كانت تدعى أيام شركة الشرق ــ هي اليوم مجموعة من الاكواخ المتناثرة على شاطىء البحر عند أقدام جبال الامانوس ، وعلى خليج مهجور يصلح لرسو السفن ، وتحيط بها المستنقعات من كل جانب . وفي تلك الزاوية النائية من البحر الابيض المتوسط حيث ملتقى سورية مع آسيا الصغرى ، يقع ميناء عظيم الاهمية كان لسنوات خلت المحطة الرئيسة للتجارة الانكليزية مع الهند ، الا أن اكتشاف رأس الرجاء الصالح جلب الى اسكندرون أولى الكوارث ، وتلتها الضربة القاضية باتخاذ الطريق البري عبر مصر . فمنذ خمسين عاما أنهت شركة الشرق أعمالها في المنطقة ولم يبق من آثار عصرها المزدهر في هذا الميناء البحري غير كومة من الانقاض تمثل بقايا مؤسساتها التجارية ، وقبور بعض الانكليز الذين جمعوا ثرواتهم وماتوا هناك . انه منظر يدعو الى الاسى والكآبة فمباني المؤسسات التجارية تسكنها الخفافيش والضفادع ، وغمرت المستنقعات فناء الدور وباطن المساكن ، وكأنها لم تكن عامرة في يوم من الايام ! انه مشهد يبعث في النفس المرارة بمجرد النظر اليه .

---

(١) خيول البوني : خيول صغيرة في أوربا .

تبدو الاسكندرون اليوم بدون خان ولا مسجد • ويروى أن سوقها قد احترق بكامله منذ أيام ولكنها لا تزال أقرب ميناء بحري بالنسبة للقوافل المتجهة الى بغداد • واذا كان مشروع خط الفرات الحديدي سيزيد من عزلة اسكندرون من جديد ، الا أن المستنقع يمكن تجفيفه • وستختفي الحمى الشائعة من هناك ، عندها ستتمتع المدينة بأجمل منظر في الدنيا عبر الخليج الى جبال القرم(١) التي تغطيها الثلوج البيضاء في وقتنا الحاضر •

حللنا بارتياح ضيوفا على نائب القنصل البريطاني السيد كاتوني الكورسيكي المولد ، والذي تقلد مهام منصبه مؤخرا ، بعد نائبين سابقين أحدهما سويدي والآخر يوناني ، فاستضافنا بحفاوة بالغة لأن المسافرين الانكليز الذين يمرون من اسكندرون قلة ، وباستقرارنا في داره أزيح عن كاهلنا كثير من المتاعب والهموم •

أرسل نائب القنصل في طلب الحاج محمود ، وهو الحمال المحترم في المدينة ، وكلفه نقلنا مع حاجياتنا الى حلب ، مقابل أربعمائة قرش • كان محمود حسن المظهر كما هو حال كثير من السوريين ، وقد ارتدى حلة أنيقة بعمامة مخططة و « جاكيت » وبنطال مخططين مع زوج من الاحذية المراكشية الطويلة، وقف بكبرياء وتعهد أن ينقلنا بأمان على ثلاثة بغال للمتاع ، وعلى جوادين قدمهما لنا • كان المبلغ معقولا لأربعة أيام من السفر في كانون الاول ، في وقت توقع أن تكون الطرق فيه صعبة العبور ، على الرغم من أننا لم نلاحظ في اسكندرون أية اشارة لقدوم الشتاء ، قد بدت الاسكندرون بشاطئها الازرق وسمائها الصافية وكأنها في صيف أبدي متواصل ، الا أن الثلوج كانت تتوج قمم جبال طوروس على بعد مائة ميل كانت تنذر بشتاء وشيك • كان علينا أن نأخذ بعض الخبز كمؤونة في السفر ، فقد لا نعثر عليه في الطريق ، وعلينا كذلك أن نتدبر كمية من البيض ولحم الدجاج التقليدي الذي ينتظر المسافرين في تلك البلاد ••• ذهب طباخ القنصل معي الى السوق وبمساعدته اشتريت ثلاثين

---

(١) كتبت هذا الكلام قبل ضم قبرص •

رغيفا من خبز التنور الساخن مع بعض الملح والفلفل ، ودورقا من الزيت وربطة من البصل . وبتوفر الخبز والبصل يمكن للمرء أن يسافر بعيدا في تلك البلاد . وهكذا سرنا بمتاعنا وبحقيبة لا بأس بها من « البيشليك » وهي العملة السورية الدارجة في ذلك الوقت ، وقد ادخرناها لحاجاتنا الماسة . ارتفعت معنوياتنا ، ودب فينا النشاط بسبب المناظر الخلابة التي تطالعنا والبلد الجديد الذي فتح ذراعيه لاستقبالنا . ركبنا في ساعة مبكرة من الصباح في اليوم السادس من كانون الاول عبر شوارع الاسكندرون الموحلة ، وعبر المستنقعات باتجاه طريق صاعدة اعتبرناها بوابة الارض السورية في طريقنا الى حلب . كان الصباح دافئا الى درجة تركنا فيها العباءات الثقيلة ترتمي عن أكتافنا . ولكنها أبقيت في متناول اليد خشية تقلبات الجو المفاجئة . كان المستنقع الذي مررنا به مرتعا لطيور الرفراف ـ القاوند أو ملاعب ظله ـ التي كانت تنتصب على أسلاك أعمدة التلغراف ، وبين الفينة والاخرى تنقض على الماء ليندفع رشاش رائع في الهواء . أما خيول البوني الشعثة فقد مشت بنا الى الامام ، في الوقت الذي جلجلت فيه أجراس البغل الذي يقود الركب بسرور بالغ ، وفي جو شاعري بهيج يوحي الينا بأننا نشق طريقنا عبر آسيا ، وفي نفوسنا شعور غامض بالمغامرة يجعلنا نتوقع بأن اليوم الاول من الرحلة سيكون أقل متعة من اليوم الاخير . تجاوزت بنا الطريق مجموعة من المستنقعات ، وانعطفت بلطف بين الوهاد والمجاري المائية أسفل التلال .

ضم الموكب كثيرا من رفاق السفر من راكبي البغال والحمير والخيل والجمال وبعض المشاة . وبدا لي أن هذا المر هو من أعظم الممرات المرتفعة في آسيا ، كما مر بقربنا كثير من الناس بدون كلام ولا سلام باستثناء واحد أو اثنين تبادلوا الايماءات مع محمود . وحالما استدرنا خلف التلال قابلتنا ريح عاتية كادت تعصف بنا ونحن على ظهور البوني ، وأمام هذا الواقع أثرنا همم الجياد البيض ، واستعنا بالمعاطف ذات القلانس التي كان محمود ومساعده قاسم يرتديانها . وبعد صراع دام ساعتين وصلنا الى ملجأ احتمينا به حيث

توقفنا في مدينة بيلان ، أول محطة للاستراحة في الطريق وفي هذه الاثناء مر بنا القنصل(١) والذي كان قد سلك الطريق على ظهر جواد أبيض فألقى تحيته وتركنا في الخان • بدا لنا الخان مكانا لائقا قام فيه صف من الغرف الخالية في الطابق العلوي شوهت جدرانها كتابات تنبىء عن أسماء تجار وبحارة شرقيين وفرنسيين قدموا من انطاكية ، أو ذهبوا اليها مرورا بهذا المكان • أمضينا هناك نصف ساعة قام القهوجي فيها بقلي البيض واحضار القهوة من حانوته • وفي هذا المكان تابعنا الطريق بوسائلنا الخاصة الضعيفة أمام المتاعب الكبيرة • تعلمنا قليلا من مفردات اللغة العربية في مصر والجزائر ولكنها لم تعد تنفع مع الحاج محمود ورفاقه اطلاقا • فالسوريون الشرفاء الاتقياء كانوا غير معتادين على الخوض في حديث مبهم اللسان • لقد كنا في منطقة بعيدة عن المترجمين والباعة المتجولين من اليهود والاولاد الطليقي اللسان الذين يركبون الحمير ويقتفون أثر السياح في الاصقاع الاسيوية طمعا في الحصول على بعض النقود • اننا نشبه هذه المعالم من البلاد بما كنا نشاهده في مرو وأصفهان • وكان الحاج محمود طيب السريرة وان لم يكن سريع البديهة • وكنا نملك ذخيرة من الصبر وددنا أن لا تنفذ قبل تحسن الامور •

توسل الينا محمود بأن تتكفل بالبغال قبل فوات الاوان ، فوافقنا بسرعة وأخذ اعدادها للسفر بنا بضع دقائق كانت بعدها خلف ذروة الشِعْب في طريقها الى انطاكية في جو شديد البرودة ، وكأن اعصارا بدأ يهب علينا هناك في وقت بدت فيه البحيرة ومستنقعات انطاكية تطل علينا من بعيد • لقد اجتزنا المرتفعات العالية وبدأنا بالهبوط باتجاه السهل الذي لم يكن يرتفع فوق مستوى سطح البحر أكثر من بضع مئات من الامتار • ان الانحدار الذي نمر فيه هو أسهل من انحدار الجانب الغربي من الجبال • وعندما هبطنا مسافة أربعمائة أو خمسمائة متر وجدنا أنفسنا في قفل قادم من حلب فيه جنود في طريقهم الى

---

(١) لم تشر الى اسم القنصل بوضوح •

الحرب ، بعضهم في ألبسة نظامية وبعضهم رُبطوا بأصفاد خشبية ، وتبين لنا بأن هؤلاء من الفارين من الخدمة العسكرية ، ألقي القبض عليهم ليعادوا اليها من جديد • وعلمنا فيما بعد بأن ألفا وخمسمائة شخص غادروا حلب الى ميادين القتال ، الا أن ثلثهم أفلح في الهرب في الطريق بعد أن دفع مجيديا ــ مقدار أربعة شلنات ــ رشوة لقائده • وعندما ألقي القبض عليهم فيما بعد احتجوا بقوة لأن المال لم يعاد اليهم • ان الجنود الذين شاهدناهم كانوا مجموعة من الرجال في مظهر حسن وصحة جيدة ، ولكن معنوياتهم منهارة ونفوسهم حزينة لأنهم تركوا ذريات فقيرة من أجل أمجاد زائفة تريدها الامبراطورية من وراء الحرب • كانوا يتحدثون باختصار ، وبعضهم يمشي بدون انتظام ، وقد استفسروا منا عن المسافة التي تفصلهم عن بيلان • كنت أرثي لحالة هؤلاء البائسين الشباب الذين دفع بهم حظهم العاثر الى هذا المصير المجهول مع ندره الطعام ، وضعف الامل بأن يعودوا الى أوطانهم من جديد ، بعد أن سمعوا بسقوط مدينة قرص • وعندما تركنا آخر جندي في هذا الرتل أتينا الى بستان من أشجار الزيتون قتل فيه منذ عدة أسابيع بغّال بيد التركمان في جبال الامانوس • كان البغال ينقل تاجرا غنيا عاجزا من حلب على محفة ، أوقف التركمان قافلته وطلبوا من التاجر المبلغ الذي يحمله من المال ، ومقداره أربعة آلاف من الجنيهات الا أن التاجر عرض عليهم مستندات التبادل التجاري « الفواتير » ، وأخبرهم بأنها كالمال المدون « الشيكات » بينما أخفى بعناية في محفته المبلغ المطلوب ، عندها توجه التركمان الى سائق البغال شريكهم في الجريمة ، وأطلقوا على رأسه النار قائلين هذا جزاء الصديق الخائن المزيف ووصل التاجر الحلبي الى بلده بسلام مع كل ذهبه و « فواتيره » •

كانت الشمس على وشك المغيب عندما انتهى بنا المطاف الى مجموعة من الاكواخ الطينية ، فأدركنا الليل وكان لزاما علينا أن ننام هناك في المكان الذي يسمى خان ديار بكري ، وعلي أن أقول : ان معنوياتي قد ضعفت بعد أن استطلعت تلك الاكواخ غير المضيافة ، وأسفت أشد الاسف لأننا تركنا خيامنا

في انكلترا ، فالريح قاسية ولم يكن بوسعنا أن نفعل أكثر من أن نختار كوخا فارغا في الخان ، ولذلك رتبنا الامتعة في المكان المخصص لنا على الرصيف حيث ينام المسافرون • يتألف الخان من بناء بسيط فيه أربعة جدران طينية وسقف من الجريد ، وعمود يتوسطه ليعلق عليه « الفانوس » ••• أرضه ترابية يتوسطها موقد حفر في الارض ، أما الاسرة فهي مصاطب لا تليق حتى بالكلاب التي تعيش في بلادنا ، ولكنها طريقة عملية لأنك عندما تكون في نومك على هذا السرير المتواضع تكون بمنأى عن الزواحف والقوارض ، وتنام على عرض مناسب لا تطؤك فيه الاقدام ،و ترتمي فوقك الاجسام المتدافعة الى النار • كنا متعبين في اليوم الاول من الرحلة ، وما ان نشرنا أغطيتنا حتى باشرنا في نوم عميق ساعة أو أكثر على الرغم من الضوضاء وغرابة الساكنين معنا من الفلاحين الذين لم يتدخلوا بشؤوننا قط • وعندما استيقظنا من نومنا سمحوا لنا بمشاركتهم الاحاطة بالموقد لنسخن عليه الخبز ورأينا أنه ليس من اللائق تناول الطعام دون مشاركة الاخرين ، فبدأ كل واحد منا يمضغ خبزه راضيا بوجبة عشائه ، وأعددت بعض القهوة وقدمتها لجلسائنا • وعند النوم سمعت قوقأة ديك تذكر بالعشاء من الليل • ولكننا لم نعر ذلك أي اهتمام لأننا فوق أرض الاحلام ثانية • وكان آخر الاصوات التي سمعتها تلك الليلة صوت طفل مصاب بالسعال الديكي وشخير سائق البغال العالي الوتيرة • ثم هدأ الخان بمن فيه عدا القطط التي كانت تجوس خلسة حول المكان حتى الصباح ، وتزحف لتشم وجوهنا الواحد بعد الاخر • وعند صياح الديك أيقظ الحاج محمود البيت معلنا بصوته الجهوري أن الوقت حان للمغادرة ، لأننا نمنا تسع ساعات ، ولأن المسلمين يستيقظون من نومهم عندما يميزون الخيط الابيض من الاسود من الفجر ، فطوينا الفرش وانتعلنا الاحذية وتوجه كل الرفاق الى الموقد لتدفئة الايدي والاطراف الباردة • كنا آخر من تحرك بينما أرسلت الامتعة مع الحاج محمود ، وغادر المسافرون الخان فبقينا بضع دقائق حول الموقد حيث جلب لنا صاحب الخان القهوة و « فاتورة » الحساب فجعلناه سعيداً بثلاث «شلنات»، وهكذا انتهت مغامرات ليلتنا في ذلك اليوم المنصرم •

كانت السماء قد أمطرت منذ يومين ، وكانت الريح باردة خارج الكوخ : فأصبت بصداع ، وهدنا التعب ، ولفنا الحزن والاسى ، ولكن بعد فوات الاوان ، فنحن نسير بعيدا على حافة التلال المتجهة شمالا في طريق يهبط الى السهل ، فبدا على يميننا مستنقع كبير تتطاير منه أسراب دجاج الماء ، وطيور الشنقب ، وطيور الزقزاق ومالك الحزين يتبعها بين حين وآخر سرب من البط • اني ألاحظ طيور البوشار والحذف كالتي كنا نراها في انكلترا ، ومنها البط الابيض والاحمر الجميل الذي لا بد وأن يكون الشهرمان الجميل • وتخترق المستنقع طريق رومانية قديمة مررنا عليها ، ثم انعطفنا بحدة الى اليمين لنجد رواحلنا فوق جسر مرتفع أقيم على نهر العاصي • وهنا ترجل ولفرد ليؤمن لنا بحرص بالغ وجبة عشاء سخية ، وكان محظوظا عندما تمكن من ايقاف زوج من طيور الشولر ، كان يطير عبر النهر ولحسن الحظ أنها سقطت فوق الجسر حيث كنا نمر والا لما استطعنا التقاطها ، ثم توسل قاسم في طلب المزيد ، فقام ولفرد بتسديد ضربة مزدوجة الى طيور الغراء فأحضر الى الحقيبة أربعة طيور منها ، وتشجعنا في طلب المزيد من الطرائد ولكن الجو لم يسمح لنا بذلك فقنعنا بما في أيدينا من صيد ، وسارعنا الخطا في المسير لنصل قبل المطر ، وبينما نحن نسير صادفتنا قوافل الجمال وفيها ألف بعير يقودها بدو من العقيل(١) وقوم من الحضر ، وأقدر بأنها كانت تحمل الذرة للحكومة ، وقد شكلت الجمال قافلة كبيرة يقودها بعير ضخم يحمل العلم التركي ويرافقه بعض الجنود ، كانت تلك أروع قافلة وأروع جمال كنت قد رأيتها في حياتي • وصلنا الى عفرين في الوقت المحدد ، ولكن المطر بدأ بالهطول ؛ وقبل حلول الظلام تدفق السيل بغزارة ، ولكننا جاوزنا المضائق التي تتعطل عندها القوافل أياما بسبب الفيضان في فرع من فروع العاصي كان بدون جسر ولا معدية • حللنا في خان عفرين الذي يدعى بالعربية الخان الاخير فوجدناه أكثر ازدحاما

---

(١) العكيل أو العقيل : جماعة من بدو نجد كانوا يرافقون البريد والقوافل التجارية في زمن الحكومة العثمانية .

بالمسافرين ، ومنهم كوكبة من الجنود تحلقوا حول الموقد فنظروا في خرائطنا وسألونا عن أخبار الحرب ، وحدثونا بذكاء واضح ولكن بمعلومات جغرافية بسيطة وأكثر ما سألونا عنه مدى صحة المعلومات عن سقوط مدينة قرص ، فأفدناهم عن صدق المعلومات وأخبرناهم أن عثمان باشا في بلغاريا بخير وفي هذه الاثناء تقدم منا صاحب الخان وتوسل الينا بالفرنسية أن لا نوغل في الحديث حتى لا تغضب الجنود ، وقال : اني مسيحي ويسرني اندحار الاتراك الا أن التصريح بهذا يغضب الجنود ، طلبت من هذا الرجل أن يطبخ البط للعشاء ويقلي لنا بعض البصل ٠ جلس الجنود يتجاذبون أطراف الاحاديث السياسية طوال المساء حتى وصل بهم الامر الى الضرب والمشاكسة ٠ ويبدو أن بعضهم كانوا سكارى والدخول مع السكارى بعراك قد يؤدي الى نتائج لا تحمد عقباها ، وكنت أخمن أن يكون لمحمود ولع بالخمرة والا لما كانت عيناه تتقادحان ولما تعرض لنوبات مفاجئة من الفرح والابتهاج بدون أي سبب ظاهر ، اني أتمنى أن أكون قد أسأت الظن فيه وقد يكون غير ذلك ٠

استقبلنا اليوم الثالث من رحلتنا ، وقد ارتدينا المعاطف والعباءات لتحمينا من المطر الذي أخذ ينهمر بغزارة ومن الريح التي كانت تهب من الشمال ٠ كان الطريق موحشا موحلا بوحل صدئي أحمر، ويتعرج في هضاب صخرية منخفضة تعصف من ذراها الريح بشدة محولة المطر الى برد ، بينما سفوح تلك التلال تنعم بهدوء نسبي ان اجتياز تلك الطريق أرهقنا وأرهق مطايانا التي عبرت بقايا حقل فأصابها البال حتى العراقيب ، مع أنها تمضي بمرح على الرغم من خطر الانزلاق على الصخور ، فما من مخلوق يمشي فوقها الا ويركع على ركبتيه في أيام المطر ٠ ان المشي كان مستحيلا وكم من مرة حاول فيها ولفرد المشي فلم يفلح لأن الصخور كانت ملساء كالزجاج ، كانت أقدامي تؤلمني من شدة البرد بشكل موجع لم أشعر بمثله من قبل ، وقد تجمدت أصابعي الى درجة انعدام الحس على الرغم من أنها كانت في جيوبي ، وجلسنا فوق ظهور الخيل كتماثيل بشرية فاقدة القدرة على الحركة ، وتركنا لها حرية اختيارالطريق والاعنة مسيبة فوق أعناقها ، معتمدين على العناية الالهية وعلى الحس السليم

الذي كانت تتمتع به • وتصورت بأن السقوط الى الارض محتمل ، واذا ما حصل فستكون فيه النهاية لنا ، وأنه لا الخيل ولا الفارس تستطيع النهوض من الوحل ثانية ويؤكد صحة هذا الاعتقاد مرورنا بحصان ميت يقف فوقه رجل عجوز في صورة معبرة عن اليأس ، ويبدو أنه كان منسحبا من الجبهة بطريقة افرادية ودون توقف ، وكم مررنا بقوافل من الخيل كانت ترعى في أماكن محمية ، وأصحابها ينعمون بالدفء تحت خيامهم السوداء ، وقد تكدست الاحمال حولهم لتصنع لهم حاجزا من الريح •

كان الركب يائسا بشكل واضح ولم تتوقف ولو لحظة طوال اليوم كله ؛ ولم يكن لدينا وقت للتوقف والاعتبار لأننا نمر بساحة المعركة التي هزمت عليها زنوبيا⁽١⁾ من قبل أورليان ، وأن الاطلال التي انتصبت هنا وهناك على تمم التلال كانت قصورا عامرة دمرها أيوب في عهد الملك داوود • ويبدو أن المنطقة كانت مأهولة في يوم من الايام وأن آلاف « الفدادين » من الارض الصالحة للزراعة قد هجرت منذ آلاف السنين وتحولت المنطقة الى خراب مهجور ، ولم نمر بأكثر من قرية أو قريتين كانتا في الطريق ، وان السهل الذي نزرعه يبدو محروثا للتو ، وفي هذا العام بالذات نظرا لظروف الحرب والبطالة من العمل ، وهو جزء بسيط من الارض البور التي تنمو فيها النباتات الشوكية •

ان ملكية الارض في تركيا أمر يخص السلطان وحده الذي يتلقى من فالحيها ضريبة العشر والقانون الزراعي يعطي الحق بالاستملاك للمزارعين ، ويسقط هذا الحق اذا ترك المزارع أرضه بدون زراعة ثلاث سنوات ، ويحق لجيرانه عندها أن يهبوا لامتلاكها واحيائها • والاستئجار في هذه الاحوال أبدي والارض المستملكة تباع وتشترى حتى ولو كانت بدون استملاك دائم تماما كما نبيع ونشتري الاراضي المستأجرة في لندن ، وتبين لي أن التنافس على الارض يكاد لا يذكر ، وأن معظم الاراضي في مقاطعة حلب ليس لها سوق

---

(١) زينب ملكة تدمر : حاربت جيوشها في شمال سورية جيوش الامبراطور الروماني أورليانوس •

رائجة . التقينا برجل سوري في مدينة حلب ، فأخبرنا بأن أفضل أرض للبناء تباع في المدينة بخمسة عشر قرشا للمتر الواحد ، وفي الضواحي بقرش ، وفي الارياف ربما تحصل عليها بدون قيمة . وسمعت أن بعض الاوربيين حاول امتلاك الاراضي البور في المنطقة ، الا أن محاولاتهم قد باءت بالفشل لأن الحكومة لا تشجع مثل هذه المشاريع . ان في سورية ملايين الفدادين من الارض الزراعية الجيدة والمروية في طقس مناسب ، ولكنها تحتاج الى الفلاحين المهرة لاحيائها وفي نظرة تأملية كئيبة لمآسي البشرية بالاضافة الى المعاناة الخاصة التي نكابد فيها ونعاني من تجمد الاطراف والايدي ، انقضى يومنا على هذه الشاكلة .

وأخيرا بدت تلوح في الافق بلدة طوقات(١) ونحن نتخبط في الطريق اليها بسرور بالغ لأننا نطمع أن نأوي الى ملجأ من البرد اذا كنا لم نطعم فيها . كان لمحمود أصدقاء في طوقات لذلك جئنا الخان وسار بنا الى بيتهم .

كان البناء مربعا وجدرانه من الحجر الاثري المنحوت ويمتد خمسة عشر قدما بدون نافذة أو فتحة سوى الباب الذي يطل على الشارع ويصعد اليه بدرجتين ويرتكز البناء على قناطر منتظمة ، وطلي بالجص الى درجة الاناقة والراحة التي لم نكن نتوقعها فيه ، وليس له من أرضية سوى الصخر الذي سوي بدقة ومدت فوقه الحصر الانيقة النظيفة ، وفي زاوية منه تقبع أربعة أحواض متواضعة امتلأت بالذرة ، وفي الجدار خزانة مفتوحة على شكل فجوة مقوسة قبالة الباب ، وفي الجانب المقابل اصطفت مجموعة من العيون المربعة صنعت من الطين على شكل برج الحمام وكأنها رفوف المكاتب في الدوائر الرسمية ، وبدا المكان وما فيه وكأنه قطعة نحت واحدة ظهرت بلون أبيض جميل . انها بالفعل غرفة جميلة جدا تشرح الصدر ، وعلى الارض هذه باشرنا تناول طعامنا حالا .

---

(٢) انها بلدة خان طومان جنوب غرب حلب .

استقبلتنا في الدار امرأة أنيقة تحمل طفلا ، ورحبت بمحمود ، وأمطرته بسيل من الاسئلة والاستفسارات اللطيفة ، ثم أحضرت كانونا يتقد فيه جمر حي ، وأشعلت نارا من أغصان ذات رائحة زكية دفأنا أيدينا عليها ، وساعدتنا على خلع ثيابنا الرطبة ونشر فرشنا على الارض • ولكننا لم نجد هناك القهوة ولا أي شيء يؤكل سوى نصف دزينة من البيض مع خبزنا وبقايا ديك عنربن . ومع ذلك كله كانت وجبة شهية بجانبها ابريق من الماء وكأس من التنك شربنا به بهدوء وطمأنينة •

كانت مضيفتنا رائعة أحسنت ضيافتنا ، ثم جلست تغزل القطن بدولاب خشبي من الطراز القديم ، وتهز بقدمها مهد طفلها المدلل تماما كما تفعل أية زوجة عاملة انكليزية،وهي بعمر الخمسين ومع أحمد الذي تسميه : أحمد بك• قضت وقتاً لا بأس به في التدليل والمداعبة • وتصورت أن كل شخص يرتاد المنزل عليه أن يشارك في الاعتناء بالطفل وتسليته • كان محمود يشعر بالارتياح مع صحن من البيض وكومة من اللحف على الارض • ونحن في زاويتنا حاولنا جهدنا أن ندفأ ولكن البرد كان قد نفذ الى عظامنا على الرغم من جمر الكانون الملتهب ، وحاولنا أن نتكلم مع أدوبة(١) كما كانت تدعى الا أن لهجتها العربية لم تتفق واللهجة التي كنا نتحدث بها ، ولم نتابع التحدث معها باللهجة المصرية التي لا تفهمها • وكان علينا أن نبدأ كل شيء من جديد ، ومن المؤسف حقا أن نجد نبرات ونمط التشديد في الكلام مغايرا تماما لما كنا نسمعه في القاهرة • استمرت أدوبة في الغزل على ضوء نار خافتة وكان دولاب الغزل يدق كالطبل وعلى صوت طنينه استغرقت في النوم حتى الغسق • استيقظت ثانية قبل أن ينطفيء « المصباح » • شاهدت صاحب الدار خليلا وزوجته قد لفا نفسيهما في كومة بجانب أحمد وعلى الطرف المقابل من الموقد ••• استلقى الحاج محمود

---

(١) اسم الدلال لامرأة تدعى اديبة .

بارتياح وأخذ يشخر مدثرا نفسه بكومة من اللحف قرب الخزانة ، بينما كان المكان الذي يخصنا جانب الصف الاول من العيون الطينية والذي كان أنسب مكان في الغرفة ، الا أننا لم نستطع النوم بسبب البرد القارص فأمضينا الليل ونحن نرتجف ، بينما كانت الريح الهجوم تزمجر خارج الدار ترافقها طقطقات من المطر .

أسرعنا بما تبقى من الطريق كما فعلنا في اليوم الماضي ، لنطارد مآذن حلب التي شاهدناها قبل خمس ساعات من وصولنا الى المدينة ، وكانت لا تزال تمطر بغزارة عندما وصلنا فجأة الى حلب عند منعطف تلة تحفها الاشجار والبساتين وبجانبها غابات وأبراج ومآذن ، وقد شكلت منظراً من أروع المناظر في الدنيا . ولم نتوقف لنعجب بل مضينا مع حشد من المسافرين والبغال والخيل والحمير الى وسط المدينة فوجدنا أنفسنا أمام باب الفندق « اللوكندا » وعندها كانت نهاية متاعبنا !

وهنا يرد الى ذهني قول بويك :

« إن الأوقات العصيبة ، والأوقات السعيدة وكل الأوقات قد انقضت » .

* * *

الفصل الثالث

اكتب ما اقول ... حدث هذا مرة في حلب .
شكسبير

في مضافة كريم ـ حكايات السيد الافطاعي ـ قصة جدعان مع الباشا ووفائه لصديقه أحمد ـ العنزة في نجعتهم ـ التفكير بزيارة البدو ـ سيد أحمد واليهود ـ الشحاذ الوقح لا يعرف الاستسلام .

انه من حسن الطالع أن تحتجزنا العواصف والثلوج شهرا كاملا في مدينة حلب . فشتاء عام ١٨٧٧ ـ ١٨٧٨ أقسى شتاء مر في تاريخ سورية . ومدينة حلب لم تكن وحدها التي شغلتنا ـ على الرغم من كونها مدينة شرقية رائعة ـ بل شغلنا بتفقد الحال الذي صرنا اليه ، ولنكون فكرة متكاملة عن الديار التي نزمع زيارتها ، ولنلم بعادات سكانها وتقاليدهم . وكل المعلومات التي حصلنا عليها أثناء مكوثنا في حلب كانت أكبر خدمة يمكن أن تؤدى لرحالة .

لم يكن بوسعنا البقاء الا ساعات قليلة في فندقنا . اذ حشرنا في مكان بائس موحش مزود بباحة تشبه البئر . وقبل أن نستقر في المكان بعثنا في طلب القنصل البريطاني السيد « سكين(١) » عن طريق الرسائل التي حملت اليه بواسطة زوجته اللطيفة فهرع القنصل الينا وأجبرنا بلباقة على تبديل مكان اقامتنا المرعب والنزول ضيوفا في بيته المريح . وعلى الرغم من أن القنصلية كانت قد دمرت جزئيا بواسطة زلزال ضرب المدينة منذ خمس سنوات ، فقد بدت جذابة ببناء شيد من حجر متين على شكل أقواس فوق نهر صغير تسمع منه صوت الماء ينساب عند أقدام الحجرات بوضوح تام . انه نمط من الابنية

---

(١) لم تشر الى اسم القنصل صراحة واشارت بحرف «S» فقط ، واوردت بعض المصادر انه طلب منها ذلك لحساسية الظروف السياسية في المنطقة.

الشرقية التي تقوم بين الماء والاشجار المحببة . كان المنزل ديرا فيما مضى ولا يزال محافظا على الهندسة التي تناسب تقاليد الرهبنة فها هـي مغارة في الحديقة تدفن فيها الراهبات ، وها هي حفر نحتت في الصخور تحتوي على العظام ، حيث جمجمة وبعض الاضلاع البشرية ملقاة ومكشوفة هناك ، وذلك شائع في أديرة الشرق وبجانب ذلك كله انتصبت طاحونة من الحجر المنحوت، وسط أشجار الصفصاف وتوت العليق . ان الماء والطاحونة والجمال الطبيعي على ضفاف النهر كان يجتذب حشود المتنزهين في أيام الجمع والاعياد ، جاعلا من هذا المكان منتجعا طبيعيا يماثل ما كنا نراه من جمال طبيعي في استانبول .

حظينا في حلب بالراحة الجسمية والطعام والمأوى وبالتسلية الذهنية التي تمثلت في معرفة مزيد من الارض التي تمتد أمامنا ، فمضيفنا في الستين مـن عمره وله خبرة ثلاثين عاما بالحياة الشرقية ، ويعتبر مرجعا متخصصا وصادقا في كل القضايا المتعلقة بتركيا . والسيد « سكين » جعلنا نهتم بصورة متزايدة بالبادية وساكنيها الغرباء عنا ، ومنه عرفنا لأول مرة الحقيقة عن وادي الفرات ومنطقة العراق والطريق التي يجب أن تسلك والطرق غير السالكة الى هناك . لأن السيد « سكين » كـان نفسه من المغامرين الشجعان الذيـن تحمسوا للاستكشاف في الماضي ، وأقام صداقات مع البدو ، وتنقل بين القبائل كواحد من أفرادها .

وأخيرا وجدنا في هذا الانسان الزميل المتعاطف الذكي الذي يشاطرنا حب المغامرة في وقت يمر فيه العالم بمآسي وآلام تثبط الهمم وتوهن العزيمة ، ويعود الفضل اليه في تطوير مشروعنا المبهم ، الذي نود فيه أن نمضي الشتاء في جوار بغداد . ومن حسن الحظ أن هذا المشروع قد تحول الى حقيقة كان من نتائجها اصدار هذا الكتاب . انها مفاجأة سارة تخيلنا فيها أنفسنا على عتبة بلاد الشرق مع دليل بارع في حل اللغز الاسيوي الجميل . كل هذا والمطر يتحول الى ثلج في حلب وتصل الاخبار الينا بقصص عن توقف القوافل في الطين ، فقد غطتها الثلوج في الجبال ، عندها أقنعنا أنفسنا بسهولة بالبقاء في

حلب نصغي فيها الى حكايات السيد القنصل باهتمام بالغ ، وتحولت هذه الحكايات الى حياة البدو وطرق عيشهم ، وهي أشياء كنا ننظر اليها ونحن في الغرب بغباء وجهل ، ولكنها الان بسطت أمامنا على ضوء ساطع جديد •

ان طرق الفرات سالكة ، ولكن لا تسير فوقها القوافل يوميا ؛ وأمام هذا الواقع يمكن لنا السير فيها بروح معنوية عالية ، ومثلنا الاعلى في تذليل الصعاب الرحالة كوك نفسه •

وحتى الان لا توجد موانيء صالحة تصلح لرسو السفن على ضفاف الفرات باستثناء واحد • ويروى أن قاربا للحكومة يقوم بين الحين والاخر بنقل المسافرين ، ولكن الاهم من ذلك كله وجود الطريق البرية التي تسير عليها القوافل ، وقد حمتها الحكومة بسلسلة من النقاط العسكرية الصغيرة . وتسير عليها دوريات الجنود التي ترافق تجار بغداد وحلب الذين كثيرا ما يغامرون في الشتاء بقصد التجارة • ومع ذلك علينا أن لا نغامر بالسير في هذه الطريق لأن الحرب قد جردت الحاميات الصغيرة من جنودها ، ولكن مضيفنا القنصل كان له رأي آخر فهو يرى أننا نستطيع السير على هذه الطريق بسلام ولا خطر علينا سوى جماعات البدو التي تطوف هناك ، وقد زودنا السيد « سكين » بمعلومات كافية عن جماعات البدو وقلل من أهمية الخطر الذي تشكله هذه الجماعات على المسافرين •

لخص لنا القنصل الوضع الراهن في البوادي المجاورة للفرات على الشكل التالي : تستوطن بوادي الضفة اليسرى من نهر الفرات قبيلة « شمر » ، وهي قبيلة قوية كثيرة العدد بدوية خالصة ، وهم أساسا من قبائل منطقة العراق ، بينما الضفة اليمنى لنهر الفرات قد سيطر على بواديها « العنزة » وهي تضاهي شمر في العدد والعدة اذ انتشرت هذه القبيلة من نجد في أقصى الجنوب وحتى حلب في الشمال • بقيت هاتان القبيلتان في حالة حرب دائمة ، وكثيرا ما تعبر سرايا الغزو النهر من كلا الجانبين للسلب والنهب وقطع الطرق • والمسافرون الذين يصادفون تلك المجموعات يتعرضون لخطر السلب فقط ، ونادرا

ما يتعرضون لاعتداء على أشخاصهم • يضاف الى ذلك كله كـون الوادي مسكونا من قبل عدد من القبائل المسالمة والتي تستهن الرعي ، وترفد القبائل المتقاتلة في بعض الاحيان ولكنها لا تشكل خطرا على المسافرين •

احتل الاتراك طريق القوافل على وادي الفرات منذ عشرين عاما تقريبا وأصبحت القبائل الصغيرة تتمتع بحماية الدولة •

لم تكن للقنصل خبرة كافية بقبيلة شمر ، ولا بالمكان الذي تستوطنه شرقي النهر ولكنه على صلة وثيقة بالعنزة ، وهو الذي قدم لهم خدمات جليلة وكثيرا ما كان يتوسط بينهم وبين الحكومة التركية، فوعدنا أن يعرفنا بهم درءاً للمخاطر وتحسبا من أجل المستقبل • وصديقنا القنصل « حكواتي » من الطراز الاول فقد بدت قصصه عذبة كقصص مواطنه والتر سكوت[1] وقد أدهشنا بقصصه عن جدعان[2] أحد شيوخ العنزة ، الذي وصفه لنا بأنه داهية البادية • وتبين لنا فيما بعد أن جدعان لم يكن ينتمي الى عائلة مشهورة ولكنه بدا لنا جنديا مغامرا شق طريقه بطريقة غامضة ، واكتسب مهارة حربية وشجاعة ومواهب بوأته لأن يصبح القائد الاعلى في قومه وركنا من أركان العنزة . ونادرا ما نجد قصة غير صحيحة تروى عن هذا الرجل الذي دخل في أحداث مسرح رحلتنا الى الشرق • وروى لنا القنصل أنه تعرف على جدعان عام ١٨٥٧ في الوقت الذي كان فيه عصمت باشا واليا على ولاية حلب وكان رجلا عسكريا طموحا • أراد عصمت باشا أن يجرد حملة عسكرية لتأديب الفدعان من العنزة• والفدعان بقيادة جدعان كانوا يقيمون في سهل الملح أو المالحة على الفرات .

---

[1] والتر سكوت : كاتب وشاعر اسكوتلندي « ١٧٧١ ـ ١٨٣٢ » من اشهر رواياته رواية « ايفانهو » .

[2] هو جدعان بن نايف بن ختعم بن تركي آل مهيد من الولد من قبيلة الفدعان ومنها : آل غبين والخرصة والولد وآ مهيد .
ومقر المهيد الاساسي في عين عيسى وفي الجزيرة غربي البليخ وشمال الرقة بخمسين كيلو مترا ونبع عين عيسى غزير كانت تنهل منه ابل المهيد .

وثقة بالنفس وطمعا باظهار المهارة العسكرية طلب عصمت باشا من القنصل الانكليزي السيد « سكين » الانضمام الى الحملة كشاهد أوربي على ما يفعل • كان عصمت باشا يقود الحملة بنفسه وفيها كوكبتان من الخيالة وسرية مشاة تحمل البنادق ترافقهم أربعة مدافع مقطورة بواسطة البغال •

كان على الحملة أن تسير ستين ميلا ، وأن تنام في العراء على هضبة فوق مملحة « الجبول » وكانت الليلة مظلمة ، والسماء ملبدة بالغيوم • وفي الصباح الباكر اكتشفت الحملة أن البغال المخصصة للمدفعية قد سرقت مما دفع الحملة لأن تقطر المدفعية بواسطة خيول العسكر • وفي المسيرة الثانية وصل الانراك الى السهل وساروا فيه عشرة أميال دون أن يصادفوا العدو • وعند المبيت شددت الحراسة على الخيول ولكنها جفلت أكثر من مرة في الليل • وفي الصباح كان عدد كبير منها قد نقص ، مما أغضب عصمت باشا ولكنه تابع المسير حتى وصل الجروف المطلة على وادي الفرات ، فبدت مضارب الفدعان التي أسرعت للرحيل محدثة ضوضاء وجلبة عالية • انها تعبر النهر بأقصى سرعة ، وقد فوجئت بوجود الحملة التي ظنوا بأنها عادت من حيث أتت لأنها فقدت خيولها •••

كان العنزة ينسحبون بأقصى سرعة ، باستثناء قطيع من الابل يصل تعداد جماله الى خمسة آلاف جمل يبدو أنها تركت بدون حماية • فاعتبر الباشا القطيع في حوزته ولذلك زحف الى أسفل السهل الى نقطة على شكل تل صغير اعتبره الباشا موقعا « استراتيجيا » يصلح لنصب المدافع ، ثم أرسلت مجموعة من الخيالة لتمنع الجمال من انسحاب محتمل باتجاه الفرات نفذت المناورة بدقة وحصرت الجمال • وبينما كانت الانظار تتجه الى الابل ظهرت مجموعة من ثمانية خيالة يعبرون النهر الذي كان منخفضا ، وقبل أن ينتبه الملازم المسؤول لهذا الخطر انطلق قائد المجموعة يعدو على ظهر جواده فطعن الملازم برمحه وتبعثر الجنود من هول المفاجأة ، ثم اتجه الجمع كله ـ البدو والجنود ـ

باتجاه التلة حيث المقر الرئيسي للمشاة والمدفعية . فأمر الباشا رماة المدفعية باطلاق النار وهو نفسه كان يصوب مدفعا وتتيجة للرمي الخاطىء أردى أحد الجنود أرضا. والاهم من ذلك كله هيجان الابل بسبب قصف المدافع فتدافعت فاقدة الوعي وهي تطأ بقسوة كل من تصادفه بينها وبين النهر في الوقت الذي أفلت فيه البدو ونجحوا في قيادة القطيع كله عبر النهر ، وهم يهتفون كالمعتاد : « ها ... هـوه » .

كان قائد حملة الانقاذ هو جدعان نفسه الذي بمهارته وشجاعة رجاله أرجع الحملة فاشلة ، بعد أن فقدت اثنين من رجالها . وعاد عصمت باشا الى حلب دون أي تذكار للشجاعة والذي حرص على تحقيقه دون نتيجة .

ان هذا الحادث أعطى للقنصل فضولا كبيرا لرؤية هذا البطل المغامر عن كثب ، وقد سمحت له الظروف بتحقيق هذه الرغبة .

فبعد أيام قليلة وصلت الى القنصل رسالة من جدعان يتوسل فيها أن يشفع له عند الباشا ، لأنه تواق للسلام وله مصالح تجارية مع مدينة حلب .. أراد القنصل ذلك ولكنه لم يعد الترتيبات بانتظار وصول جدعان الى حلب ، لأن هذا الطلب يعتبر غير مألوف بالنسبة لقنصل غريب عن المنطقة ، وبالنسبة للبدو كانوا دائما يجمعون بين ملذات الحرب وفوائد السلام ، ولكنهم كانوا يخشون التفاوض بشكل مباشر مع الاتراك لأنهم لا يصدقون في نواياهم وكثيرا ما كانت تؤدي الى نتائج مخزية . وعلى الرغم من رغبة القنصل بتحقيق طلب جدعان ، فهو لا يستطيع أن يضمن سلامة جدعان في حلب . ومال الى ترتيب التصرف الآمن ، الا أن الرسالة التي سلمها القنصل للرسول أسيئت ترجمتها، وفهم جدعان منها بأنه لن يرفض في حلب فما أحس به القنصل الا وهو ــ في صباح أحد الايام ــ في مبنى القنصلية ، فسأله السيد « سكين » ما الذي جاء بك يا جدعان فقال : الرسالة وطلب حمايتك . اضطرب القنصل ولكنه

أخذ الامر على محمل الجد ، فهو لا يستطيع أن يبقي جدعان تحت الحماية البريطانية ، ولكن عليه على الاقل أن يؤمن له طريق العودة سالما .. طلب القنصل من الشيخ جدعان الرحيل فورا اذا كان يحرص على حياته ثم أمر خيل القنصلية أن تسرج وركب مع جدعان ومعهما مفرزة حماية القنصلية عبر شوارع المدينة ، وبين كوكبة الفرسان كان جدعان آمنا من الشرطة العثمانية وخارج المدينة عليه أن يعتمد على سرعة جواده ليكون آمنا من الخطر . وعندما وصل الركب الى مسافة ميل خارج المدينة افترق القنصل عن جدعان: فرجع الاخير الى دياره يغمره الشعور بالامتنان من صنيع القنصل ، ووعد بأن يرد عليه معروفه اذا ما خدمته الظروف في المستقبل وبقي الصديق المخلص للقنصل مدى الحياة .

عاد القنصل لزيارة جدعان بعد ذلك بوقت قصير ، بعد أن دفعت رشوة كبيرة للحصول على صك عفو عن جدعان . وخلال الزيارة استعرض السيد جدعان برفقة القنصل فرقة خيول المدفعية التي غنمها من الاتراك بكامل تجهيزاتها . انها تذكرة انتصاره في الحرب ومنذ ذلك الوقت أصبح جدعان خارجا على القانون . وكم من مرة أصدرت الحكومة بحقه العفو تاو العفو ، ولكنه لم يعرض نفسه للخطر بدخوله المدينة مرة أخرى ، وأصبح القائد المحارب الذي يقود السبعة والفدعان في المعارك الدامية ، وذاع صيته ، وعد من شيوخ العنزة الذين يتميزون بالحكمة وبعد النظر .

وفي مناسبة أخرى كانت الفدعان متعبة من الحرب بسبب المؤامرات التي تديرها وتحيكها الحكومة التركية بين القبائل ، وقد أرادت شق صف الفدعان بتعيين ابن عم جدعان شيخا للقبيلة بدلا من جدعان ، واعترفت به شيخا على الفدعان وهجرت جدعان ورفاقه ، الا أن جدعان لم يقبل العزل ، وركب وحده الى منافسه وقابله عند باب خيمته وقتله بحضور جميع رجاله دون أن يجرؤ أحد على اعتراضه ، وعاد معلنا نفسه الشيخ العام للفدعان . وفي الوقت الذي سمعنا فيه بجدعان كان الاخير في حالة حرب مع الرولة أكبر

قبائل العنزة ، وكانت تردنا الاخبار يوميا عن انتصارات جدعان في هذه الحرب، وسنوغل في الشرح عندما تتكلم عن ضغائن البادية والسياسة المتبعة هناك . وأراني متورطة في سرد هذه الحوادث لمجرد المتعة التي أوحت لي بها عمليات التجاوز على القانون في البادية .

ونورد من أبطال الصحراء بطلا آخر هو الشيخ « أحمد بك »[1] شيخ قبيلة الموالي التي تكونت في القرن الثامن بواسطة « تيودورا » زوجة الامبراطور « يوسطينانوس » الثاني على شرف أحد أبناء خلفاء بني أمية في دمشق والتي كانت تعجب به وعلى اتصال دائم معه .

كانت القبيلة تعتمد في تعدادها على العبيد الذين بيعوا لها والذين عرفوا فيما بعد بالموالي . والموالي كانوا يتمتعون باحترام الاتقياء من العرب وباعتبار

---

(١) انه الامير احمد بك بن محمد باشا الجحجاح بن محمود بن حمد الازرق من شيوخ الموالي وجد الامير شايش عبد الكريم . يقول الموالي المعاصرون : انهم من نسل حمد العباس ، من أبناء ولد لهارون الرشيد يدعى « شقير » أمه بدوية تزوجها هارون الرشيد في البادية . وهذا القول لم نجد له أثرا في المصادر التاريخية بل الذي نجده هو أن الموالي من بقايا ربيعة من طي في بلاد الشام . وبمر العصور وتغير الرؤساء أخذوا أسماء مختلفة : « آل الفضل ، وآل عيسى ، وآل مهنا ، وآل الحيار » وعن سبب تسمية بعضهم بآل ابي ريشة فيرجح أن عيسى بن مهنا امير آل الفضل كان قد ناصر الملك المنصور قلاوون في موقعة عام ٦٨٠ هـ قرب حمص فهزموا التتار وكان الامير يضع فوق رأسه ريشة في الحرب ليعرف بها . ويروى أنّ الملك المنصور اعطاه مالا عظيما اشترى به عبيدا واعتقهم فيما بعد ودعاهم بموالي آل مهنا .
أما رواية « الليدي بلنت » فلا أدري على ماذا استندت في تحريرها ، فلعلها مما سمعته من بلاد الشام وقد تأثر الاوربيون بهذه الرواية ومنهم المقدم الفرنسي « مولر » عام ١٣٣٨ هـ الذي قال : « ان أصل الموالي مجهول لكنهم يقولون : ان آخر خليفة أموي ذهب الى القسطنطينية ، ودخل على السلطان مراد العثماني .. وامر بتنصيبه رئيسا على احدى العشائر .. وجمع له السلطان كل العبيد والمتشردين من البدو وولى قيادتهم الى ذلك الامير » .

أن شيوخهم من سلالة الخلفاء ، كانت لهم مكانة جايلة بين القبائل ، وكاد زعيمهم يحظى بلقب « بك » وهو لقب مستحدث في البادية ولم يكن معروفا من قبل .

كان أحمد ذا قدرة جبارة ، ويعد عملاقا اذ يبلغ طوله ستة أقدام ووسيما وشجاعا نادر المثال . وكنا نسمع عنه الاحاديث التي تصفه بالاتزان بين البدو وتقول : « آه » عايك أن ترى أحمد الموالي — لأن اسم الشخص كان يضاف الى اسم القبيلة — انه يحب الخيول العملاقة التي تقدر على حمل جثته الكبيرة، ومظهره وحده يجعل ثلاثين شخصا يفرون من أمامه ، كان عمود رمحه بطول ستة عشر قدما وفي جسمه آثار لجروح قديمة متعددة ، وكان قد أقسم أن لا يموت في فراشه كما يموت البعير ، ومع ذلك فهو محارب نزيه وشريف على العكس من جدعان الذي لا تعرف لشراسته حدود . ويروى عن أحمد بك أنه أنقذ السيد « سكين » وابنه من عصابة من قبيلة شمر حاصرتهم ، فما كان من أحمد الا أن ظهر على فرسه البيضاء فاضطرهم الى الهرب وطارد المجموعة حتى استعاد حصان القنصل المغتصب . وفي هذه المعركة قد ألقى رمحه جانبا واستخدم الدبوس — انه قضيب شائك نهايته مرصعة بالمسامير — وطارد رجلا من الفارين فضربه على رأسه بالدبوس فأرداه صريعا في الحال .

هذا العملاق الشريف كان واقعا في شراك الحب الذي انتهى بطريقة « رومانسية » انه سمة جيدة في تقاليد البادية . وأحداث قصة الحب هذه دارت بينه وبين جدعان صديقه القديم . فأحمد حالف جدعان وأقسما على التآخي والتحالف وهذا يقتضي أن يقدم كل منهما العون للاخر في حالات الحرب . وفي احدى معارك جدعان الكثيرة تركه أحمد يخوضها وحده على الرغم من طلبات المساعدة التي وصلت اليه أكثر من مرة وعندما انتهى القتال

أرسل جدعان مستوضحا من أخيه عن سبب تأخره في نجدته فكان الجواب الذي عاد به الرسول يقول : « ان أحمد يرفض أن يقاتل من أجل زوج المرأة التي يحبها » وكان جدعان قد تزوج من فتاة من الموالي منذ سنتين ورزق منها ولدا ، وربما لا يدري أن أحمد يحبها ، عندها أدرك جدعان سر غضب صديقه الحميم ، وتصرف لرأب الصدع تصرفا لا يقوم به كل الرجال ، فقال هذه قضية تافهة ، وحب امرأة لا يقف عائقا في سبيل ارضاء الاصدقاء فنادى على المرأة التي تزوجها ، وأرسلها الى مضارب أحمد شيخ الموالي ، وقال له : « خذها انها لك » وهي كما سمعت لا زالت تعيش مع الموالي ولها أطفال من كلا الزوجين .

حقق أحمد أمنيته بأن لا يموت حتف أنفه . فمنذ سنتين كان قد طعن في شجار مع قبيلة شمر[1] فمات دون أن ينطق بكلمة واحدة . واستلم ابن عمه محمود قيادة الموالي . وهو الذي تدعمه الحكومة العثمانية ، وكان قد أمضى عدة سنوات في القسطنطينية .. ان محمود بك رجل مغمور في القبيلة، وقد نصبه الموالي مكان أخيه ريثما يكبر ابن أحمد بك الذي هو الآن في الرابعة عشرة من العمر ، وعندما يكون في العمر المناسب فسيحل مكان أبيه شيخا شرعيا على الموالي . تلك هي الحكايات الممتعة التي قصها علينا القنصل في أمسيات كانون الاول فأعطت مشروع رحلتنا الى بغداد عبر نهر الفرات وضوحا في الرؤية ، وقد بني على دراسة دقيقة للمناطق البدوية التي كان لزاما علينا أن نمر بها .

في الخامس عشر من كانون الاول تحدث « ولفرد » مع القنصل عن

---

(١) قتله الحسنة من العنزة بسبب صراع على فتاة تدعى حربة المزيد ودفن في ديار الحسنة ونجد اثر ذلك في الشعر الشعبي لكلا القبيلتين .

الهجرة السنوية للعنزة باتجاه نجد ، واحتدم النقاش حول مدى تجوالهم في الجنوب ، اذ يؤكد السيد « سكين » بأنه قد يصل الى جبل شمر والى نجد . الا أنه لم يسمع بأوربي كان قد رافق العنزة في رحلاتهم ، وهو نفسه لم يزرهم الا في مضاربهم الصيفية في البادية السورية العليا ، وأخذنا نفكر جديا بحل هذه المسألة فبدت الفكرة مشجعة لولفرد فسأل القنصل فيما اذا كان بامكانه أن يجند نفسه كأول أوربي يشاركهم في رحلتهم ؟ فدهش القنصل وقال : ان ذلك ممكن بكل تأكيد ، ولن يكون تجربة خطيرة وكل ما يتطلبه الامر هو الصبر واللباقة في تحمل ضجر الحياة البدوية ولعدة أشهر ، والتحلي بالشجاعة لوقت طويل بعيدا عن وصول أي مساعدة مسيحية .

راقت الفكرة لولفرد أما بالنسبة لي فخشيت أن أظل بعيدة عن انكلترا أطول مما كنت قد قررته ؛ ولن تتلقى الرسائل خلال الفترة المقترحة ، الا أن مما يطمئن هو أن ترحال البدو لن يكون متواصلا ، ولن يكون مملا الى هذا الحد. فهم يقطعون من عشرة الى عشرين ميلا في اليوم فقط . ونحن نتوق لرؤية نجد الموطن الاصلي للجياد الانكليزية وهو ما نتمناه وبودنا لو تحقق .

قررنا أن ننطلق فورا اذا كان البدو قد شرعوا برحلة جدية ، وقررنا أن ننضم الى العنزة حيثما يكونون . فهم قد رحلوا عن جوار حلب ، ويفترض بأنهم الان في الجنوب الشرقي بين تدمر والفرات .

أرسل القنصل الى السيد أحمد(١) ــ شيخ قبيلة صغيرة تعيش في أطراف

---

(١) الهنادي اعراب من ارياف مصر قدموا الى بلاد الشام مع حملة ابراهيم باشا بن محمد علي « ١٢٤٨ ــ ١٢٥٦ » هـ وهم من اصول مختلفة الفوا عشيرة سميت بالهنادي اكبر فروعها . وهم موجودون ويقطنون في منطقة الباب قرب حلب وفي الجبول وفي قضاء منبج وعين العرب في سورية ومن اشهر رؤسائهم جنيد الحاج موسى البطران . ويروى ان بطران عام ١٨٦٤م كان مسؤولا عن توطيد الامن في منطقة سفيرة وانحاء الجبول . ويبدو أن سيد احمد هو من اخوة بطران .

الصحراء ــ للحصول منه على معلومات دقيقة عن قوة العنزة وعدتهم ، الا أن الشيء الاهم هو توفير خيمة تصنع لنا خصيصا لان الخيام الجاهزة في حلب هي من الخيام التركية المدورة ، وهذا النوع من الخيام لا يناسب نظام المسير الخفيف الذي نزمع أن نقوم به ، فالخيمة التركية مرهقة جدا وتتطلب نصف « دزينة » من الرجال لنصبها ، وتحتاج الى جمل . يكاد لا يقوى على حملها.. انها غير عملية ولا تقاوم هبوب الرياح ، ويصعب طيها في الجو البارد ، لذلك آثرنا أن نصمم خيمة تلبي لنا كل ما نطلبه ، وقد جسدنا فيها كل خبرتنا في الترحال فجاءت مرضية بما فيه الكفاية . انها منخفضة وتغطي مساحة لا بأس بها من الارض وتقاوم الرياح وتعزلنا عن الجو الرطب ، ويمكن تحويلها الى مظلة عملاقة تحت وهج شمس البادية الحارقة .. انني لن أصفها أكثر من ذلك على الرغم من مشاركتي في صنع أجزاء كبيرة منها ، لكنني أصبت بالخيلاء عندما قامت ببطانتها الحمراء المطوقة بجديلة بيضاء . كان قد خاط الخيمة ثلاثة من اليهود كانوا يترددون على مبنى القنصلية يوميا من الفجر وحتى الغروب لينال كل واحد منهم كروانا(١) ونصف الكروان يوميا، وكانوا يجلسون متربعين على الارض في غرفة خارجية . انهم عمال أمناء حريصون على وضع كل قطعة قماش في مكانها المناسب . وعندما كنت أقف مرة بجانبهم لاعطاء التعليمات في الصباح، ولاريهم كيف يديرون الدرزات الخارجية ليصبح السطح مقاوما لنفوذ الماء سمعت خطوات رجل غريب يقتحم الغرفة صائحا : والله ... مما دفع اليهود للعمل من جديد . انه سيد أحمد شيخ الهنادي وباعتباره أول بدوي أصادفه دونت انطباعي عنه مباشرة : السيد أحمد رث الهيئة خشن القامة بين الخامسة والخمسين والستين من العمر ، وليس هناك ما يميزه سوى عباءته

---

(١) الكروان ضرب من العملة .

البدوية وبشاشته ، حاد الطباع يحالفها مكر ودهاء . انه تماما كالرجال الذين يطلقون عليهم في انكلترا ـ أيام المزارع الفردية والطرقات المهجورة ـ اسم الشحاذ الذي لا يعرف الاستسلام . فيه مزيج من الوقاحة والمزاح المرح والخنوع بآن واحد ... صفات تكمل بعضها بعضا وتمنعك من أن تحترمه كلية أو أن تحتقره كلية . وتجد نفسك ترغب في الضحك والابتسام في وجهه. كنت مسرورة لانني أسمع لغة أجمل من لغة الخدم في القنصلية . وبتقديري : ان هذا الشخص من أصول قدمت من مصر لانه ينطق حرف الـ « ج » مخففا ولكن بصعوبة ، وقد تأثر بلهجة البدو الذين يتكلمون بوضوح أكثر من سكان المدن « الحضر » الذين يختصرون الكلام تاركين بعض الاحرف كحرف الـ«ك» كما يفعل اللندنيون عندما يتغاضون عن النطق بحرف الـ « هـ » . كانت كلمات أحمد تنساب بهدوء الواحدة تلو الاخرى ، وكان لدينا الوقت الكافي لنعرف فيه بعضها على الاقل .

قال سيد أحمد : ان قبيلة العنزة تركت جوار حلب منذ عدة أسابيع .

* * *

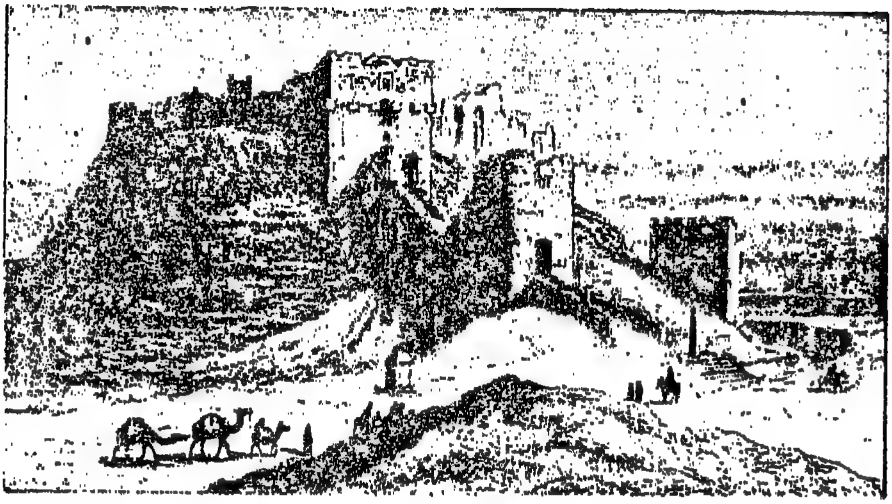

قلعة حلب

الفصـــل الرابع

في مدينة كزيرو عاش إسكافي اسمه كولوبث .

لا يخاف الموت

- **من الموشحات الأندلسية .**

قلعة حلب ـ سجون حلب ـ العدالة الغريبة ـ كرو الكردي ـ نصف كروان للقاتل وغضب الرأي العــام .

قلت الكثير ولم أتكلم بعد عن حلب ، التي وددت أن تكون موضوع الفصل الاخير الا أنني وجدت نفسي ومعي ولفرد مقصرين في ذلك ، اما لقصر في النظر ، أو بسبب اشتغالنا بأمور ألهتنا عن مشاهدة المساجد والمعالم الاثرية. فبعد اسبوعين من مكوثنا في حلب تشجعنا لزيارة قلعة حلب ، ذلك الحصن المنيع والفريد في العالم . ومن الخطأ أن نغادر حلب دون أن نزوره أو نصفه .

قلعة حلب أكمة دائرية عرضها في القمة نصف ميل ، وترتفع عن الارض مقدار ثلاثمائة قدم . جدرانها من الحجـــارة الناعـــة الملساء الصلدة ، تلـــي الاهرامات روعة وجمالا . يحيط بالقاعة خندق عريض بعمق ستين قدما حفر في الصخر حفرا فأخذ بمرور الزمن مظهر الوادي الشديد الانحدار . والقمة توجت بجدران ضخمة من الحجر الاحمر لتطل بعدها على بوابة مهيبة وطريق مغطى ينتهي بدرج لطيف الميل . احتفظت الواجهة ببنائها الحر غير المحطم . وترتفع عمودياً الى مئتي قدم ، ويمهد للوصول اليهــا قوس اعتلى الخنـــدق بارتفاع أقل . ومن حقنا أن نسأل من صنع هذه القلعة المنيعة ؟ لا أحد يعرف ذلك⁽¹⁾ بدقة ، الا أن الجدران الحالية للحصن تدل على أنها بنيت في زمـــن كسرى ملك الفرس في القرن السادس الميلادي ، وافتتحها صلاح الدين الايوبي

---

(1) قال الباحث الاثري السوري الدكتور عدنان البني : بنيت على تل حلب الاثري الذي يعود الى الالف الثالث قبل الميلاد .

في الثاني عشر من حزيران عام ١١٨٣ • ومن قبله فتح مدينة حلب خالد بن الوليد قائد عمر بن الخطاب وبوفاة صلاح الدين ملكها ابنه الملك الظاهر⁽¹⁾ عام ١١٨٩م • انني ألاحظ بسهولة صورة الاسد الثائر مرسوما على الجدران وهو شعار كسرى ملك الفرس •

تصدع بناء القلعة بسبب الزلازل التي حدثت في حلب منذ خمسين عاما ومنذ زمن « يوسطيناوس » وحتى هذا التاريخ والبناء الاساسي للقلعة لايمكن أن يكون قد تغير • انني أستغرب في هذه الايام وفي الوقت الذي عرف فيه كل شيء في العالم كيف أن مثل هذا الصرح العظيم لا يملك شهرة سياحية حتى الآن ، فهو في حلب ملتقى طرق السياحة السورية ، ويعبرها عشاق السياحة لرؤية بابل ونينوي الى الشرق والجنوب منها كل هذا ولا أجد من يهتم بها سوى عامة الناس وعابري السبيل الذين يشاهدونها في طريقهم • ونظرا للكوارث والزلازل التي تعرضت لها المنطقة فيرجح أن الكثير من سجلاتها وشواهدها قد طمرت داخل الركام المتساقط ، وقد يكشف التنقيب في المستقبل عن آثار مثيرة في هذه القلعة وباستثناء القلعة وبقايا أبراج كنيسة القديس جرجس أو زكريا فاني لا أجد المتعة الكافية في حلب على الرغم من كون المدينة تعتبر من أجمل المدن الشرقية وقد قيلت في معابدها القصص والاساطير والحكايات المثيرة •

في التاسع والعشرين من كانون الاول فكرنا بزيارة السجون العثمانية لمشاهدة لص شهير لا يزال محتجزا هناك ، وهو اللص الظريف الذي تروى عنه الحكايات المشوقة ، فذهبنا الى كامل باشا الوالي المعاصر في مدينة حلب فاستقبلنا الاخير بأدبه التركي المعروف ، وتكلم معنا باللغة الانكليزية ، وفي الحال بلغناه رغبتنا في زيارة السجون ولكنه قبل الاستجابة دعانا لزيارة بيته فقادنا بنفسه عبر مجموعة من الغرف والردهات يجلس فيها عدة كتبة وأمناء للسر وحظينا برجال يصعدون السلالم وبآخرين يهبطون حتى انتهينا الى زاوية مدورة في نهاية درج حجري شديد الانحدار قادنا الى باحة مربعة واسعة

---

(١) راجع تاريخ ابي الفداء وكتب تاريخ الحروب الصليبية .

فيها خزان مربع من الماء • وعند باب احدى الغرف الجميلة التي فرشت بطاولات وكراسي فرنسية الصنع استقبلتنا زوجة الوالي السيدة الاولى في المدينة فبدت بعمر السابعة عشرة طلقة المحيا ذات عيون لوزية جميلة وتنحدر من عائلة معروفة فهي حفيدة جيسار باشا ، قابلتنا « بروب » قرمزي من غزل الصوف الناعم مشذب بتخريم أسود يضيق تدريجيا ، وأسندت ضفيرتيها الى قطعة من الشاش ثم ربطتهما على شكل قوس باتجاه الرأس مكملة بذلك زيها الجميل • جلسنا فتحدثنا الا أن زوجها كامل باشا كان يقاطعنا أكثر من مرة لانها لم تكن تتقن سوى التركية •• ثم قدمت لنا القهوة وبانتهائها تصورنا بأن الزيارة انتهت الا أن الباشا لم يدعنا نذهب دون أن نأكل الحلوى والفواكه ونرى الاطفال الصغار ، فطالعتنا خادمة بدينة بصينية فيها بعض الحلوى المصنوعة من « البرقموت »(١) الذي يشبه في طعمه « الكريمة » المتلبدة ، ثم ذهبت وعادت ومعها الاطفال ، فأحدهما طفل صغير والثاني يكبره بثلاث سنوات وكلاهما يرتدي « باوزة » من القماش الاسود الداكن • فبدا لي أن الطفلين ليسا محط رعاية كافية من الابوين ، وبعد ملاطفتهما استأذنت بالمغادرة فقادنا الباشا الى غرفة الاستقبال حيث يجلس ولفرد منتظرا ساعة من الزمن ، وقد أمضاها بتدخين التبغ والتحدث الى الشاب الخجول ابن كامل باشا الاكبر •

انتهت زيارتنا لمنزل الباشا ، وانطلقنا برفقة دليل لرؤية السجن الذي يجاور المقر الحكومي « السراي » • وعلى الرغم من أن اسم السجن عادة لا يشرح النفس الا أن هذا السجن كان من طبيعة مغايرة تماما ، ولو خيرت أن أسجن لستة أشهر فاني أرغب أن أسجن في حلب أكثر من رغبتي في سجن « لويس » أو « غولافورد » أو أي سجن بني حديثا في البلاد التي تدين بالمسيحية • وصحيح أن السجين في السجن يخسر حريته الا أن السجناء هنا ليس لديهم ما يشتكون منه •

يتألف السجن من ساحة كبيرة مفتوحة ، تصطف الابنية على جوانبها المختلفة ، وينتهي السجن بواجهة جنوبية شرقية مبهمة ، وجدران السجن لم

---

(١) نوع من الليمون او البرتقال العطري ، ونظنه النارنج او الكباد .

تكن مرتفعة جدا ولا تحجب الرؤية عن القلعة ، ومنظر المدينة الجميل • كانت عنابر السجن مخصصة للسجناء العاديين ، وكانت الدور التي دخلناها مريحة بما فيه الكفاية ، وفرشت بالسجاد والوسائد تماما كما تفرش أية غرفة ريفية من أرياف سورية ، ويجلس في كل غرفة من ثلاثة الى أربعة سجناء كانوا يتمتعون بامتياز الطعام والحديث والمشاجرة والنوم كما يحلو لهم، ويستطيعون الخروج الى باحة السجن لينضموا الى رفاقهم الاخرين في السجن ، وكلهم يخضعون لسلطة السجان الذي ينظر اليهم شزرا وهو يحمل عصا غليظة •

وخصص الطابق العلوي لاخطر السجناء ، كالقتلة وقطاع الطرق والمتهمين بجرائم مالية • وتطامنت شرفة الطابق لتمكن سكانه من التحدث الى سكان الطابق الارضي بسهولة فبعض السجناء كان مقيدا بالسلاسل • وجميع رواد هذا الطابق بدوا بكروش بارزة وصحة جيدة وبلباس برجوازي يصعب تمييزهم فيه عن أي مواطن نبيل يمكن أن تراه في مدينة حلب ، أما في فترات النهار فتظهر للمشاهد باحة السجن أكثر حيوية من سوق المدينة : مع فارق بسيط هو غياب الحوانيت والناس يزدحمون هنا بدون عمل سوى التسلية • وأحد الذين التقيناهم كان شابا في الثامنة عشرة ، هو ابن أحد مرافقي القنصل البريطاني كان يواجه حكما بالموت وقصة محاكمته تظهر الطريقة الغريبة التي تنفذ فيها العدالة في هذا البلد وعموم الامبراطورية العثمانية ، فوالد الفتى رجل وجيه يرافق القنصل وكان مسلما سخر منه بعض ذوي النفوذ في السوق لأنه خادم الرجل الكافر ، فامتعض بحماقة ودافع عن شرفه معلنا أن خدمته شريفة ولا يعاب عليها ، لكنه دفع من قبل الرعاع بخشونة وطعن حتى الموت • أحدث هذا الامر غضبا في القنصلية وألقي القبض على القتلة ، واتهموا بشهادة الذين كانوا يمرون بجانب الحادث الا أن تنفيذ الحكم بقي معلقا بسبب مذكرة قدمها أهالي الحي تفيد بأن الشهود هم من الذين لا ضمائر لهم ، ويدلون بشهاداتهم الكاذبة بسبب المال • وكان المتهمون على وشك أن يطلق سراحهم . ولكنهم أوقفوا ثانية بسبب برقية وصلت من القسطنطينية تخبر الوالي بقدوم لجنة تحقيق ثانية يرأسها رشيد أفندي فوجدت اللجنة بأن التواقيع الموضوعة

على المذكرة مزورة ، وأمرت باعادة المحاكمة ، ومن الطبيعي ــ حسب تقاليد المحاكم التركية ــ أن يرأس جهة الادعاء أقرب قريب الى الميت وهو ما حدث في الجلسة الأولى من المحاكمة ، اذ مثل الادعاء ابراهيم ابن المتوفى وهو الفتى الذي رأيناه في السجن • وعندما حان موعد الجلسة الثانية من المحاكمة الثانية ضبط ابراهيم متلبسا بجريمة، وأودع السجن وحوكم بسرعة وأدين• وباعتباره مجرما فهو غير مؤهل لمقاضاة قتلة أبيه • وبالتالي سقطت القضية ضد المتهمين• يصعب علي التعليق أكثر من ذلك ولكن شخصية ابراهيم تثبت لي براءتها وتعطيني الدليل بأن معطيات الاتهام تعتبر غير كافية • وعلمت بأن مشكلته سوف تحل وسيطلق سراحه لأنه أعطى تعهدا بأنه لن يقاضي ثانية قتلة أبيه(١) •

خاب أملنا في رؤية كر"و قاطع الطريق ــ الرجل الكردي الغريب ــ الذي سمعنا عنه الشيء الكثير لأنه قد نقل الى السجن في يافا منذ أيام قليلة ، وقصة كرو تشابه قصة سميّه كرو لوبيز(٢) في اسبانيا ، ونظن أن اسمه قد انتحل هنا في سورية • بدأ كرو الكردي حياته ضابطا يحمل قربينية أي بندقية قصيرة حصل على ملكية صغيرة وبساتين للعنب في منطقة عينتاب وأمضى عدة سنوات يحيا حياة هادئة الا أن حظه العاثر قد جلب اليه جارا طمع في أرضه ورفع عليه

---

(١) سمحت الدولة العثمانية للقناصل في المدن السورية بتوفير الحماية للرجال الذين يعملون لديهم . ومن وصف للدكتور يوسف جميل نعيسة لموظفي القناصل في مدينة دمشق نقتطف ما يلي : « يحق للقنصل ان يوفر الحماية لـ (٨ ــ ١٠) اشخاص الا ان القناصل زادوا عددهم واستخدم « البراء تلية » الامتياز الممنوح لهم من الدولة للتهرب من دفع الضرائب وحتى الامتناع عن المثول امام المحاكم . ويعمل في القنصلية عادة : ترجمان اول وترجمان ثان ، وكاتب القنصلية « ويسقجي » وخدام ، وعدد من القواصة وكيخية القنصل وخزنداره ، وعبيد للخدمة » .
وكان قواص القنصل يقوم بحراسته وحراسة اسرته واذا ما اضطر القنصل ان يسير في الشوارع ... كان القواص يتقلد سيفه ويسير امامه ، واذا ما ركب القنصل في العربية كان يجلس القواص امامه في العربة الى جانب « العربجى » وله زي خاص واعتبرت مرتبة القواص ارقى درجات الخدم لدى القناصل ومعاشه ثلاثمائة قرش او أكثر » .
عن كتاب مجتمع مدينة دمشق ج١ ص ٣٥٧ .

(٢) كرولوبيز : رجل كان يقطع الطريق في اسبانيا .

دعوى أمام المحاكم لامتلاكها ، وكان هذا الجار غنيا فربح القضية مما دفع كرو للنزوح الى الجبال ، وهو في أوج ثورته وغضبه •

أخذ كرو يقطع الطريق وأول عمل قام به ايقافه لنقيب في المشاة كان في طريقه الى حمص وسلب منه سبعة آلاف قرش ثمنا لعنب باعه حديثا ، وأرسله الى حلب ومعه فاتورة الحساب ليأخذها من الوالي • شكل كرو بعد هذا الحادث عصابة لقطع الطرق والسطو على ممتلكات الاخرين ، وكانت خطته في اختيار رجاله الركض معهم في سباق لتسلق قمم الجبال ، ومن يستطع أن يجاريه في الركض يقبل عضوا في العصابة • كان كرو عدّاء ماهرا ويمشي على قدميه في غالب الاحيان الا أنه في المناسبات السعيدة كالاعراس وولائم الختان وما شابه يظهر ممتطيا صهوة جواد أصيل • كان كرو صغير الجسم ولكنه حسن المظهر والمعشر ، ويحترم في كل مكان يحل فيه ، وكل مناسبة فرح في المدينة يتوقع المرء أن يصادف كرو فيها •• وهو يملك الادب والشجاعة بآن واحد على النقيض من سميّه الاسباني الذي كان يريق الدم في كثير من حالات الدفاع عن النفس • تلك كانت صفات كرو في صباه ، وبعد أن شكل العصابة عاش حياة التنقل والتخفي والحذر ، فلا أحد يعرف أين ينام ليلته لأنه لا يثق برفاقه ولكنه ينضم اليهم عند الفجر ويستطيع القاص أن يدون المجلدات حول أعماله البطولية الخارقة التي كانت كأنها من نسج الخيال •

قابل كرو فلاحا يحمل سلة من العنب فوق رأسه فسأله ماذا تحمل في هذه السلة ؟ ألا تملك حمارا ؟ فأجاب الرجل : لا • فحماري قد مات ، وليس لدي مال أشتري به حمارا آخر • فقال كرو : كم يكلف الحمار في قريتك ؟ أجاب الفلاح خمسمائة قرش فقام كرو على الفور بدفع المبلغ للفلاح وقال له : ان صادفتك ثانية حاملا المتاع سأقطع رأسك •

ومرة صادف رجلا يعمل في حلب ، كان قد غاب عن أهله سنة وعاد اليهم وهو يحمل النقود ليدفعها مهرا لفتاة يحبها ، فتوسل الرجل الى كرو ورجاه أن يترك له المبلغ والا سيضطره للعودة ثانية الى حلب وقضاء سنة أخرى لجمع

مثل هذا المبلغ فقال كرو : يا غبي هل من المعقول أن تتزوج بست ليرات ؟ انها لا تكفي أجرة راقص واحد ، هاك هذا المبلغ الاضافي ، فأنا أكره العرس المتواضع فتابع الرجل طريقه فرحا مسروراً •

وفي يوم من الايام كان رجل أفندي من الاتراك يرتحل من حلب الى أورفة للنزهة فخيم بجانب قرية تدعى كاظمة فأرسل بعض القرويين في طلب بعض أصدقائه للسمر معه • وفي نهاية السمر ذهب كل شخص الى بيته ، ونام الافندي آمنا مطمئنا ، وهو يظن بأهل القرية خيرا •

في منتصف الليل رفع قاطع الطريق باب خيمة الافندي وطلب منه أن يتخلى عن المال الذي يحمله • وعندما تفحص كرو المكان وجد العديد من الاسلحة النارية ومن بينها بندقية صيد انكليزية بسبطاتين • التقط كرو البندقية بسرعة فتوسل الافندي أن لا يأخذ منه سلاحه ، لأنه لا يستطيع أن يجد مثله وهو الرياضي الذي يحب الصيد وسيكون تعيسا بدونه ، ففوجيء كرو بأن السلاح كان محشوا ، فضحك وأعاد السلاح ، وقال له : يا جبان تملك كل هذا السلاح ولا تجرؤ على قتلي !

سلب كرو يهوديا من حلب من رعايا بريطانيا ، فتقدم الاخير بشكوى الى القنصلية البريطانية قال فيها : ان كرو سلبني « ١٦٠ » جنيها استرلينيا وعندما سمع كرو بهذا كتب الى الباشا رسالة خاطبه فيها بقوله : صديقي العزيز ان المبلغ الذي سلب من اليهودي لا يتجاوز السبعة والعشرين جنيها وان اليهودي كذب عليك ثم ألحق بالرسالة فاتورة رسمية ببضائع التاجر مع عينات منها ليرى الباشا كذب التقرير وصدق ما يقوله وختم الرسالة بقوله : انه ملزم أن يفعل هذا من قبيل الامانة والشرف •

التقى كرو ذات يوم بموكب عرس على الطريق بين قريتين ، فانضم اليه وعرّف بنفسه ، فأكدوا له بأنهم لا يملكون نقودا ، وأنهم من الناس الفقراء • فقال كرو : وما هذا الذهب الكثير في عنق العروس • فقالت العروس : تدعي أنك كرو وتسلب حلي الفتيات فخجل كرو وخلى بينهم وبين الطريق •

اعتاد كرو الذهاب الى حلب في وضح النهار ، وكان يمشي في الاسواق علانية ، ويقطع الشوارع ويعرفه كل شخص يصادفه ، ولم يخنه أحد طوال هذه الفترة ولم يش به أحد للسلطات . ولكن القدر خانه هذه المرة على الرغم من أنه تفادى الوقوع في شراك السلطة أكثر من مرة ... وأخيرا ألقي القبض عليه في كمين نصب له رتبه طحان مسيحي كان على صلة حميمة بكرو ويأوي اليه مرات كثيرة ، اذ اختبأ الجنود له في الطاحونة ثم ألقوا عليه القبض وسلم للعدالة .

لم تكن هناك تهمة بالقتل يمكن أن توجه الى كرو ، ولكن حكمت عليه السلطات بالسجن مدة خمسة عشر عاما بتهمة السطو وقطع الطريق .

انها قصة جميلة لو سلمت لميرامي(١) لنسج عنها رواية رائعة الجمال . وقبل أن نغادر السجن طلبنا رؤية السجين الذي طال حبسه هناك ، فنودي عليه من أعلى الشرفة ، وأمر أن يقف استعداد ، وأن يقف منفردا لتظهر لنا بوضوح سماته غير الجذابة ... انه السجين الذي ارتكب جريمة منذ ثمانية عشر عاما ، وبدا شخصا متوحشا سيء السلوك ، ولكننا كنا نأسف لمدة حبسه الطويلة فقام ولفرد وأعطاه مجيديا ، فاستاء المسؤولون عن السجن . وأسفنا لذلك وشعرنا بالحرج والخجل لما قام به ولفرد لاننا كافأنا مجرما بشكل علني ، وازداد هذا الشعور مرارة عندما أخذنا السيد نيكوس ـ ترجمان القنصلية ـ جانبا وشرح لنا أننا قد ارتكبنا خطأ ، فتوسلنا اليه أن يشرح لحاكم السجن بأن نيتنا كانت من باب الاحسان فقط . فقال نيكوس : انني أتفهم وجهة نظركما وبودي أن تكون قطعة من ذهب وليس من فضة .

وبعد تحية الباشا وتوجيه الثناء والاطراء للحالة التي بدت فيها السجون تحت امرته عدنا الى القنصلية متأثرين بكل ما سمعناه وشاهدناه .

* * *

---

(١) مريميه أو ميرامي بروسير: روائي وكاتب مسرحي فرنسي «١٨٠٣ــ١٨٧٠».

الفصل الخامس

حتى الأحذية المبطنة بالفرو اخذت في الرحلة .

ـ إعلان كوكل ـ

اشترينا الخيل لأننا قررنا اللحاق بالعنزة ـ هاجر ـ أخبار الصحراء ـ شائعات الحرب ـ جدعان في موقف حرج ـ اختلاط الامور في الصحراء ـ فصل في السياسة .

قررنا الالتحاق بالعنزة لنجرب حظنا معهم في الشتاء ، وعلينا أن ننطلق من حلب حالما تكون الترتيبات قد انتهت ، وفي وقت بدأ فيه الجو بالتحسن الا أن رحلة كهذه ولأمد غير معروف لا يمكن أن تنفذ بسهولة ، فهي تحتاج أشياء كثيرة ، وتتطلب مزيدا من التفكير قبل مغادرة حلب . فالخيمة قد أعدت وبقي علينا شراء الخيول والبغال بمعونة من السيد أحمد ، وكانت الفرصة سانحة للمشترين لأن الحرب قائمة في البادية ، وفي كل يوم ترد السوق فرس ، وعليها آثار الجروح كبرهان على اشتراكها في الحرب وبالتالي يمكننا تمييزها عن خيول الحضر لشعرها الاشعث الخشن وهزال جسمها ، لأن الكثير منها قد امتطي ليلا ونهارا من مسافات بعيدة ليعرض في السوق ، ان هذه الخيول لا يمكن اعتبارها حسنة المظهر ، ولكن قد نجد بينها جوادا من سلالة واضحة قد تكون علته الوحيدة في ركبته المكسورة ، وآثار اطلاق النار في جسمه وبعد التجربة والاختيار والتمحيص كان ولفرد محظوظا بشراء أحد الخيول النادرة بمبلغ معقول . لم نجد في العنزة من يفهم العلاقة القائمة بين الحصان العربي الاصيل وبين الحصان الانكليزي ، ولم تكن الخيول حسنة المظهر لأنها

برقبة تشبه رقبة الشاة وبرأس وحشي غريب غير أنها بخصرها العميق وأطرافها الخلفية الطويلة وقدراتها العضلية تبشر بما فيها من قوة وسرعة ، وهذه المزايا هي المطلوبة في المغامرات حيث التعب وطول الطريق . وجلد الحصان وتحمله تحت تأثير شح الغذاء كثيرا ما يؤخذ بالحسبان عند الشراء . ولا يهمنا كيف يبدو الحصان العربي ولا لأي سلالة يعود بقدرما تهمنا قدراته على تحمل أعباء السفر ، فنحن لا ننشد السرعة التي تتوفر في السلالات النقية الدم .

اشترينا في حلب فرسا عربية بملامح انكليزية من سلالة كحيلان عجوز السريعة القوية . كانت هزيلة متعبة بسبب الترويض القاسي وجولانها في ميدان الحروب ، ويبدو أنها من خيول القمصة(١) ـ أشهر قبيلة عربية بتربية الخيل ـ ثم تحولت ملكيتها الى الرولة ، ولكن أسرت على بعد مائتي ميل ، وركبت بسرعة جنونية لتباع في السوق .

هاجر مهرة بعمر خمس سنوات كستنائية اللون منقطة بالسواد ، ولم نجد في رحلتنا أية فرس يمكن أن تنافسها بالسرعة وبقطع المسافات الطويلة وتصلح حتى لمطاردة الثعالب والارانب البرية بدون أية مساعدة فتلحق بها حتى لو كانت تحمل على ظهرها ثلاثة عشر حجرا . انها لطيفة الطبع رشيقة الحركة هادئة الطبع لا تعرف الهياج والتسرع تسير بخطا طويلة منخفضة بالنسبة للجواد الانكليزي ، يضاف الى ذلك كله ارتفاعها المناسب الذي قدره ولفرد بخمس عشرة قبضة(٢) وهو ارتفاع غير عادي بالنسبة للخيل العربيه ، ولهذا السبب تعتبر الكحيلة مناسبة لولفرد . أما أنا اشتريت فرسا معنقية(٣) من الخيول العربية المشهورة السلالة ، ولكني لم أركبها لأنها كانت تعاني من

---

(١) القمصة من السبعة .

(٢) كل قبضة تساوي أربعة انشات . والانش يساوي ٢ر٥٤ سم .

(٣) سلالة المعنقية من الخيول العربية المستولدة في ديار العرب .

ندبة عارضة في ظهرها قبيل مغادرتنا حلب ؛ ولهذا استعرت حصانا ما لبثت أن استبدلته بأفضل منه في الدير .

أما القنصل الذي رافقنا في جزء من رحلتنا ، فقد امتطى حصانا « بونيا » طحيني اللون عديم الاصل محزن المنظر ، ولد في بيلان واستخدمه ساع للبريد بين حلب والاسكندرون . تعتبر هذه الخيول وضيعة في سورية وتشبه الجياد المنقوشة على صخور نينوى⁽¹⁾ التي كانت تستخدم في الحروب الاشورية . ان التشابه بينها وبين حصان القنصل يكاد أن يكون تاما ، ولكنها تتضارب مع هيئة الحصان العربي ، ولم تكن تعرف في ديار العرب في ذلك الوقت ؛ ومن المرجح أنها من خيول الاشوريين القدماء .

في غمرة الاستعداد لرحلتنا المرتقبة احتجنا لطباخ يعد لنا الطعام في الطريق فعثرنا على رجل مسيحي يدعى حنا ، وافق على السفر معنا في الحال ... فوجدنا فيه الخادم الوفي الامين ولكنه كان قليل المعرفة بأحوال البادية . يتكلم العربية بلهجة حلبية أنيقة دون تصنع فأثبت لنا بسلوكه أنه خادم أمين وشجاع ومغامر اصطحبناه لقاء أجر شهري قدره مئتا قرش فقط . أي ما يعادل أربعين فرنكا .

فكرنا بالحيوانات التي ستنقل لنا الامتعة ونحن نسير على امتداد نهر الفرات فاستبعدنا الجمال لأنها لن تنفع في السير فوق الاراضي الرطبة ، فعدنا الى صديقنا الحاج محمود وبغاله ثانية ، وقررنا شراء الجمال عندما نلتحق بالقبائل ، وفي هذا نكون قد اخترقنا القاعدة التي اعتمدناها وهي أن نشتري كل شيء وأن لا نستأجر أي شيء خلال رحلتنا . دفعنا الى هذا التصرف ندرة حيوانات النقل والحمولة في حلب . وأكد لنا بعض الاصدقاء أننا سنجد لها

---

(١) نينوى قرب الموصل .

سوقا أفضل في الدير على بعد مئتي ميل وهناك سنعد العدة لتحقيق تطلعات المستقبل . علينا توقع ضخامة المتاعب ، ولهذا دققنا بقدرات البغال والرجال الذين سيرافقوننا ، واختبار استعداداتهم للذهاب معنا الى تلك الديار البعيدة. وبالاضافة الى ذلك كان علينا شراء بعض الحاجيات هدايا لشيوخ القبائل مثل العباءات والاحذية الطويلة والتبغ والسكر ، لكي يمن علينا هؤلاء بحسن الضيافة وهذه الهدايا لا يمكن اعتبارها ثمنا لما سيقدم لنا من خدمات، ولكنها جزء من أساليب المجاملة المعتمدة في البادية . وان قيمة الهدية يجب أن تقدر حسب مرتبة المهدي والمهدى اليه : وهذا يتطلب منا اللباقة في معرفة من يستحق التكريم ، واختيار الهدية المناسبة . فأطوال قليلة أو كثيرة من المطرزات يمكن أن تؤثر في تقدير أهميتك كزائر عند الشيخ الذي نود التلطف بين يديه أو مع جيرانه الذين لا نستطيع الاساءة اليهم . فالاحذية الطويلة على سبيل المثال ليست ذات أهمية ولكنها يمكن أن تقدم للخدم ، بينما التبغ والسكر من الهدايا المحببة التي نستعطف بها حاشية الشيخ وحرمه ، والنساء الثرثارات في خيامه ... وأخيرا علي طي الصحائف التي أسطرها لنستمتع بالايام الاخيرة التي نقضيها في حلب .

في صباح الثلاثين من كانون الاول دخل الحديقة سيد أحمد وابن أخيه جمعه مع بدوي صغير رث الهيئة يرتدي عباءة بالية ويمتطي فرسا وضيعة ، انه من العنزة من قبيلة القمصة أرسله شيخهم ابن مرشد مزودا برسالة وبالتحيات الشفوية وليبلغنا رغبته في أن نشرفه بزيارة . جاء الرجل من البشري(١) مسرعا بعد أن سمع أننا نعد العدة لزيارة العنزة ، ممضيا عشرة أيام في الطريق .

---

(١) البشري جبل شمال غرب دير الزور .

فبدا لنا أن البدو يملكون مصادر موثوقة لتلقي الاخبار ، فلم تكن قد مضت أكثر من ثلاثة أسابيع على قرارنا القيام بالرحلة ، وأسبوعين على علم سيد أحمد بها أول مرة . جاء البدوي — بالاضافة الى الرسالة — بأخبار هامة وجدية تقول : ان الرولة على أبواب الحرب مع باقي العنزة ، ويقدر أن الحرب قد بدأت غنموا بعض الابل من السبعة ، والسبعة قبيلة موسرة مسالمة ، ولكن دفعتها الى الحرب خسارة خمسة من رجالها أسرى عند الرولة اثر غارة شنت عليهم . وخلافا لأعراف البادية قام الرولة بقطع رؤوسهم علامة للانتصار(١) ، وهو أمر مستهجن لم تعرفه أجيال البدو منذ سنوات وخوفا من الانتقام هربت قبيلة الرولة الى براري حمص واضعة نفسها تحت حماية يوسف باشا الحاكم التركي للمنطقة . سعد الباشا بما حدث وقام بتعيين ابن شعلان شيخا على الرولة مضفيا عليه ثوب الشرف ولقب أمير البادية ، وأرسل له فرقة من الجنود لمساعدته ، فتقدمت هذه المجموعة التي نوت على الشر باتجاه السبعة الذين انسحبوا أمامهم طالبين النجدة من جدعان ابن مهيد فوفرها لهم على جناح السرعة ، وانقلب الموقف لصالح السبعة والفدعان ، فدحروا الرولة الذين أخذوا يفرون أمامهم وأسروا عشرين من رجالهم ، فعاجلهم جدعان بالقتل انتقاما وثأرا للرجال القتلى الخمسة من السبعة وعاد الى قرب الدير مخيما هناك بينما فرت الرولة جنوبا باتجاه الحماد .

ان في هذه الاخبار قصة مفجعة ، ولكنها لم تؤثر على استعداداتنا للسفر . لن تنسى الرولة اساءة أبناء عمومتهم من العنزة ، وبالتالي فهي لن تذهب معهم الى جبل شمر في الجنوب هذا العام .

أخذنا زمام المبادرة بأيدينا . فكل القبائل تعيش دوامة المشاكل . ومن

---

(١) لم تكن هذه الاخبار صحيحة .

المحتمل أن تعجل العنزة في رحلتها نحو الجنوب ، وجدعان يتلهف لأية مساعدة يمكن أن يقدمها لشخص قوي يحالفه مثل السيد « سكين » • وعلينا أن نبدأ في الحال اذا ما رغبنا اللحاق بالقبائل الراحلة •

أرسل ولفرد في طلب الحاج محمود ، وعرض عليه أن يحملنا الى الدير فوافق الاخير أن يأخذنا مع خمسة بغال لحمل الامتعة ، وقررنا الانطلاق يوم الاربعاء •

في الثالث من كانون الثاني عام ١٨٧٨ وصلتنا أخبار مثيرة من الدير تقول : ان قبيلة الرولة المندحرة أرسلت الى ابن صفوق زعيم قبيلة شمر طالبة النجدة والمساعدة فأرسل لهم نجدات هامة بقيادة ابن أخيه وابن عمه سمير(١)• وعندما شاهد سمير الرولة في الحماد ذهب الى جبل شمر لطلب المساعدة من محمد ابن رشيد فانضمت اليهم شمر بقيادة ابن رشيد واخذوا يزحفون مع الرولة لمهاجمة جدعان وبقية العنزة في الشمال • انسحب جدعان من البشري، واتخذ من عين عيسى موقعا دفاعيا حصينا تجاوره وتحالفه قبيلة الولدة(٢) في تلك المنطقة ، مما ساعده على الدفاع عن نفسه : الهضاب الممتدة على جانب نصف الطريق المؤدي من تدمر الى دير الزور ، مؤمنة طريق الامداد القادم اليه من حلب • ولهذا السبب تعثرت خططنا للوصول الى جبل شمر ، وخامرنا الشك في جدوى ما نعد له • أخذ ولفرد يضرب أخماسا بأسداس ويقول : لعل فرصتنا الوحيدة تكمن بالانضمام الى جدعان حالا لنساعده في حربه مع ابن رشيد ، واذا ما انتصر فسنذهب معه الى الجنوب وهو يطارد شمر ، الا أن هذا يعتمد على فرص نجاح جدعان في الحرب • فمحمد ابن رشيد يملك المدافع

---

(١) هو سمير بن زيدان آل الجربا •

(٢) الولدة من قبيلة « البوشعبان » الزبيدية .

بينما لا يملك جدعان شيئا منها . ودرسنا خطة أخرى فكرنا بموجبها الانضمام للرولة وعن طريقهم نصادق ابن رشيد ونعود معه الى الجنوب ، واستبعدناها لأن عواطفنا كانت مع السبعة وتقديرنا لهم منعنا من الانحياز ضدهم في مثل هذه الازمات الخطيرة ، يضاف الى ذلك كله : الصداقة والعلاقات الطيبة التي متنها السيد « سكين » مع الطرفين المتحاربين ، وبتقديري أن ذلك لا يمنعنا من الانضمام الى جدعان . فالمسافة بعيدة بين ساحة الميدان وجبل شمر . ولا يستطيع محمد ابن رشيد أن يكون سيد الموقف مهما عظمت قوته .

يبلغ الجمع المحارب عند الرولة حوالي عشرين ألف مقاتل . ولكن يمكن للسبعة أن يدفعوا الى الميدان ضعف ذلك العدد ، وعندها سيصبح متعذرا على بنادق الفتيل عند ابن رشيد أن تجعل القوى بينهما متكافئة . ويمتلك جدعان سمعة طيبة في الحرب وفن القيادة وهو يقاتل فوق أرضه ، ونأمل أن ينتصر في حربه . واذا ما وقعت الحرب ونحن مع العنزة فان ولفرد بكل تأكيد سيشارك فيها ، ولم يكن في نيته استخدام السلاح الا في حال الدفاع عن النفس ، وعليه أن يبقي سلاحه جاهزا للاستعمال ، لذلك أمضينا الصباح ونحن نصب الرصاص للمسدس ونضع « الخرتوش » . وفي هذا الوقت يحضرني قول « كانون ترسترام » عندما وضعت الرصاص في بنادق الصيد ، تضرعت الى الله بأن لا يراق الدم .

في الرابع من كانون الثاني عاد سيد أحمد ثانية ليؤكد الاخبار الحربية التي جاءت من الدير ، وأخذ كل منا يتكهن بما يحلو له ، فمن قائل : ان جدعان سيهزم لا محالة وقد يجبر على الاستسلام ولكنه يستطيع التراجع بانتظام الى عين عيسى أو الى البشري ، وحتى في هذه الحالة نجده مهددا بعبور ابن صفوق للفرات يقود قبيلة شمر لتمزيقه ، واذا ما نجحوا في ذلك فسيجد نفسه معزولا عن الموالي وحلفائه الذين لا يزالون في أقصى الشمال .

توقع ولفرد خوف الفدعان وحلفاءهم من المدافع التي يملكها ابن رشيد، ولكنه يظن أن تلك المدافع تعتبر من المدافع البالية وفي حالة يرثى لها ، وقد لا يستعمل منها في الميدان أكثر من اثنين ، وعلى الرغم من كثرة التوقعات نجد الاكثرية تقول ان جدعان هو الخاسر في هذه الحرب •

انها أكبر حالة حرب تشهدها البوادي العربية منذ أن طردت العنزة قبيلة شمر قبل مئتي عام ، واذا استسلم فيها جدعان فستنكب الفدعان والسبعة معا، وهم أكثر القبائل تسدنا على الرغم من قدراتهم الحربية الكبيرة ، ان قوانين الحرب ستعطي المنتصر حق امتلاك كل شيء من الامهار والجمال والغنم والخيام ، وحتى القدور وأدوات الطبخ ، وسيكون لزاما على هذه القبائل أن تستجدي الصدقة من بني صخر ومن روافدهم من القبائل الصغيرة كالولدة والعقيدات⁽¹⁾ • وبسبب هذه المعلومات عقدنا مجلس حرب حضره مرافقنا سيد أحمد الذي وافق على اصطحابنا الى الدير ، وبسط أمامنا خريطة أحداث البادية ، وقال ان الدنيا قائمة قاعدة والاوضاع قلبت رأسا على عقب ، ومن الافضل التريث حتى ينجلي الموقف ، ولكن أترك القرار النهائي للبيك الذي أخدمه ، وعندما يقول كلمته فاننا رهن الاشارة لامتطاء الخيل •

كان ولفرد أكثرنا حماسا للسفر الى الدير حالا ، لنكون على مقربة من مسرح الاحداث ولنتمكن من رؤية أشياء جديدة ولنتصرف حسب مقتضيات الظروف ، وهي بالنسبة له فكرة رائعة ، لأن فيها فرصته الذهبية لشراء الخيول، والخيول المأسورة تنتقل عادة من يد لأخرى ، ومن المحتمل أن المزيد منها سيباع في السوق • أما بالنسبة لي فأنا آمل أن يكون جدعان ندا لأعدائه ، ولكنني لا أرغب أن ألتقي معه في مثل هذه الظروف •

---

(١) الولدة من « البوشعبان » في الرقة . والعقيدات : هم من القبائل التي تنتسب الى قبيلة زبيد اليمنية .

في الخامس من كانون الثاني وصلنا نبأ عاجل جديد عن مسبب الحرب في البادية ـ تلك الحرب التي شغلتنا كثيرا عن الحرب الدائرة في بلغاريا وأرمينيا ـ انه مشهور(١) فتى القمصة الشاب من قبيلة السبعة ، وهو الذي أرسل لنا دعوة لزيارته منذ أيام . فالنزاع متواصل بين السبعة والروله ، وكلا الطرفين من العنزة الا أنهما غريمان قديمان ، وسبب ذلك الحكومة التركية ـ التي تدعم الرولة ضد السبعة ـ كانت قد دعت الطرفين للاجتماع من أجل البحث عن تسوية ، فدعى سطام ابن شعلان(٢) عن الرولة ومشهور عن القمصة، وخلافا للعادة جاء سطام بصحبة بعض الضباط الاتراك مما أغضب مشهورا فتشاجر مع ابن شعلان ، وطعنه برمحه ...

جاء بتلك المعلومات محمد علي ـ المرافق القديم للقنصل ـ صاحب الخبرة الطويلة بالبادية غير أنه لا يؤكد صحتها ، ولم يصدق قصة قطع رؤوس الاسرى مطلقا لأن ذلك يخالف العادات وعرف البادية .

أثارت هذه الانباء مخاوف الحاج محمود ، فتنصل من تعهده بالذهاب معنا الى الدير ، الا في حال مضاعفة الاجر العادي لأنه يضع في الحسبان أن نصادف حملة من بدو شمر وهي في طريقها لمناصرة الرولة ، ولأن السيد سكين لا يستطيع حمايتنا من شمر لأنه من أصدقاء جدعان وعلاقاته سيئة مع قبيلة شمر . أمام هذه المستجدات طلبنا حماية الباشا الذي كان يرسل الفرق العسكرية لحماية الدير من خطر السلب الذي يتهدده من هذه القبيلة أو تلك .

قدمنا هذا الطلب على مضض لأنه سيفقدنا الاستقلال وحرية الحركة الا أن جهلنا بالمنطقة جعلنا نفضل السلامة والأمن مع الحماية . وهكذا مرت

---

(١) مشهور بن مدبغ بن سلاب المرشد .وصنف باسم بشير في بعض المصادر .

(٢) سطام بن احمد بن منيف الشعلان زعيم الرولة في ذلك الوقت .

الايام الاخيرة من اقامتنا في حلب بين الشكوك والمخاوف وأخبار الحرب وهواجس المخاطرة وكم كانت العواقب التي أثارت مخاوفنا تافهة ! ولكن بعد فوات الاوان . قبل أن أضع اللمسات الاخيرة على هذا الفصل سأوضح حقيقة النزاع في البادية الذي سمعنا عنه الكثير ودوناه دون أن نمحص حقيقته ، ولهذا بذلنا مجهودا اضافيا للوصول الى الحقائق التالية :

طيلة حكم الاتراك لسورية ساروا على مبدأ ثابت يتم بموجبه ابقاء القبائل البدوية مشغولة في حروب متواصلة ، وبهذه الطريقة تكون الحكومة آمنة من خطر التحرش والتهديد المتمثل في قوة هذه القبائل غير المستقرة . وفي ذلك ضمان لعزل مقاطعات المدن عن البادية . ولعل من أصول اللعبة عند الباشوات التخلص من الخصوم السياسيين بهدوء وبأية وسيلة كانت حتى وان كانت هذه الوسيلة غير أخلاقية . فأنا ملزمة أن أقولها علانية : انهم يطبقون مبدأ الغاية تبرر الواسطة ، وعلى سبيل المثال أذكر : منذ سنتين دعا حاكم الدير سليمان ابن مرشد(١) ـ شيخ أكبر فرقة من فرق السبعة ـ الى مأدبة عشاء كبيرة دعي اليها وجهاء المدينة ، فقام الباشا بحسن ضيافة الشيخ وأكرمه وحمله بالهدايا الى قومه ، وعندما رجع الشيخ مات فجأة في البادية ، فصعق أتباعه لهول الصدمة وحملوا الوالي مسؤولية موته ، وعزوا ذلك الى فنجان مسموم من القهوة تناوله الشيخ من يده دون أن ينتبه ، وهو الحادث الذي سبب توتر العلاقات بين السبعة والسلطات التركية ، وأحدث تعقيدات وجروحا لا تندمل بسهولة ، غير أن السبعة يملكون حقا رسميا للرعي في براري حمص وحماه مثلما يملك الرولة حقا للرعي في براري دمشق .

كثرت الجمال والماشية عند الرولة بسبب مواسم الربيع المتلاحقة وكثرت المواليد ، فضاقت المراعي وأخذوا يبحثون عن مراع اضافية ، فأراد استغلال

---

(١) هو سليمان بن سلاب المرشد جد الشيخ راكان المرشد .

الخلاف القائم بين قوم ابن مرشد وبين الاتراك ، انها نقطة الضعف عند البدو على الرغم من استقلالهم التام عن الحكومة خلال جزء كبير من السنة • فهم مضطرون في الربيع للبحث عن أسواق لتصريف الجمال الصغيرة والخيول والصوف في هذه المدينة أو تلك ، وليتاجروا بالغائض من الذرة والتمر والقهوة والتبغ والثياب ، ولهذا فهم يرغبون برضاء الباشا وكسب مودته ، ويدفعون له مبلغا معينا من المال سنويا لقاء الحصول على الامتيازات التجارية • وحاجة البدو هذه تعطي الباشا فرصة الايقاع بينهم وتدبير التآمر • فالسبعة تدفع للباشا مبلغا ثابتا لقاء امتياز الرعي قرب حمص وحماة ، الا أن سطام ابن شعلان أفسد عليهم هذا الحق هذا العام فجاء وعرض على الحكومة ضعف المبلغ الذي تدفعه السبعة مع هدية من المهار الأصيلة لوالي حماه ليدعم طلبه في امتلاك المراعي بدلا من السبعة • وعندما عادت السبعة من نجعتها الجنوبية وجدت الرولة تحتل المراعي ولم تتراجع فقام الرولة بمساعدة فرقة من المشاة الاتراك بالهجوم على مضارب القمصة والموالي ، فأخذوا خيامهم وابلهم وطردوهم الى جنوب البادية ، الا أن القمصة استنجدوا بعقيدهم الجديد جدعان ابن مهيد ــ الزعيم العسكري المحارب ــ واستنفروا كامل قواهم ؛ وقلبوها على رؤوس الرولة الذين خذلتهم الحكومة التركية التي حصلت على كل ما أرادت وتركتهم يقاتلون وحدهم •

انتصر جدعان على الرولة في معركة حاسمة قرب الجبول ، واستولى على كثير من الخيل وقتل أكثر من خمسين من الرجال وهو عدد كبير بالنسبة لمعركة بين البدو وأجبر الرولة على التقهقر بفوضى الى مراعيهم القديمة قرب دمشق • وأمام هذا الموقف الصعب طلب الرولة من فرحان(١) شيخ قبيلة شمر

---

(١) فرحان بن صفوق آل الجربا من شيوخ شمر الشمال .

ومن ابن رشيد، إرسال الشيخ فرحان ابن عمه الشيخ سمير في مهمة دبلوماسية الى حائل ليفاوض أبناء عمومته في جبل شمر في أمر نجدة الرولة الا أن ابن رشيد لم تعجبه فكرة سحب مدفعيته الى مسافة خمسمائة ميل عبر البادية ليساعد الرولة وشمر الشمال ، وهكذا فشلت مهمة سمير وتركت الرولة تحت رحمة أعدائها ، فانسحبت الى ديارها القديمة لتقضي الشتاء في وادي السرحان تاركة جدعان مع السبعة يجنون ثمار النصر عند جبل البشري ، ويطاردون فلولهم حتى في الحماد • وغادرنا حلب وأخبار جدعان تصلنا من البشري •

أخشى أن أكون قد أطلت الوصف الا أنه من الضروريات لفهم أبعاد اللعبة في البادية التي كانت قد شغلتنا طوال فصل الشتاء ، وهكذا أكون قد حددت أسماء الممثلين الهامين على مسرح السياسة البدوية ، وآمل في المستقبل أن أجعل القضايا أكثر جاذبية ومتعة •

* * *

الفصل السادس

لا يحق للممتطي صهوات الخيل الآسيوية المدللة غير الأصيلة والتي لا يمكنها السير اكثر من ثلاثين ميلا في اليوم .. لا يحق له ان يتطاول بها على خيل القياصرة او خيل اكلة لحوم البشر ولا حتى على حصان طرواده .

شكسبير

غادرنا حلب ــ تجوال في الظلام ــ قرية عربية ــ الصحراء ــ نحن والفرات ــ الدرك أو الضابطية ــ منفى كئيب وطبق من الدراج ــ عسكرنا في العراء قرب النهر .

التاسع من كانون الثاني عام ١٨٧٨ كان يوم الانطلاق . ان السفر لكبار السن أمثالنا يضني ويتعب ، ولذلك كان من الحكمة السير في الايام الاولى بتمهل ، ولهذا اخترنا الجبول المرحلة الاولى من الرحلة على بعد خمسة عشر ميلا من حلب ، وعملنا على اعداد لوازمنا وكل ما نحتاجه للسفر قبل حلول الظلام ، ورتبنا الامور مع سيد أحمد ليأخذنا الى بيت قريب له في الجبول ، وتوقعنا أن نجد في بيته المأوى والطعام في الليلة الاولى من الرحلة ، الا أن كل شيء جاء مخيبا للامال عندما وصلنا الى هناك . نهض ولفرد كالعادة على صياح الديكة عند الفجر ، فأخرج الحقائب الى ساحة الدار قبل شروق الشمس دون انتظار بقية التحضيرات ، الا أن الساعة شارفت على التاسعة والنصف ، ولم تصل حيوانات النقل بعد ، بينما سارت التحضيرات قدما من جانبنا أما استعدادات دار الحكومة فلم تكن على مستوى المسؤولية ، وفوجئنا برسولهم يسأل فيما اذا كنا لا نزال نرغب بالسفر في هذا اليوم ، لأن حرس المواكبة الذين وافقنا على اصطحابهم معنا كانوا في تردد وحيرة ، ولأن القنصل كان في مهمة

تجاربة عليه أن يقوم بها قبل مغادرته القنصلية • ومهره الذي اشتراه ليقاسم حصانه « الكريمي » واجبات السفر ، وجده يعاني من تقرحات في ظهره ، بالاضافة الى أن سيد أحمد لم يطل علينا بعد ورأينا أنه من الحكمة عدم الانتظار لمدة أطول ، لأن وقتنا قد ذهب سدى ، وعلينا أن نتناول طعام الفطور قبل متابعة تطورات الرحلة •

حان وقت الضحى ووصول أربعة من الدرك برفقة رقيب يمثلون ــ كما علمنا ــ مجموعة حماية قوامها خمسون من الرجال أمرهم الباشا بمرافقتنا، ولم نطلب مثل هذا العدد ، فلو كانوا أقل من ذلك لكنا أسعد حظا لأن الدرك رفاق درب لا تسيل اليهم النفس ويفتقرون الى اللطافة ، الا أن مظهرهم شيء يتعلق بالطبيعة الشخصية • فالرقيب سليمان آغا رجل تركي عريض المنكبين قوي البنية أسمر اللون ارتدى حلة بنية ووضع فوق رأسه غطاء موشحا بالسواد ولف جسمه بعباءة عسكرية غير رسمية وبدت الرجال من حوله بهيئة لا يمكن تمييزها عن هيئة أهل الريف لأول وهلة الا من خلال غطاء الرأس الخاص بهم ، الا أنهم جاؤوا بروح مرحة وربما سيكونون أفضل عند التعارف •

في تمام الساعة الواحدة والنصف أسرجت الخيل ، وقمنا بمراسيم الوداع الاخير ، وركبنا في كوكبة من الفرسان يتبعها خدم القنصلية وهم يتصايحون ويقبلون ركائب القنصل داعين اله بالسلامة ، وأخذنا نغذ السير بعيدا عن حلب، ولم تبق أمامنا سوى أربع ساعات قبل أن تغيب الشمس ويخيم الظلام • ولا نظن بأننا سنصل مكاننا المحدد قبل حلول الظلام ، وفي طريقنا هذا تفقدنا سيد أحمد فلم نجده في الركب ولم يرسل من يمثله ، وساورتنا الشكوك بنجاح الرحلة فأين نحط رحلنا هذه الليلة ؟ واللقاء لم يكن في الجبول بالضبط • على كل حال سررنا لمغادرة حلب ، ونتمنى أن لا نجد في طريقنا مزيدا من العثرات • شعرنا ببرودة في الطقس لم نكن نجدها في الصباح ، لأن الرياح كانت تهب في وجوهنا ونحن نشق طريقنا عبر الهضاب المقفرة باتجاه الجنوب الشرقي • وبدت السماء بلون فضي وكأن الثلج على وشك السقوط ، وما أشبه هذا

الطريق بالطريق الذي قطعناه من اسكندرون الى حلب تماما بصخوره ووحوله، واقترحت على رفاقي أن نعدو بخيلنا عندما نصبح خارج المدينة طلبا للدفء ولنعوض ما فاتنا من ساعات الصباح ولكن فوجئنا بتخلف جواد القنصل عن الركب ، ولا نستطيع تركه في المؤخرة ، ولهذا علينا التحلي بالصبر ونحن نسير فوق الارض الزراعية طوال هذا اليوم ، وربما نكون فوق أرض البادية في وقت قريب •

انا نمر بمواقع وقرى قديمة تتناثر هنا وهناك ، وربما كانت خرائب لمدن طواها النسيان • وعند الغروب طالعتنا بحيرة الملح في الجبول فهبطنا فورا من الارياف العلوية الى السهل الذي استحال الى مستنقع بسبب الامطار التي تعرضنا لها ، فتخبطنا فيه ساعة من الزمن أو ساعتين • تعثر جواد القنصل وجثا على ركبتيه أكثر من مرة في الطريق ، انه حدث لا يسر الراكب لأن الماء يكاد أن يجمد • قررنا أن نمضي الليل في العراء لولا أن سمعنا عواء الكلاب ، ورؤيتنا لبصيص من النور عرفنا أنه لا بد وأن يكون منبعثا من قرية مأهولة بالسكان ، انها لم تكن الجبول ولم نصل الى مصدر الضوء الا بعد أن تخبطنا في مستنقع غاصت فيه أقدام الخيل الى الركب • وليس من الاصول أن تركب جوادا الى قرية عربية لتطرقها ليلا ، خشية التعثر بالجدران التي بنيت حولها كأقراص العسل ، وخطر السقوط بحفر خزن الذرة • وكم من مرة وجدت نفسي على بعد خطوات منها • ولكن يبدو أن الخيل ترى في الظلام ، وأخذنا بالمثل العربي الذي يقول : ان كنت تسير في الظلام فاترك جوادك يشق طريقه بعنان مُرخ •

لم تكن القرية هي الجبول التي نقصدها ، الا أننا استعنا بسكانها لمعرفة الطريق الصحيح وما ان أمضينا في الطريق الجديد نصف ساعة حتى سمعنا حصانا يعدو نحونا فارتحنا لذلك ، وسرعان ما تبين لنا بأنه رجل استطلاع كان قد أرسله مضيفنا القلق ليدلنا على الطريق المؤدي الى بيته •

كانت ديار الهنادي قذرة كما هو الحال بالنسبة للعرب الذين يقيمون في

مكان ثابت • فالخيمة غير مريحة وبدون أبواب ولا نوافذ ولا أرضية مناسبة؛ كانت الخيمة ثابتة ولهذا نجدها وسخة لا تليق بأحد • ولا عجب أن يكون البدو يرفضون استبدال البيوت الثابتة ببيوت الظعن والترحال •

أدخلنا مضيفنا الى غرفة صغيرة مساحتها ثمانية أقدام مربعة ، علق على بابها كيس وسخ ليصد عنا هبوب الريح ، وطرحت في احدى زواياها بعض الوسائد الوسخة وفي هذا المكان وضعنا أمتعتنا الموحلة لنمضي ليلة تعيسة قررنا أن تكون الاخيرة تحت هذا السقف مهما كانت برودة الجو الخارجي • ويتعذر مضيفنا عيسى لأنه لم يتلق اشعارا بوصولنا حتى جاءته الامتعة ، ولم يتسن له أن يقيم على شرفنا وليمة ولذلك تلمسنا ما بجعبتنا من طعام فلم نجد سوى أطراف ديك رومي باردة كانت قد قدمتها لنا زوجة القنصل لمثل هذه الظروف الطارئة التي قد تتعرض لها في الطريق فالتهمناها في الظلام وتابعنا ملاحظة ما يدور حولنا ، فها هي فتاة في الخامسة عشرة من عمرها ــ أخت لزوجة عيسى ــ تنطلق لتحلب الشياه في ساحة الدار على بعد مائة ياردة منا انطلقت وهي في حالة فزع شديد من الذئاب التي يدفعها البرد القارس لمهاجمة القرى ••• وعلمنا أن واحدا منها هاجم الحظيرة نفسها ظهر هذا اليوم •

ان مؤسس الدار التي ننام فيها هو الشيخ بطران الهنادي والد عيسى الذي جاء مطرودا مع قومه من مصر قبل عهد محمد علي باشا •

يتمتع الشيخ بطران بشجاعة فائقة ، ويؤخذ عليه البطش والقسوة • ففي احدى المرات وكل بثلاثين سجينا من قبيلة شمر(١) ، وفي الطريق قطع رؤوسهم وألقى بهم في كهف قريب من هناك • توفي بطران وترك عيسى طفلا صغيرا لا يصلح أن يأخذ مكان والده فحل فيه عمه سيد أحمد •• تجاذبنا أطراف الحديث مع عيسى وسألناه كيف يمكن لمثله من البدو أن يقنع بعيش فلاح ؟ فأجاب بأن الفلاحة تدر عليه مالا مناسبا وأن غناه يزداد يوما بعد يوم• والهنادي مصريون أولا وأخيرا ولا يمكن أن نعتبرهم من البدو الحقيقيين • ولو عرض

---

(١) لانه قد أسندت اليه مهام امنية في عهد العثمانيين •

عيشهم على أي رجل من العنزة فلن يوافق على مثل هذا الواقع الذي يعيشون فيه • قطع الحديث بسؤال وجهه القنصل له قائلا : يا عيسى ما هي أخبار أحمد ؟ وماذا حل به ؟ فلم يجب بشيء فأردف القنصل القول : عرفت سيد أحمد منذ عشرين عاما ، رجلا يحفظ العهد ويبر بالوعد أخشى أن يكون غيابه لعارض طارىء صادفه •

في العاشر من كانون الثاني بدت الجبول في النهار أقل اثارة كما هي حالها في الليل • انها من القرى التي تحف بالبادية وحالتها في منتهى البؤس والقذارة، والحياة فيها لا تطاق وهي في هذا الواقع المرير • فحياة الرعي لا يمكن أن تكون ممتعة بدون الترحال والتنقل والحياة البدوية الخالصة • ان العرب حتى بعد استقرارهم لا يمكن لهم أن يستغنوا عن تربية الماشية والرعي المستمر من الارض المحيطة بالقرى يجعل القطعان تعيث فيها الفساد وتحيلها الى براري قاحلة تاركة الاقذار في كل مكان • فحظيرة ثابتة للغنم تجدها منتنة في الجو الماطر تنبعث منها الروائح الكريهة وكأنها حظيرة للخنازير • عرفنا كل هذا في الصباح ، ولم يكن من الصعب علينا أن ندرك لماذا يشعر البدوي بالاحتقار لزملائه الذين يتحولون الى فلاحين •

ان عدم الارتياح الذي انتابنا البارحة جعلنا ننطلق باكرا ، وما ان قطعنا عدة أميال حتى أصبحنا بمتناول البادية ، فارتفعت معنويات رجالنا ونحن نقطع ممرا عبر سهل ممتد باتجاه هضبة مخروطية حجبت عنا نور الشمس ، لكننا تجاوزناها وتركناها خلف ظهورنا لنصبح بعيدا عن القرية التي أفسدها الفقر ، فبدت الارض أمامنا أكثر اشراقا وجمالا واختفت الحجارة السائبة من الطريق، وسرنا في أرض عشبية خفيفة لا شيء ينقص من تناسقها سوى خطوط عرضية من كومات الخلد المتطاولة المنتظمة ، وكأنها بنيت آليا بطريقة هندسية تمتد في بعض الاحيان الى مائة ياردة • وهنا وهناك نصادف حفر اليرابيع ، وما عدا ذلك فالارض سهلية تكاد تصلح لسباق الخيل •

واصلنا السير فوصلنا الى سفح تلة فوجدنا عندها الخيام والمضارب المهلهلة ، ولكنها بدت أنيقة بالنسبة للبيوت التي تركناها في الصباح ، انها مضارب الهنادي أهل سيد أحمد وبجوارها قطعان من الغنم كل مع راعيه ، وذلك بمنظر مبهج جعلنا نندم لأننا لم نحث الخطا بالامس لنصل الى هذا المكان .

ركبت وولفرد الى قمة التلة لنتمتع بمشهد بساط أخضر في سهل منبسط فسيح على مد البصر . انه المكان الذي قاد فيه جدعان معركته الاخيرة مع الرولة ، حتى ان هاجرا ــ فرس ولفرد ــ أخذت تتذكر المكان وأصابها الفزع والانهاك عندما اقتربنا من المكان ، فلعلها من الخيل التي شاركت في هذه المعركة وصالت فيها وجالت ... وربما يكون ذلك من قبيل المصادفة ولكن ذلك وضعنا في الجو الرهيب للمعركة . علمنا بأن هذا التل يدعى تل خشاف(١) ، وعلى بعد عشرة أميال بدت لنا تلة أخرى جعلناها نقطة علام ، ورغبنا بالتوجه اليها في المرحلة التالية .

تركنا القنصل والدرك لمرافقة الامتعة ، واندفعنا الى الامام بهمة ونشاط لأن كل شيء بدا أمامنا ممتعا وجديدا فاشراقة الصحراء وهواؤها الندي يدفعان اليوم للمغامرة التي لا ندري فيما اذا كان بالامكان القيام بصحبة مثل هذه المجموعة المملة من الاتراك .

جلسنا عند بعض الرعاة ، وطرحنا عليهم بعض الاسئلة ، فأجابونا بلطف وهم منهمكون بفصل الحملان الوليدة عن أمهاتها ، وتدريبها على الفطام الذي يبدأ من اليوم الاول لولادتها ، وعنّ عن بعد قطيع ظننا بأنه قطيع من الغزلان أو الحباري ، ولكن سرعان ما عرفنا بأنها طيور الكركي قادمة من البحيرة ، وحامت في الجو غربان الغداف والغربان الرمادية والحدايا والصقور الصغيرة . وتابعنا السير حتى وصلنا الى جدول صغير على أكتافه عشب أخضر جلس عليه بعض الرعاة ، وهنا تركنا خيولنا تعب الماء لأنها لم تذق الماء منذ البارحة .

---

(١) تل خشاف وتل حسن من التلال المميزة على الطريق بين مملحة الجبول ونهر الفرات في الشرق .

بدت لنا هذه البادية أكثر جاذبية ومتعة من كل البوادي التي شاهدناها في مصر أو الجزائر ، فهي منبسطة كما لو كانت قد أعدت للسباق •• كان علينا أن نشاهد مقر الحراسة العسكرية من التلة الثانية أو من هذا المكان . ولكن لم نشاهد أية علامة فانتظرنا حتى جاءت القافلة تتقدم من بعيد •

ستة خيول وبغل لحمل الامتعة بقيادة القاطرجي ــ سائق البغال ــ شقيق الحاج محمود يرافقه الطباخ حنا الحلبي الذي جاء على ظهر حصان صغير كان مطية ولفرد من اسكندرون الى حلب ، مرتديا زيا بدويا فبدا مزهوا متباهيا مقلدا بنش(١) في حركاته ، والاسم المجرد لحنا يوحي بأنه امرأة ولكنه اسم رجل بلغة العرب يقابل اسم جون باللغة الانكليزية •

وقدم محاذيا حنا جورجي خادم القنصل بلباس مشابه للباس حنا على مهر لسيده ، ويقود بجانبه فرس القنصل ذات الظهر المتقرح ، ويتبعهم الرقيب سليمان يقود مجموعة الحراسة على ظهر جواد عربي هجين صبور على قطع المسافات الطويلة وحمل جثته الثقيلة ، وجاء الدرك على خيول متنوعة كان أصغرها عمرا جواد عمره سنتان •• وأخيرا جاء القنصل ليضفي على الموكب جلالا ووقارا بعباءته السوداء الطويلة وحطته الصفراء التي لفها حول قبعته •

سرنا في يمين الطريق كثيرا الا أننا الآن ننعطف نحو الشرق فسرنا حتى الساعة الثالثة من نهار هذا اليوم لنصل بعدها الى أرض وعرة ، استنتجنا من سحنتها أن نهر الفرات العظيم في المكان المجاور ، فكانت الفرحة عارمة بوصولنا اليه •

أفعم السيد « سكين » الطريق حيوية بحكاياته عن البدو وعن حياتهم وعاداتهم ، ثم قص علينا قصة نجاته من البدو على يد أحمد بك الموالي التي ذكرتها سابقا • وما ان انتهت قصة مغامرة القنصل حتى وجدنا أنفسنا في مغامرة جديدة • فنحن الآن أمام سهل الفرات وأصبح الوادي أمامنا . فهالني المنظر

---

(١) شخصية مهرجة انكليزية .

أكثر مما كنت أتوقع وبدت لي صورته الجميلة أكثر مما كنت أتخيل ؛ لأن الحقيقة فاقت كل التوقعات . وجدنا نهر الفرات من الانهار العميقة المجرى وقد حفر سريرا عريضا في البادية ، وترك على جانبيه جروفا غضارية كلسية تتدلى نحوه بانحدار شديد في بعض الجوانب . وفي النقطة التي وصلنا اليها بدت المسافة بيننا وبين النهر خمسة أميال وربما بعمق مائة وخمسين قدما أسفل مستوى الوهاد العلوية والسهول .

تعرج الوادي أمامنا وشكل مرجا مستويا كلل باللون الاخضر الزمردي، وتناثرت فوقه قطعان الاغنام التي قدرت بعشرين قطيعا ، وتعداد القطيع الواحد ألف رأس تقريبا . انها تعود لقبيلة الولدة من القبائل العربية النبيلة المزدهرة في هذه المنطقة ، اذ ترعى الغنم وتتعهد غنم العنزة عندما يهاجرون جنوبا ؛ وقد يشاركون سكان مدينة حلب في تربية هذه الاغنام ويباع الخروف الواحد عندهم بخمسة أو ستة شلنات ، يعرف هذا الجزء من الوادي بأرض الملاح وهو المكان الذي حصل فيه الاصطدام بين جدعان وعصمت باشا . طاردنا نهر الفرات عبر الافق فوجدناه ينعطف جيئة وذهابا في مرج مترامي الاطراف أما جوانب النهر فمغطاة بحزام بني عميق من أشجار الطرفاء التي تنحني بألسنة منبسطة كبيرة ولعل الشبه كبير بين هذا النهر ووادي نهر الدانوب في مدينة بلغراد .

هبطنا أسفل الجرف المحاذي لأرض المسيل ، وهناك مررنا بقبر أحد زعماء شمر يدعى عبد العزيز كان قد قتل في هذا المكان في معركة مع العنزة منذ عشر سنوات ... ويرقد الآن تحت الثرى مغيبا بالحجارة . انعطفنا نحو اليمين مواصلين السير في أرض اتصال البادية بسهل النهر لمدة ساعة من الزمن حتى وصلنا الى منعطف نهري قطع الوادي بلطف ليصل الى مكان يصلح لرسو السفن وهو المكان الذي نود أن يكون محطة للسفن التجارية التي نقترح أن تجوب النهر في المستقبل . وبطبيعة الحال ستجد السفن المرسلة من بغداد في الجنوب لاغراض حكومية ، محطة ترتاح فيها في الشمال ، ولن تجد أفضل من هذه النقطة .

تجولنا في المكان فلم نجد غير حصن صغير يدعى مسكنة وبعض الابنية التي شيدت لحمايته ، وفوجئنا أن هذا المكان لم يكن معلما على الخريطة التي نحملها . لا تزال المنطقة مهجورة بسبب الحرب ، ولذلك تجولنا بين دورها وأكواخها فلم نجد مكانا يصلح أن نقيم بداخله فقررنا النوم في العراء .

في الحادي عشر من كانون الثاني أصيب القنصل بالاعياء لأنه لم يركب حصانا منذ سنوات عدة وقلقنا من أجله ، وحالما وصلنا مسكنه ترجل عن حصانه وتمدد على العشب واستغرق في نوم عميق ، ولم نتمكن من ايقاظه الا في المساء .. أصبح في اليوم التالي بخير فقدرنا معه أن المسافة التي قطعناها في سفرنا المتواصل كانت أربعين ميلا . ومن حسن الحظ أن الليلة كانت دافئة على عكس الايام الماضية . تأخر سائقوا البغال بالوصول ولهذا لم يسمح لنا الوقت بنصب الخيام فأخرجنا السجادات والبطانيات ، ولمنا كما نحن بقليل من الطعام الذي سددنا به الرمق وهو بقايا الديك الرومي وقطع الخبز ، ونمنا ليلة تعيسة حيث التعب والارهاق الا أنها رغم تعاستها كانت أفضل من الليلة التي قضيناها في الجبول . ومن الجدير بالذكر ان النائم في العراء يكون دوما جاهزا للنهوض في الصباح الباكر وقبل شروق الشمس اذا ما كان الجو باردا . نهضنا عند الفجر فوجدنا الخدم يشعلون النار ويغلون الماء لاعداد القهوة ووجدنا نارهم تشتعل في حطب الطرفاء الجيد الاشتعال ، وحطب الطرفاء كثير في الغابات المحاذية للنهر ، وعند شروق الشمس تناولنا طعام الافطار ، وحزمنا الامتعة ، ثم انطلقنا في طريق يمتد على طول الضفة اليمنى للنهر لتأخذنا الآن باتجاه الشرق .

مررنا بالاطلال الشهيرة لبالس، ونخص منها بالذكر البرج الثماني الطويل المرتفع الذي يمثل فن العمارة الاسلامية المصممة بدقة ، انه يعطي فكرة عن أهمية المنطقة في الازمنة الغابرة . ومررنا بأطلال قلعة أخرى تدعى الدبسي كانت تنتصب على نتوء صخري على شكل جرف تحيط به الوديان العميقة مما يجعلها محصنة ضد الهجمات . انها لسان من الارض يربط الصحراء العليا

بالنهر أشبهه بمقدمة جسر متحرك كان يقوم في هذا المكان في الماضي البعيد ؛ وعند أقدامها يمر النهر باندفاع قوي يمنع المرور ويحتم على المسافر الصعود الى التلال ثانية . بدا الجرف مطبقا بالكلس والصخور المختلطة ، الا أن الكلس لضعف قساوته شكل الكهوف والتجاويف التي تتدلى فوقها صخور متنوعة . تعتبر هذه الكهوف مأوى للطيور والحيوانات حيث تسكن الثعالب وبنات آوى الكهوف السفلى ، بينما تسكن الصقور وزاغ الزرع والحمام الصخري في الكهوف العليا . وأعتقد بأني قد لاحظت عقاب البونلي(١) يجثم في أحد هذه الكهوف الليلة الماضية على الرغم من أنني لم أجزم بتحديد هويته .

أخذت بنا الطريق الآن فوق برزة صخرية قطعت انحناء النهر لتربط البادية بالنهر مباشرة فهبطنا منها ثانية الى السهل بعد أن تمتعنا بمناظر خلابة شاهدنا فيها من علو مناسب ... غابات الطرفاء التي تمتد لأميال طويلة يتلوى بينها النهر ليغيب في الافق البعيد ... وهناك في أسفل السهل تناثرت أكواخ طينية متداعية في منطقة تسمى « أبو هريرة » . وهذه قرية من سلسلة من القرى كانت قد بنيت بأمر من أرسلان باشا الرجل المغامر الذي حاول منذ أربع سنوات اقناع عرب العنزة بالتحول من حياة البداوة الى حياة الاستقرار والفلاحة . وكان عبثا ما فعل لأن الاكواخ لم تسكن مطلقا على الرغم من محاولة الاجبار بالقوة ؛ فالعنزة لا يرضون بحياة الفلاحين . وعند منعطف آخر من منعطفات النهر مررنا بأسراب عديدة من البط والوز والزقزاق في هور سببه الفيضان ، ومعها بضع مئات من طيور الغرة(٢) أغرانا هذا الصيد الثمين فانتزع الرقيب سليمان بندقيته دون أن يحررها من محفظتها الجلدية الحمراء واللفافات المحيطة بها ، وانحدر ليطارد الصيد خلسة الا أن طيور الغرة لا تنتظر ساكنة أمام الخطر فطارت بعيدا . تصرف سليمان بحكمة عندما ادخر الطلقات وتوقف عن اطلاق النار ، وتحسر ولفرد لأنه ترك بندقيته مع حنا مغيبة بين

---

(١) عقاب البونلي : Bonelli's Eagle من فصيلة الصقور ويعتبر من الجوارح المستوطنة في البيئة السورية .

(٢) نوع من دجاج الماء ، يرتاد الفرات خلال فصل الشتاء .

المؤن والحاجات ... وما أن مالت الشمس الى المغيب حتى وصلنا الى مساكن للولدة نصبت على حافة غابة الطرفاء ، وبقربهم عسكر خمسة وعشرون جنديا قد حلوا ضيوفاً على العرب .

طلب منا أن نترجل ونقبل ضيافة قائد المفرزة العسكرية بدلا من ضيافه شيخ قبيلة الولدة الذي توارى عن الانظار بسبب خلاف بينه وبين الضابط .

جلس الضابط على السجاد يحتسي القهوة ، ويقص علينا قصص الوحوش والحيوانات البرية التي تكثر في المنطقة وتغزو المساكن المجاورة . كان هذا رجل ككل الاتراك في المنطقة يأسف لوجوده في هذا المكان ، ويندب حظه العاثر الذي جاء به من استنبول منفيا في هذه الديار البعيدة واشتكى من العرب ، ومن الحروق التي أصابت يديه ، وذم المكان على الرغم من جماله الذي لم نشاهد له مثيلا ، وتفجع محزونا لما حل به .

تمركزت فرق عسكرية في هذا المكان ستة أشهر بعد انسحابها من الحرب ، ورحلت تاركة هذا الضابط وجنوده بدون عمل يذكر ولا يملكون أية وسيلة من وسائل التسلية الا التسلية مع النفس ، ولذلك طلب منا أن نقضي الليلة في خيمته بدلا من النوم في العراء الذي يعرضنا لهجمات السباع في الليل. فمنذ أيام افترست بغلا والتهمته في وضح النهار ، كما قامت بخطف طفل من خيمته في المنازل المجاورة . سر الضابط بوجودنا ، وعرف المسافات التي قطعناها والمتاعب التي واجهتنا حتى وصلنا الى هذا المكان .. وأخبرنا بأنه كان منعما في بلاد الترف والهناء في تركيا ، وعجب لوجوده بين هؤلاء العرب المساكين ، وأشار اليهم قائلا : لن يحلم هؤلاء التعساء برؤية جمال بلادي .

سألنا الضابط عن الحرب أو بالاحرى عن توقعات السلام . وعندما أخبرناه بأن ذلك وارد الاحتمال أجابنا بصوت حزين : ان شاء الله .. ان شاء الله وأخذ يردد ذلك لمدة ربع ساعة من الزمن . انصرف حنا لبعض شؤونه ، وأخذ ولفرد بندقيته وذهب الى الادغال ليرى فيما اذا كان يستطيع جلب شيء

للعشاء ، لأنه سمع أصوات الطيور الصياحة التي توقع أن تكون من طيور الحجل ؛ فغاب مدة طويلة حتى الغروب وسمعناه يطلق النار عدة مرات . فانتابتني موجة من القلق بعد أن سمعت قصة السباع ولم أهدأ حتى رأيته عائدا ليخبرنا بأنه تتبع الطيور الى مسافة كبيرة ووجد أنها تصيح مثل طيور التدرج(١) وتطير من أمامه لتحط في الاعشاش دون أن يتمكن من صيد أي منها . وقال : ان الغابة تعج بطيور العقعق وفي مثل هذه الادغال والاجمات يصعب التمييز بين الطيور عندما تختلط ولذلك تتل عقيقا عن طريق الخطأ بدلا من طير آخر ؛ ثم خرج الى مكان مكشوف ليستريح فطارت فوق رأسه مجموعة من دجاج الارض فاصطاد ثلاثا منها . ومن الجدير بالذكر : ان الغابة تعج ببنات آوى التي سمعناها تعوي طوال وقت المساء قرب المخيم ، ولكن ولفرد لم يسمع أويرى حيوانا بريا آخر في هذا اليوم .

أقمنا مخيمنا المؤقت تحت شجرة خارج مخيم الجنود الاتراك الذين كانوا يتسامرون ويغنون حتى ساعة متأخرة من الليل .. كل هذا مع عواء الكلاب وحنجلة خيل الجنود . كان المساء يمر بهدوء مضطرب غير مريح ، الا أننا كنا في تعب شديد جعلنا نغط في نوم عميق على الرغم من برودة الطقس . أخذنا كل شيء بالحسبان ، ولهذا فرشنا العوازل المشمعة على الارض وطرحنا فوقها السجادة التركية واللحاف القطني المضاعف ، وفوق هذا كله وضعنا لحافا محشوا بزغب العندر(٢) وسجادة تركمانية يعلوها مشمع آخر ... وبهذه الطريقة عزلنا جسمينا حتى عن الندى الثقيل .

في الثاني عشر من كانون الثاني كان الصباح مشرقا ، فطالعنا منظر بديع لقلعة جعبر(٣) ــ المكان التاريخي العريق ــ ولم نكن لنبتعد كثيرا عن المخيم

---

(١) التدرج أو طائر الفيزيان .

(٢) نوع من البط .

(٣) قلعة جعبر « جابر » حاصرها عام ١١٤٦ عماد الدين الزنكي حاكم الموصل واغتيل فيها فانسحب منها جيشه وعانت هذه القلعة من حصارات اخرى ذكرت في التاريخ .

حتى شاهدنا زوجا من الدراج يستمتعان بأشعة الشمس خارج الغابة . فاصطادهما ولفرد بمهارة . ان ذكر الدراج(١) بلا ريب هو واحد من أجمل الطيور في العالم ، ويعطي شبها لطائر التدرج والحجل الرائع الريش ... أسود اللون منقط بالابيض وظهره وجناحاه ملونان باللون الخمري ورجلاه حمراوان؛ أما الانثى فنجدها أفتح لوناً وكأنها أنثى من اناث التدرج التي فقدت ذيلها والدراج مثل التدرج يستطيع الوقوف فوق الاشجار انها بالتأكيد الطيور التي سمعها ولفرد تصيح في الليل. انتشى حنا لرؤية هذه المؤن الكثيرة فوعدنا أن يقدم لنا هذا المساء طبقا يضاهي أي طبق يقدم في بلرت ــ سافرين(٢) .

ويبدو أن الدراج يحقق حلم الشاعر الذي قال :

لوكان للحجل فخذ دجاجة الارض   لكان أفضل طائر كان قد طار

وبالاضافة الى هذه الطيور جلب ولفرد في جعبته بعض الازواج الاخرى من الطيور وثلاث أو أربع حمامات من الحمام البري ؛ واذا ما اجتمعت هذه الانواع في قدر واحد فنحن اليوم في ترف ونعيم .

---

(١) الدراج Black Francolin هو من اجمل الطيور الابدة على وادي الفرات وهو بالفعل من فصيلة التدارج أو ما يعرف بالفيزان Phasianidae وبهذا الوصف الجميل أقدر ان الليدي كانت على دراية بمبادىء علم الطيور وعموم صنوف الحيوان . الا أن الدراج الفراتي لا يحط على الانحدار مطلقا ولكن يعيش بين الادغال كالدجاج البري تماما .

(٢) منتجع انكليزي .

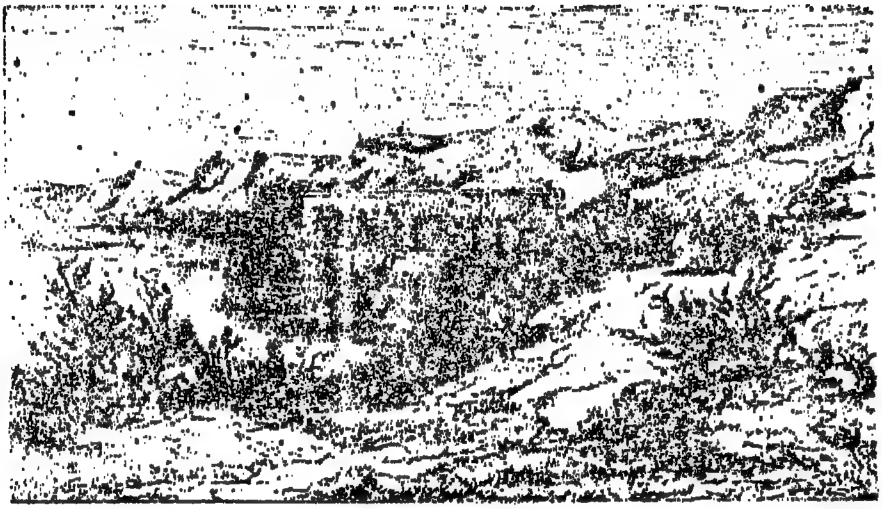

مطحنة اسلامية على نهـر الفرات

الفصل السابع

تزار اليوم السباع الجائعة
بينما يعوي الذئب في ضوء القمر

أسود منطقة الفرات ـ صيادو العفادلة ـ البدوي برهوم ـ قائمقام الرقة ـ الحمار البري ـ لهو في غابة الطرفاء ـ الحصان المدهش ـ وصولنا الى الدير ·

ركبنا اليوم في طريق ضيقة تحت الجرف محفوفة بالمخاطر بين صخور رخامية وغابة كثيفة من الطرفاء نمت فيها وتشابكت أجمات هائلة من النباتات الشوكية وصريمة الجدي التي تمتد أميالا في عمق الغابة ، وفي مثل هذه الديس والاشجار تعيش الحيوانات البرية المفترسة ، فمنذ سنوات قتل في هذا المكان بدوي اسمه فوزان افترسه أسد ضار · أسود الفرات هي من الاسود البابلية غير الخطيرة ولكن اذا وجد منها من تذوق لحم البشر فسيعتاد هذه العادة ويهاجم البشر باستمرار تماما كما تفعل النمور الهندية في الشرق ، ومثل هذه الاسود أحدثت الرعب في نفوس العرب ، وما قصة الرجل العنزي الذي أكله الاسد بغريبة عن أذهانهم · كان فوزان من الخرصة[1] عائدا الى منزله في كوكبة من الفرسان ، فلاحظ وزملاؤه أسدا يتبعهم في الطريق ، وكان فوزان الرجل الوحيد الذي يملك سلاحا ناريا بينما البقية كانوا يتسلحون بالرماح ، وبدافع من التحدي والتظاهر بالشجاعة كر على الاسد وأطلق عليه النار من مسدس كان يحمله فزمجر الاسد واختفى ، تابعت المجموعة طريقها دون أن تسرع أو أن تكترث لعواقب ما حدث ، ولكن بعد نصف ساعة من الحادث حل الظلام وسار الجمع في ممر ضيق في رتل أحادي ، وفجأة سمع الرجال

---

[1] الخرصة من الفدعان والفدعان من العنزة ·

صرخة والتفتوا الى الوراء ليجدوا فوزان قد اختفى فأصابهم الهلع ، وتصرفوا بجبن عندما فروا بجيادهم مبتعدين عن الخطر تاركين فوزان يواجه مصيره المحتوم • عادوا في اليوم الثاني ليروا ما حدث فوجدوا بقايا جثة زميلهم على بعد خمسين ياردة من الغابة • سررت لخروجنا من هذا المكان المرعب الى مكان آمن مكشوف • أصبحت ضفة الوادي عريضة ثانية ترامت فيها السهول العشبية وتناثرت فيها شجيرات الطرفاء هنا وهناك ، وفي أماكن أخرى وجدنا مساحات من الارض كانت كما لو حرثت بمحراث ، أو نبشت بواسطة الخنزير البري الذي تخبرنا آثاره في المنطقة عن وجود قطعان كبيرة منه • يحرث فلاحو الفرات الارض بانتظام الا أنهم لايحبون الخنازير لأنها تعيث الفساد في المزروعات •

شارفت الشمس على المغيب في وقت مررنا فيه ببعض الاثار الاغريقية أو الرومانية التي كانت معلمة على الخريطة بوضوح ، كانت تشبه حمامات زنوبيا ذات القرميد المسطح الاسمنتي وحولها جلاميد حرة من جدار مهدم لا زال حتى اليوم يسمى الحمام • وجدنا قرب الحمام مساكن العفادلة ، والعفادلة قوم شجعان من قبيلة(١) مغمورة اشتهروا في المنطقة باصطياد السباع • كان مخيم العفادلة متميزا ولا يشبه أيا من المخيمات التي مررنا بها في الطريق • ويصعب علينا اعتبار العفادلة من البدو لانهم لا يغادرون ديارهم ويسكنون في منازل ثابتة بين الادغال ، مجاورين النهر في غالب الاحيان ، ولا يملكون الغنم بل يربون البقر العادي وقطعان الجاموس ويعيشون على منتجاتها ، والجاموس ــ كما يقولون ــ لا يخاف الاسد ويمكنه العيش في أكثف غابات الطرفاء دونما خطر يهدده ، يذهب رعاة القطعان الى المرعى متسلحين بالرماح القصيرة والبنادق التي تصيب أهدافها بدقة •

لا يملك العفادلة خياما بدوية ، ولكنهم يبنون الاكواخ من أغصان الطرفاء التي تنسج متشابكة وهي طرية وغضة وتغطي الاكواخ بقطع من الخيام ، وبالاضافة الى هذا المعسكر يوجد معسكران قريبان على بعد مائة ياردة داخل

---

(١) العفادلة من الابي شعبان في محافظة الرقة .

الادغال ، يمكن الوصول اليهما عبر ممرات ودروب شقت بصعوبة ؛ وسيج كل تجمع سكني بنوع من الجريد والوتل ــ الاغصان المضفورة من القصب والاغصان ــ تتلوى الدروب بين الاكواخ لتشكل متاهة يصعب الدخول اليها أو الخروج منها ، وهكذا تصبح الاكواخ قرية غير منتظمة متصلة بشوارع وأمام كل منها حوالي نصف فدان أو أكثر من الارض التيأزيلت عنها الاشجار •

ركبنا الى داخل القرى قبل المغيب وبعجلة شديدة لنقتفي أثر الماشية التي كانت تخب عائدة للمبيت • وصلنا الى القرية فهرع كل السكان لاستقبالنا وكل واحد منهم يصر على استضافتنا ويعرض علينا النوم داخل كوخه ، الا أن الاكواخ لم تكن مرضية ، وفي الوقت نفسه كانت الفسحات من الارض أمامها مغطاة بأصول الشجيرات المقطوعة ، ولا يمكن النوم فوقها الا بصعوبة بينما خلت الارض من الاعشاب التي تحتاجها الخيول الجائعة ، ولا بد من تأمين الحد الادنى منها على الاقل ، لذلك قرر ولفرد النوم في العراء سواء أكانت هناك أسود أم لم تكن ، فاخترنا مكانا مناسبا لنصب الخيام على تلة مرتفعة حيث يتوفر بعض العشب وخندق مناسب يفصلنا عن الغابة ، وحالما فرغنا من مهمتنا أخذ ولفرد بندقيته وذهب في نزهة مشيا على الاقدام ، بينما انهمكت مع حنا في اعداد العشاء اللذيذ لهذه الليلة •

تعافى السيد « سكين » من وعكته وجلس يستمع الى العفادلة الذين أخبروه عن طريقة اصطيادهم للاسود : كلما سمعوا بوجود أسد ذهبوا لمحاصرته مصطحبين قطيعا من الجاموس، فاذا ما جرحوه أطلقوا عليه الجواميس لتطؤه بأرجلها حتى الموت ومما يشجع على ذلك المكافأة التي خصصتها الحكومة التركية ومقدارها ثلاث جنيهات لكل جلد أسد يتم احضاره الى الدير ، وكم من مرة حصل السكان على هذه المكافأة في هذا المكان بالذات • فمنذ أسبوعين قتلوا أسدين في وقت واحد عندما وجدوا بقرة افترسها الاسد

والتهم جزءاً منها ، كمن رجل من أهل السبخة(١) المجاورة للاسد في حفرة قرب جثة البقرة الصريعة مموها المكان بأغصان الشجر ، وجلس ينتظر قدوم الاسد ليلا ، وعند الفجر ذهب الناس لتفقد الرجل فوجدوا الاسد عند الفريسة والرجل مشدوها في حفرته .

أطلق الرماة النار على الاسد وعادوا به ميتا الى حصن صغير كنا قد مررنا به لسلخ جلده والحصول على المكافأة ... وفي اليوم التالي وبينما كان الاسد ممددا في ساحة الحصن سمعت لبوة تزأر خارج المكان محاولة الدخول الا أن الابواب كانت محكمة الاغلاق فأطلقت عليها النيران عدة مرات دون فائدة ، وأخيرا قتلت اللبوة وسلخ جلدها وجلد الاسد . قام ابراهيم الشجاع وطاف بجلد الاسدين على ظهر حماره بين القبائل ليكسب عيشه بهذه العروض المشوقة . كان الاسد من زمرة الاسود البابلية المعروفة التي تخلو من القنزعة ، وبتقديري ان هذا النوع من الاسود يعتبر من الحيوانات النادرة في العالم(٢) .

في يوم الاحد الثالث عشر من كانون الثاني طالعنا النهار بضباب كثيف ، ولم تشرق الشمس الا عند الساعة السابعة والنصف ، فأفطرنا من حليب الجاموس الذي قدمه لنا العفادلة ، وغادرنا المكان في تمام الساعة الثامنة .

لحق بنا هذا الصباح الشركسي علي بك المدير الجديد لمنطقة تدمر ، وهو في طريقه لاستلام مهام منصبه الجديد الذي عينه فيه صهره كامل باشا ، فأدركنا على ظهر حصان رمادي جميل من سلالة الصقلاوي الجدراني ، وأخبرنا بأنه قد غادر حلب بعد يومين من انطلاقنا ، وأنه أمضى الليلة البارحة في أكواخ

---

(١) السبخة مدينة صغيرة على الطريق بين الرقة ودير الزور .

(٢) قتل ركاب السفينة التجارية الانكليزية التي كانت تبحر في دجلة بين بغداد والبصرة منذ ثلاث سنوات ثلاثة من هذه الاسود ، وعندما جرح احدها نزل الى الماء وحاول الصعود الى ظهر السفينة المبحرة في دجلة في منطقة لا تذكر فيها الادغال .

العفادلة التي مررنا بها • انه المسافر الصادق الوحيد الذي شاهدناه في الطريق لأن وصفه للاكواخ جاء مطابقا لما شاهدناه بالامس •

سرنا قليلا في البادية ومنها لاحت لنا معالم الرقة المكان المأهول بالسكان بعد الجبول التي مررنا بها ، وكنا نتوقع أن تكون الرقة مدينة كبيرة لأنها كانت في الماضي كذلك ، ولكنها اليوم نصف مسكونة ، وتنتصب على الشاطىء المقابل للنهر في المنطقة التي تمتد نحو العراق ولا يمكننا الوصول اليها الا عبر معدية على بعد ميلين من المكان الذي نسير فيه ، ولم نكن نرغب بالعبور ولكن سليمان كان متحمسا ليرينا فرسا أصيلة لها سمعة طيبة في المنطقة ، ولهذا تركنا الخيول مع أحد الدرك وركبنا المعدية الى الطرف الاخر للنهر في مركب غير عريض بدا لنا كسفينة نوح التي شقت تصفين ، طفنا في نهر عرضه ربع ميل، ونبغي الوصول الى بلاج متحدرعلىالشاطىء بهدوء وهو أمر نادر على جوانب النهر • وبوصولنا توقعت أن نمشي باتجاه المدينة سيرا على الأقدام لكن سليمان ــ كونه من الضابطية ــ هيأ لنا فرسا ومهرا وجعلهما في خدمتنا ، الا أن ولفرد فضل السير ماشيا فاصطاد في طريقه عددا لا بأس به من الدراج

حالة عدم الرضا ، ومن دون أن نكون أصدقاء ، لأنه كان غيورا من الود الذي أحطنا به الشيخ مشهورا ، وغيورا من الهدايا التي قدمناها اليه • فقد ألقى خطابا طلب فيه من السيد « سكين » أن يستحي مما فعل ، بينما كنا قد وعدناه بعباءة تناسب مركزه كشيخ حالما نقدر على شراء واحدة الا أنه لم يكن راضيا • وأنا آسفة لأن السيد « سكين » كان عليه أن يرد له القول : انك وطلبا لك لا تعبر عن مستوى يزيد عن مستوى الفلاح العادي •

كان من الممكن لمشهور أن يلتزم جانب عمه ، ولكن بطينا لم يهدأ • وبالتالي وصلت المفاوضات معه الى طريق مسدود ، الا أنني كنت مشغولة بالفكرة الكريهة التي صنعت لنا عدوا في البادية ، وقد يكون الوحيد في كامل الرحلة •

أسرعنا قليلا عن الركب ، وابتعدنا لنرتحل مع طلائع جماعة ولد علي الذين كانوا يغذون السير نحو الآبار مع أغنامهم ، التي مضى عليها يومان دون أن تشرب • كان رعاة ولد علي أقسى من رعاة السبعة وينقصهم الادب ، ولو كانوا يتوقعون الجبن فينا لعدو علينا • ولكننا كنا نركب بشكل جيد ، وبأيدينا أسلحة . ولم نعد نخشاهم بينما أخذت الارانب البرية تقفز من السهل بعد أن اكتسحته الاغنام والفرسان والجيش الكبير من الابل ، الذي كان يثير الطرائد من مكامنها ، وكانت الكلاب تتبع الارانب . كما أن ولفرد قام بمطاردتها واصطاد اثنتين منها على ظهر فرسه هاجر التي كانت منتعشة ثانية . على الرغم من الحرارة وندرة الماء ، ونستمتع بعدو مذهل • كنا نسير طوال اليوم باتجاه السفح حيث يقال بأن البئر هناك ، وعندما نفذ صبرنا أسرعنا الخطا لنكون في مقدمة جيش العنزة الذين كانوا يسيرون كالجراد ، حيث غطت مسيرتهم عشرة أميال عرضا قاضمة كل شيء أخضر تجده أمامها •

الاعشاب قليلة في هذه المنطقة على الرغم من مرورنا بأودية تحتوي على أعشاب جيدة ، وبعدها أخبرنا بأننا سنرى برجا مدمرا توجد الآبار قربه . ولهذا اندفعنا حتى أصبحنا وحدنا تقريبا ، ومسيرة أيامنا الماضية قد تكون بحدود الاربعين ميلا •

وصلنا في الساعة الثالثة والنصف الى الظل الجميل للاثار ، الى أول بناء نراه منذ أن تركنا منطقة أرك . ويبدو أنه كان ديرا في يوم من الايام التي كانت فيها تدمر مدينة عامرة ، لأننا رأينا الصليب محفورا فوق العتبة الصخرية العلوية للبوابة ، واكتشفنا حجرات وأساسات الكنيسة . فلا بد وأن تكون منذ ذلك الحين مكانا منعزلا على الرغم من أنها تقود الى الطريق السفلي من تدمر الى دمشق . ولم تخل من آبار جوفية تحتوي مخزونا جيدا من الماء ، لأننا يمكن أن نقتفي آثار الحقول والبساتين القديمة في الوادي ، التي كانت تسقى من هذه الآبار . أما اليوم فهي كلها مهجورة الا من زوج من الحمام الصخري وبعض طيور العوسق . وكان البرج مربع الشكل بني بحجارة منحوتة جيدا على غرار الابنية القديمة في تدمر ، والتي لا تبعد سوى اثني عشر أو خمسة عشر ميلا .

وبالطبع كان محمد يعرف المكان جيدا ، ويدعو البرج بقصر حازم ويدعو الآبار بالسكري وهذه الابار عميقة ، ولهذا أجهدتنا ونحن ننضح الماء منها حتى وصول الجمال التي كانت خلفنا . وبينما كنا ننتظر تحت البرج المتهدم ، ونحن نكاد أن ننام ، سمعنا حداء حربيا للعرب . وعندما نظرنا الى مصدر الصوت شاهدنا فارسا يخب فوق التل خلفنا والرمح بيده ، فارتبكنا لحظة خوفا من أن يكون من الاعداء . لقد جاء وحده وسرعان ما عرفناه من صوته . انه مشهور على ظهر فرسه الرمادية ، جاء ليودع أخاه ، ويتمنى له حظا سعيدا . وكنا مسرورين لرؤيته ثانية ولأنه أبدى شعورا طيبا بتركه قومه ليقوم بزيارتنا ، ولأن القبائل قد توقفت على بعد عدة أميال من البئر . وعندما سألناه عن فرسه قال : انها من سلالة الهدبة السريعة جدا ، وصدقنا ذلك لأن الفرس كانت وسيمة جدا ورشيقة الحركة . تبلغ الفرس الثانية عشرة من عمرها ، على الرغم من ذلك لا يظهر عليها ، وكما قال كانت ترعى باشرافه ولم يفترق عنها أبدا ، وكان يستطيها عندما قتل جدعان ابن شعلان في العام الماضي ، وهنا توسل من ولفرد أن يأخذها هدية فهي كل ما يملك ويستحق الاهداء الا أن ذلك بطبيعة الحال لن يكون . وفي هذه الاثناء وصلت الجمال ؛ وبينما كانت الخيام

تنعب نشبت مشاحنة مخيفة بين الخدم ، وكان المتنازعان الرئيسان غانم وفرحان اذ وصل بينهما الامر الى درجة الضرب . وقبل أن تتدخل اندفع مشهور وفصلهما عن بعض دافعا غانما الى الوراء ، وهو يسحب مديته في منظر بشع . وعندما نظرنا في سبب القضية اتضح أن فرحات قد مل من عبء العمل كله في قيادة الجمال ، وقد أسخطه أخيرا ركوب غانم على ظهر الفرس الكستنائية ، بينما كنا نغيب عن الانظار لمطاردة الغزال على الرغم من آلام الظهر التي تعاني منها . وبالطبع انحاز الخدم المسيحيون ضد غانم ، الا أننا لم نأبه للامر ، بينما طلب ولفرد من فرحان أن يقسم على صحة ما قال ، وعندها اعترف غانم بما فعل ، فأخبره ولفرد أن يغادر المخيم فانصرف غير بعيد في غضب وجلس ساعة أو أكثر على قنة البرج ، ولكنه نزل بعدها وتوسل الي أن أشفع له . وتكلم مشهور لصالحه . وبما أننا حقا كنا نحب الولد وافق ولفرد على أن يسامحه شريطة موافقة فرحان ، وأن لا يعود لمثلها . وفرحان رجل طيب القلب وافق في الحال وأعطى غانما وعدا بالطريقة المعتادة : على رأسي . وهكذا انتهت القضية .

أنا مسرورة لأنها المشاجرة الوحيدة التي حصلت في الرحلة .

قدمنا لمشهور كل ما نستطيع من كرم الضيافة، اذ تناول معنا طعام العشاء. ولكنه لن يبقى هذه الليلة معنا ، لأنه من الخطورة بالنسبة له أن يبقى بعيدا عن قومه بسبب ضغينة الدم التي بينه وبين ابن شعلان . وعندما هم بالعودة أعطيته مدية ذات قبضة فضية على سبيل الاحتفاظ بها كهدية ، وأخبرته بأنها تعود الى جدي وقبله كانت لجدي الاكبر منه ، فقدرها كثيرا ثم امتطى فرسه وعاد يخب راجعا من حيث أتى . انه فتى شجاع دافىء القلب . واذا لم يدركه قدره في الحروب وضغائن الدم فانه سيكون رجلا ذا شأن في يوم ما .

سحبنا الماء من البئر . فكان مذاقه في البداية كمذاق البيض الفاسد والكبريت ، الا أنه يتحسن عندما يلامس الجو ، ويبدو أن كل الماء كذلك .

ودعنا قبيلة السبعة ، وأدرنا رؤوسنا ـ كما تقول العرب ـ باتجاه الوطن. عندها أعلن ولفرد بأن اللحظة قد حانت لنقرأ رسائلنا ، لذلك غادرت وأنا وجله مرتعشة بسبب هذا لأننا كنا بانقطاع كامل عن أخبار الوطن منذ العشرين من تشرين الثاني أي منذ حوالي خمسة أشهر .

* * *

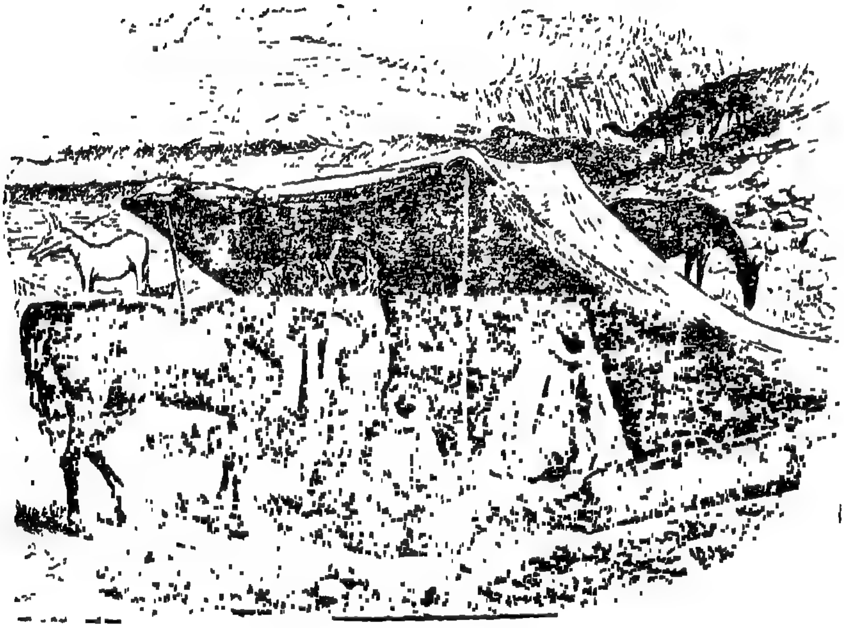

خيمتنا في سفوح جبل الحرمون

الفصل الحادي والعشرين

تحترق الارض .. وكل الحصى تحت الأقــدام !
وكــل حي صامد بقوة رغم الجراح .
والرمال البيضاء تمور حتى لم نعد نسمع فوقها وقع
الاقدام ... اقدام الابل التي تضرب الارض بصمت
وكأنما تطأ الهواء بدلا من الارض .
وحتى ظلال الحيوانات اختفت وتراجعت نحو
الخلف ظهر هذا اليوم .. النار حولنا ...
اسفل منا بينما لهيب الشمس يصلينا من
فوق الرؤوس .

السير تحت الشمس المحرقة ــ ولد علي وأغنامهم ــ وصلنا الى مخيم الرولة ــ مائة وخمسون ألف جمل ــ سطام ابن شعلان في استقبالنا ــ مقابلات دبلوماسية ــ زوجة سطام ــ العطفة ــ اختبار لمحمد ــ وداعا أيتها البادية .

في الحادي عشر من نيسان كانت كل الاخبار سارة والحمد لله . ويمكننا الآن متابعة الرحلة بسرور حتى النهاية، وكلنا أمل وشوق للوصول الى الوطن.

غادرنا بئر السكر هذا الصباح في اللحظة التي بدأت فيها قطعان ولد علي بالوصول . يا للمخلوقات المسكينة التي كانت تعاني من شح الماء ثلاثة أيام متواصلة ، وقد مشت بصوفها الشتوي الكثيف خمسين ميلا تحت الشمس المحرقة. ولم تتوقف طويلا لنتحدث مع الرعاة، ولكننا شققنا طريقنا باتجاه الجنوب الغربي الى دمشق ، وكل شخص صادفناه يؤكد بأننا سنلاقي الرولة لا محالة في الطريق ، أو على الاقل جماعة من الصلبة الذين سيخبروننا عن مكان الرولة. ولم يكن محمد يملك معرفة أكيدة للمنطقة أكثر من عدة أميال وكذلك العبد الاسود الذي كلفه مشهور في خيمة بطين بحمايتنا كان يعرف بعضا من الطريق.

أخذنا طريقا في واد بين سلسلتين بارزتين ، وعند الساعة التاسعة مررنا

بخان مهدم على الطريق القديم لتدمر ، أطلق عليه محمد اسم خان حلب ، وكانت الارض مغطاة بنبات قرمزي من شقائق النعمان والبابونج الابيض والاصفر وأزهار السوسن ، وأزهار نجمية وردية أخرى تزاحمت وكأنها أزهار نمت في حديقة •

وأخيرا توقفنا لقضاء الليل في مسيل مائي جاف غطته الاعشاب الكثيفة ، وتصدح فيه طيور السماني • ويمكنني سماع صوت وقواق يجثم على شجرة بطم في مكان غير بعيد • والبطم(١) أول نوع نباتي نراه في البادية يماثل أشجار الدردار ، وهو معروف وشائع على طول الوديان الجافة في البوادي ، ويطلق عليه السكان اسم البطم في هذه المنطقة •

جاء المساء بموجة حر ثقيلة جدا ، بينما بدا غانم يغني على ربابته أخبار حرب الشعلان بعد أن قطعنا في مسيرة هذا اليوم حوالي ثمانين ميلا • وبعد أن نزلنا هذه الارض تسلق محمد قمم الجبال على يميننا ، وعاد بأخبار يقول فيها: انه رأى نيران معسكر خلفنا •

في الثاني عشر من نيسان طالعنا صباح حار آخر بشكل رهيب ، الا أن رياح الشمال الغربي هبت عند الظهر لتلطف حرارة الشمس ، وكان ذلك من حسن حظنا لأنه يتوجب علينا أن ننتظر ساعتين عند البئر دونما ظل نحتمي به•

لحق بنا رجلان يمتطيان جملا عربيا هذا الصباح ، أرسلهما مشهور لكي يدلانا على الطريق ، وهناك بعض الرولة كانوا في مضارب السبعة والفدعان يلتمسون الرضى لزوجة شيخهم التي آثرت العودة الى بيت والدها جدعان • وكم كنت أعجب من هؤلاء الرجال ومن درجة التسامح الفردي بين البدو حتى في زمن الحرب !•• ان هؤلاء الرجال كانوا يقيمون عدة أسابيع في خيمة

---

(١) نبات البطم كان يغطي مساحات كبيرة من الجبال التدمرية ، وكان ينفع بخشبه وعصير تمره المشابه لزيت الزيتون . كان الاعراب واهل سلمية يحتطبونه بشكل جائر ، وفتكت به مناشير عمال شركة نفط العراق عام ١٩٣٠ حتى لم يعد يذكر في المنطقة .

جدعان في اللحظة نفسها التي كان فيها سيدهم ابن شعلان يتقدم ضدهم ... وعليّ أن أقول : ان البدو أحرار في حالة السلم والحرب ويبدو أن الرجال قد عادوا دون أن يحققوا شيئا ، وأظن أن دعوتهم بهذه الطريقة كانت بحجة المحافظة على السرية ، على الرغم من أن الاستراتيجية البدوية كما هو الحال في السياسة البدوية لا توجد فيها أية احتمالات للسرية • فكل فرد في القبيلة له الحق بمعرفة كل ما يحدث وسماع الدعاية لكل ما يجري ، وباعتبار أنه لا جدوى من محاولة اخفاء الحقيقة فلا يوجد خوف من وجود الجواسيس . ولم تكتشف أية محاولة من هذا النوع سابقا •

كان العبد الاسود مريضا جدا ويستلقي في حالة متراخية على ظهر جمله. ورأسه يتدلى على كتف الجمل يلفحه وهج الشمس بشكل كامل ، وهذه هي الراحة التامة التي يتوقع العرب الحصول عليها عندما يصادفهم المرض على ظهور مطاياهم ، اذ ينامون في هذه الوضعية دون أن يسقطوا الى الارض • وعند البئر كذلك لحقت بنا جماعة من ولد علي تسوق أمامها مائة أو أكثر من الاغنام والحملان لكي تباع في دمشق بمناسبة قدوم العيد •• انني لا أعتقد بأن الكثير منها سيصل حيا الى هناك ، لأن مؤشر الحرارة أخذ يرتفع بشدة • وهم يجبرون أنفسهم على المسير في وقت أخذت الحملان الجيدة تموت ؛ فأعطونا حملا سررنا بأخذه لأن المؤن نقصت في رحالنا بشكل واضح•وعندما يرى الرعاة أن الحمل لا يمكن له أن يسير معهم مسافة أطول يقطعون رأسه ليصبح لحمه حلال الاكل ، بينما يحرم فيما اذا مات دون تذكية •

كنا سنجد البئر بسهولة لو لم يكن الرولة معنا ، لأنها تقع في مكان خفي لم يستخدم هذا العام ، كما أن الطرق الموصلة اليها معدومة • كانت البئر بعمق ستين قدما قسناها بحبل كان معنا الا أن ماءها عذب حلو ، وتسمى ببئر « البوصيري » • شربت منها الاغنام والخيول حتى ارتوت ، وحتى فرسي التي عرفت فيها الاعتدال في مشربها لم ترض بأقل من أربع قرب •

أصر رعاة ولد علي على مرافقتنا طمعا بالمرور عبر ديار الرولة تحت

حمايتنا، الا أن محاولتهم بالمرور كانت بالنسبة لي لغزا محيرا، لأنهم يصطحبون بالاضافة الى الاغنام خمسة عشر جملا وفرسا جميلة المنظر معها مهرها ، ويبدو أنها من غنائم الحرب المحللة عندهم •

الثالث عشر من نيسان لم تخف درجات الحرارة ، والاغنام تسير ، وألسنتها تتدلى خارجا اذ لم تعد الحيوانات المسكينة تتحمل درجات الحرارة• وكان أصحابها قد جزوها طمعا بانقاذها وعندما انطلقنا مررنا بتلين عاليين : كوكل الى اليمين والرماح الى اليسار ، ولهذين التلين قصة شعبية عند البدو تقول : يوجد رجل محارب قديم يشتهر برمي الرمح حتى لقب بالرماح عاش على هذه التلة ، ويملك زوجة على الهضبة المقابلة ، وزوجة أخرى على هضبة ثالثة ، وكان اسم الزوجة الاولى كحلة • لأنها كانت تكتحل بالكحل والثانية عادة ، وكانت عادة أحب زوجة اليه ، وتتشاجر مع كحلة حتى ضاق رماح بهما ذرعا . وفي ساعة غضب جعل رمحه يخترق الزوجتين دفعة واحدة ، وهنا توقف الرولة بغباء ، وقال راويتهم : انه نسي بقية القصة •

قمنا اليوم بمسيرة ناشطة قاطعين ثلاثة أميال ونصف الميل في الساعة ، وقد ضللنا رجل من الرولة بتأكيداته أنه يعرف أصدقاء له في المنطقة • وفي مكان قريب من هنا وعند الساعة الثانية وجد ولفرد حفرة في الصخر الكلسي تحتوي على بضع قرب من الماء شربته الخيول ، ومن ثم وصلنا الى جماعة من الناس تملأ القرب من حفرة كبيرة مماثلة على بعد ميل آخر ، وهكذا مضت على مسيرتنا ثماني ساعات ، ولا بد من أن نكون قد قطعنا ثلاثين ميلا • وعلى الرغم من أن الرولة حقا الآن على مقربة منا الا أننا توقفنا في واد جميل مليء بالعشب ، لنرسل غانما مع رجلين على ظهر ذلول ، لكي يعلن وصولنا في خيمة ابن شعلان بناء على نصيحة القنصل صونا لكرامتنا • وقد سررت لتوقفنا في هذا المكان لأن الجمال والخيول سوف تنعم بوجبة عشاء كافية لذيذة ، ولأن مخيم البدو اذا ما أمضى ليلتين في مكان واحد ، فانه يأكل كل شيء حتى تصبح الارض رفعة جرداء ، ولهذا سيعاني الضيوف غير المتوقعين من نقص الاغذية

لطاياهم .. قتلنا حريشا في الخيمة بطول ستة انشات ، يدعوها غانم بأم أربع وأربعين نظرا لأرجلها المتعددة .

وصل الينا اثنا عشر أو أكثر من فرسان الرولة قادمين من مضاربهم القريبة عند أعلى تلة منخفضة ، وكانوا في سرور لنجاح غزوهم ؛ لأن ابن شعلان عاد البارحة وهم يقتسمون الغنائم هذا اليوم ... قدمنا لهم القهوة كواجب من واجبات الضيافة ، ومن سيظنون رعاة ولد علي ؟ كبير ضيوفنا الجدد رجل يدعى « أبو جديلة »(1) سأل عما يكون هؤلاء ؟ وفيما اذا كانت الاغنام لنا ؟!. فقلنا : انهم من رفاق الدرب الذين لحقوا بنا ، والاغنام ليست لنا وليس لنا أن تتدخل ، ولهذا توقعنا حصول غارة سريعة ، لأن الرولة هم في حالة حرب ولهم كل الحق بأخذها غنيمة . لكن أبا جديلة ضحك فقط ، وقال : لقد اكتفينا وشبعنا جميعا . وهم هنا بمأمن من أن يتحرش بهم أحد .

عاد غانم ليرد الكلمات التي قالها سطام ابن شعلان عندما سمع بقدومنا من السبعة : هل أحضروا زوجتي معهم ؟ وعلى كل حال أرسل رسالة شفوية ليرحب بنا ، ويعتذر عن عدم قدومه لرؤيتنا بسبب التعب ؛ وخيمته لا تبعد عنا أكثر من ثمانية أميال .

يوم الاحد في الرابع عشر من نيسان شاهدنا أجمل منظر طبيعي يمكن أن يشاهد في البادية انه مخيم الرولة الذي وصلنا اليه فجأة ، بعد أن عبرنا سلسلة منخفضة في أرض مرتفعة وأشرفنا منها على سهل صيقل المترامي الاطراف والذي انتشرت فيه على مد البصر خيام لا تعد ولا تحصى ، وفيها الرجال والخيول والابل ، وعلى بعد عشرة أميال امتدت بحيرة صيقل التي كانت بيضاء لامعة تحت الشمس . الا أن المسافة التي بيننا وبينها قد شغلت ؛ وكان هناك بعد متساو لكل أجزاء المخيم شرقا وغربا عن مكان التجمع وقد قدرنا عدد الخيام بعشرين ألف خيمة ، والجمال بمائة وخمسين ألفا ، وشعرت

---

(1) ابو جديلة يملك افضل سلالة من الخيل المعنقية ، حتى انها تفضل على سلالة ابن سبيل .

برهبة وخوف لهذا البحر الهائج من البشر ، كما لو كنت أشاهد البحر أول مرة ، لأننا لم نكن قد شاهدنا كل هذا الحشد من الخيام من قبل •

وربما كان السبعة وأحلافهم أكثر عددا ، ولكن ليس لديهم ربع ما في مخيم الرولة من الجمال التي لم نر مثلها في أي مكان آخر ، وهذا ما أعطانا فكرة كبيرة عن الحجم الحقيقي لقبيلة الرولة مجتمعة ، وأخذنا نكتشف ذلك ونحن نرتحل بخطاً عادية ، وقد أمضينا ساعتين قبل أن نصل الى خيمة سطام التي كانت تقوم وسط المخيم •

لم تكن هناك أغنام باستثناء ما شاهدناه منها على المنحدرات والتلال ، وقد صعقنا للعدد القليل من الخيول بينها • ويبدو أن الجمال هي كل شيء عندهم ، وأخذنا نعد القطعان التي مررنا بها قطيعا بعد قطيع •• مائة •• خمسمائة وحتى الالف ، وكانت الخيام أصغر من خيام السبعة باستثناء خيمة الشيخ التي كانت رائعة وتقوم على تسعة أعمدة ، وربما تطاولت الى مائة قدم من طرف الى طرف آخر • وأما عن الراحة التي يجدها المرء فيها فينقصها بعض الشيء كغيرها من الخيام ، وكل ما تشاهده فيها من أثاث قطعة من « السجاد » وبضعة سروج أو قتب الجمال ، بالاضافة الى وعائين عاليين للقهوة ، ومحماس للقهوة بطول ياردتين يرتكز على عجلات ، وربما تجد في الخيمة مائة رجل في حالة جلوس • استقبلنا رجل في الثلاثين من عمره ، ووجهه يميل الى اللون الاسمر ، نقط بآثار الجدري ويضع على رأسه منديلا ورديا • وحالما ترجلنا كان من الصعوبة أن نتعرف عليه فقد كان سطام ابن شعلان شيخ الرولة •

ان عائلة ابن شعلان على الرغم من أنها لا تعد من ذات الاصول البعيدة تملك أكبر ارث عائلي في البادية • ويحق لسطام بحكم مولده أن يتباهى بحكم شعب يبلغ تعداده عشرين ألف نسمة على الاقل ، وبامكانه أن يقود خمسة آلاف رجل في ساحة المعركة • وكيف يمكن لعائلة أن تكسب مركزا وهي ليست قادرة على اكتشاف الماضي الا أنهم لا زالوا يحتفظون به الآن منذ عدة أجيال ، وحتى اليوم لا زالت المشيخة متوارثة بينهم • علما أنها لم تدم طويلا عند آل الطيار وآل الجندال •

لم نجد مثل هذا عند قبائل العنزة الاخرى ، لأن كل مجموعة يرأسها شيخ منفصل • ومركز جدعان بينهم ما هو الا من قبيل النفوذ الشخصي فقط • ولم نجد مثيلا لعائلة الشعلان الا عائلة الجربا في الجزيرة ، الا أن الرولة من حيث القوة والثروة تفوق التمريين كثيرا ، ومع هذا كله لم أجد لسطام سطوة كبيرة بين قومه • ومن السهولة أن تراه ضعيفا في اتخاذ القرارات ، وانما هو مجرد ألعوبة بين أيديهم ، حتى انه لم يكن القائد العسكري أو العقيد ، وهو لن يفشل في هذا المجال لو كانت لديه الصفات الضرورية للقيادة • كان عقيد الرولة رجلا عجوزا من المعجل ــ فرع من القبيلة ــ اسمه حمود ؛ وهو نفسه الذي قاد الغزو على السبعة في ذلك اليوم وليس الشيخ سطام ، على الرغم من أن سطاما كان ضمن الجماعة •

كان استقبالنا في خيمة سطام مؤدبا لطيفا ، الا انه لم يكن حميما بصورة خاصة ، لأن سطاما كان يتذمر من التعب والارهاق ، لأن حملة الغزو قد أنهكته ، فتركنا وحدنا طيلة اليوم • وعند الظهر جاء الشيخ حمود ــ عقيد القوم ــ لزيارتنا وانتهزنا الفرصة لفتح باب المفاوضات معه في موضوع مهمتنا الدبلوماسية التي كلفنا بها جدعان ، وهو ما يهمنا كثيرا، ولدينا بعض التعليمات والشروط التي حملها جدعان لعبد الرحمن الحلبي ــ دكتور الشريعة ــ الذي كان يرافقنا ويملك صلاحية مطلقة في القضية على أن ترتب الامور على الشكل التالي :

١ ــ الاسراع بعقد الصلح •

٢ ــ كل الخسائر في كلا الطرفين تعتبر منتهية •

٣ ــ يجب على ابن شعلان أن يسحب ادعاءه بمراعي حمص وحماه •

٤ ــ يستقبل السبعة الرولة ضيوفا في أعالي البادية لأنها تتسع لهم جميعا •

اقترحنا شروطا لطيفة جدا على سطام وعلى العقيد في ظهر هذا اليوم ، ودعمناها بمناقشات وشروح مناسبة • أخبرت الشيخ سطاما : ان رجلا مثله في هذه المكانة العظيمة عليه أن يضرب لقومه مثالا في الحكمة ، وألا تجرفه

شهوة المجد المجردة التي تجعل كثيرا من الناس العاديين حمقى لا فائدة منهم ، وعليه أن يعرف أن حربا كهذه بلا هدف بين قبيلتين من العنزة ستكون ماحقة للطرفين ، وأن الابل التي غنمها اليوم سوف يخسرها غدا ، لأن الحرب كر وفر، ولن ينتفع فعلا من هذا النزاع سوى الاتراك أعداء الجميع ، وعليه أن بدرك الامور بحكمة خيرا له من أن يكون ألعوبة بأيدي الباشوات •

وافق سطام في البداية على كل ما قلناه ، معترفا بأن الحكومة التركية منذ البداية كانت هي الملامة على تفجير هذا النزاع، الا أنه أصر على أن الحرب يجب أن تستمر ، لأن قومه يرغبون بها ولا يستطيع السيطرة عليهم ، بينما العقيد العجوز كان يسيل الى السلم لأنه طاعن في السن ومن النوع المجرب الذي شهد الحروب الكثيرة ، ويعرف المنافع القليلة والامجاد الضئيلة التي تأتي بها الحرب الا أنه من عادته أن لا يقرر مثل هذه الامور في القبيلة ، ولكن يقودهم نقط عندما يختارون القتال • أما بالنسبة للباشوات فمن المستحيل التعامل معهم بدون تقديم الهدايا • وباعتبار أن القبيلة ترغب بالقيام بالمبادلات التجارية والمنافع مع المدن ، فلا يسكن تحقيق ذلك بدون الدفع المجزي • الليدي : ماذا لو اتحدت قبائل العنزة ؟ عندها لن يكون للشيوخ الحق في ارسال الهدايا للباشوات ، وسطام بدلا من أن يرسل الخيول الى حماه فانه سوف يتلقى المنح الحكومية وأثواب الشرف • ونزاعات العنزة أفقدتها السيطرة على المدن التي اعتادت أن تدفع لهم الجزية • الا أن الاتراك يستأثرون بها بطريقتهم الخاصة وجنبوا أنفسهم القتال لأن الرولة تمارسه بالنيابة عنهم •

سطام : لا يفهم قومي مثل هذه الاشياء ، ويرون الربح الوفير في بقائهم أصدقاء للحكومة وتنفيذ كل ما يقوله الباشا لهم •

الليدي : هكذا اذا شنوا الحرب على اخوانكم ! وستندم على ذلك في يوم من الايام عندما يطردكم الاتراك جميعا الى نجد من حيث أتيتم •

سطام : لا أستطيع فعل الا ما يرغبه قومي • فهم يريدون سهول حماه مراعي الابل التي ازداد عددها والحمد لله وتضاعفت في السنوات الاخيرة . والحماد لا يتسع لكل القبائل •

الليدي : السبعة تقبل استقبالكم ضيوفا في أعالي البادية ، وهناك متسع للجميع .

سطام : نعم . ولكن الاتراك لا يرغبون في أن نعقد صلحا .

كانت تلك قصتنا مع سطام . وقد بدا فيها ضعيفا في قيادة قومه ، ومع ذلك فقد وافق العقيد على أن يتدارس القضية مع الرؤساء الاخرين للقبيلة . وجلسوا فعلا على شكل حلقة على الارض على بعد مائة ياردة . مجتمعين لمناقشة المقترحات .

استقبلنا بالاضافة الى العقيد وسطام عددا لا بأس به من الزوار في خيمتنا وكل أحاديثهم كانت تدور حول الغزو الذي يعتبرونه ناجحا جدا . فقد غابوا خمسة أيام فقط وساروا ثمانين ميلا في اليوم الواحد ، ورحلة العودة كانت بطيئة لأنهم كانوا يسوقون الجمال المأسورة ، ونيرانهم بالطبع هي النيران التي كان محمد يراها من فوق تلة البوصيري .

كنا في دهشة من أن نسمع بأن الرولة وهي في أوج قوتها لا يمكنها أن تجند أكثر من ألف فارس في حملة من هذا النوع ، ولكنهم فلسفوا القضية بمفاهيم أخرى : فهم كانوا يديرون القتال بطريقة حديثة وفعالة . فبدلا من الخيول كان معظم فرسانهم يركبون الابل ، ويجلس كل اثنين ظهرا لظهر على كل ذلول ، وبأيديهم الاسلحة النارية . وهذا النوع من المشاة المحمولة يدعى « السقمانية » . ويمكن لهم تجنيد أربعة آلاف أو خمسة آلاف محارب بهذه الطريقة ، والقليل منهم رافق الغزو كنوع من فرق الاستطلاع ، ومنهم الرجال العشرة الذين صادفناهم يجثمون في الوادي في اليوم الذي وصلنا فيه الى جدعان ، كانوا دون أدنى شك جماعة منهم ، أرسلوا للتجسس والحصول على الاخبار وتحديد نقاط الضعف عند السبعة .

كل الجلاس اليوم ينتشرون في السهل ، ولم يحدث مثل هذا منذ عشرين عاما ، كلهم هنا باستثناء خمسمائة خيمة بامرة طلال ابن عم سطام بن شعلان الذي تشاجر مع الشيخ لأسباب عائلية تتعلق بالزوجات ، والذي تخلف عنهم

قرب جبل شمر هذا العام • ومهما قيل يصعب علينا تحديد العدد الحقيقي لخيام الرولة ؛ لأن بعضهم يقولون : انها خمسة آلاف ، وبعضهم الآخر يقول : انها عشرون ألفا • وعلى هذا الاساس يبدو ليست لديهم فكرة عن الاحصاء وكثيرا ما كانوا يبالغون . الا أن ولفرد قال : ان الرقم العشرين ألفا هو العدد التقريبي لهم . والخمسين ألفا بعد المائة يبدو أنه العدد المنصف لجمالهم •

ان الالف جمل التي أسرت هذا الاسبوع أخذت تقسم بين الذين اشتركوا في الغزو ، ويمكن تمييزها من الاغلال التي وضعت في الاقدام الامامية لكي لا تشرد الى أهاليها من جديد •• وشاهدنا في المخيم ابلا سوداء كثيرة من ابل نجد التي كانت مهزولة وأصغر حجما ، وتعطي حليبا أقل من الحليب العادي ولا يفضلها البدو كثيرا • وصل الينا بين الوافدين ابن سطام الصغير برفقة مربيته • انه منصور الصغير ، وهو في عمر الاربع سنوات ولد جميل جدا بخدود ريانة وردية وبمزاج ودي شجاع ، اذ لم نجد فيه الخجل الذي نجده عند الاطفال الاخرين ، حيث مشى عبر الخيمة وحده كي يقبلني •

عاد حمود مع عبد الرحمن لكي ينقلا الينا أخبار مجلس الحرب الذي نشك في نتائجه السلمية على الرغم من عدم وضوح أي شيء حتى الآن •

يبدو أن الشيخ سطاما كان قد استلم رسالة من جودت باشا الوالي الجديد لدمشق(١) ونودي على عبد الرحمن ليقرأها •• كانت الرسالة جافة ؛ تأمر الرولة بالابتعاد عن الشمال هذا العام ، وانتهت بكلمات تقول : اذا كان لديك ما تقوله لي حول هذه النقطة فاني على استعداد لأن أراك في دمشق ؛ وسأصغي اليك برحابة صدر •

اعتبر سطام وكل شخص غيره هذا الكلام مأخذا على الباشا وكلاما شاذا لا يتوقع صدوره من مثله • وهنا سرت أقاويل : بأن الباشا الجديد جاء جائعا ويريد حصته من العطايا لذلك يستعد سطام للذهاب الى دمشق يوم غد محملا

---

(١) جودت باشا (١٨١٣ — ١٨٩٤) : سياسي عثماني من ولاية الطونة ، تقلد عدة مناصب حكومية ووصل الى مرتبة وزير . له مؤلف في احوال الدولة العثمانية يسمى تاريخ جودت .

بالهدايا . وهو أكثر تصميما للاستمرار في لعبته مع الاتراك ، ولهذا رأينا انه من العبث أن نحاول ونقنع سطاما بالخطر التشخصي الذي يتهدد ابن شعلان هناك ، ولأن الشيوخ وأصحاب المقام العالي البارزين فقط هم الذين في منأى عن الخطر في غالب الاحيان . اجتمعنا مع سطام أخيرا وجربنا كل ما تبقى لدينا من نصائح ، فأصغى لها بأدب بالغ . والتمس بتواضع أن نعذره لأنه لا يستطيع أن يفعل شيئا نرغبه ويخالف رأي القبيلة ؛ وقال : انه لم يتشاجر مع جدعان . ومع ذلك فقد تركته زوجته ، وأن السبعة قد عانت من الحرب أكثر من معاناة قومه في الحرب ، ولكن عليه أن ينتظر ويرى أي طريق يحب الرولة سلوكه . فهم اليوم يكلفونه بهذه الرحلة الشاقة الى دمشق لأنهم لا يستطيعون البقاء في أماكنهم الحالية ، لأن العشب سينفذ كله . وعليهم أن يعبروا التلال غدا باتجاه جيرود(١) . بينما سيذهب هو معنا الى المدينة .

كان سطام حزينا للطريقة التي يلزمه بها قومه ، ولأنه يضحي باهتماماته الشخصية لارضاء قومه ، وعليه أن يصبح فقيرا بينما هم يزدادون غنى ، وعليه أن يجد الخيول والجمال التي تشبع نهم « العصملية » ؛ لأن الرولة ترغب أن تتاجر مع سكان المدن والفلاحين بحرية ؛ وعليه أن ينهي المهمة حالا .

ليس لدي احترام كبير لسطام . ولكن لا يمكنني الا أن أشفق عليه . لأنه مجرد انسان ضعيف أمام رغبات قومه . تناولنا هذا المساء عشاء أنفق عليه بسخاء في وقت كان يدور فيه رقص وغناء في الجوار على شرف وليمة ختان .

في الخامس عشر من نيسان ، بينما كانت الخيام تهدم والجمال تحمل . تحدثت لمدة نصف ساعة مع جوزة ــ زوجة سطام الاولى ــ التي كانت تتشاجر مع ابنه جدعان . وباعتبار أن كل شخص كان مشغولا باستثنائنا تكلمنا بحرية دون أن يقاطعنا أحد من المتطفلين الذين يحيطون بزوار خيمة النساء .

كانت جوزة جميلة ورشيقة بقسمات ناعمة ، وكانت لطيفة جدا ؛ اذ تبدو كما لو كانت بمزاج خاص يميزها من بين النساء ، وكانت بارعة وحاذقة في

---

(١) بحيرة شمال شرق دمشق .

الحديث أكثر من كثير من نساء العرب ، وتتقن فن المجاملة والاسترسال بالحديث أكثر منهن ، لأن من عادتهن أن يصلن معي الى نهاية مسدودة عندما كن يسألن عن عدد أولادي ، وكم تبعد بلادي عن هذه الديار . أما جوزة فقد أبدت اهتماما بما قلته عن رحلاتي ، وسألت عن الناس الذين تعرفت عليهم في البادية ، وكانت فضولية بسؤالها عن نساء شمر ، وهل هن من الجميلات كما يقول الناس ؟ وما هي امكانات لبساهن ، وهل هن نظيفات وأنيقات ؟

ان الشيخ سطاما هو ابن عمها الاول ، ولكنها تحكمه بالنار والحديد ، وبوجودها لا تطيق أية امرأة أخرى البقاء طويلا في خيمته ، ولقد تخلصت من اثنتين أعرفهما . ويبدو أنها مصممة على الاحتفاظ ببيتها كأم منصور والسيدة الاولى . كان الطفل معها وقد جعل نفسه محبوبا لأنه توسل لأمه كي أبقى معهم . فأعطيته صفارة صغيرة جدلت خيطها وعلقته في عنقه ، وفرح جدا عندما علمته كيف ينفخ بها .. لم يكن منصور مثل بقية أطفال العرب الذين كانوا يتشبثون بكل شيء ينالونه ويطالبون بالسكر ، ولكنه كان مؤدبا وبتربية حسنة عالية ، الا أنه كان وسخا لأن أمهات الاطفال هنا يدعن أطفالهن بهذا الشكل خشية أن تصيبهم العين الشريرة .

هدمت الخيمة فوق رؤوسنا وكان علينا النهوض ، لذلك قلت لهم : الوداع ، وودعت جوزة التي وعدت بأن الطفل لن ينساني . كانت العُطفة(1) آخر شيء حساه قوم ابن شعلان معهم ، وهي هودج ضخم يستخدمه الشعلان عندما يتوقعون حدوث معركة وأشبه بقفص ضخم من الخيزران يغطيه ريش النعام ، وربما يعود تاريخه الى تاريخ الرولة في نجد وقصة قدومهم الاولى من هناك ، لأن النعام ليس له وجود شمال جبل شمر كما أظن .

---

(1) هودج من الخيزران يغطى بريش النعام ويشد على جمل ، وفيه تجلس بنت عقيد القوم او فتاة جميلة نشيطة طلقة اللسان تنشد وتزغرد للمحاربين وتحرضهم على القتال ، وتسمى هذه الفتاة (المعمارية) وكانت آخر القبائل تمسكا العطفة الرولة في بادية التام .

تحمل العطفة(١) على ذلول وفيها فتاة وظيفتها الغناء للمحاربين وشحذ هممهم • وهذه الفتاة يجب أن تكون رابطة الجأش طويلة النفس ، لأن المعركة تحتدم حولها في حالات الكر والفر • والرولة تعتقد اعتقادا خرافيا مفاده أنهم سيهلكون فيما لو خسروا العطفة ولهذا فهم يستميتون في الدفاع عنها . كما أن العدو لديه رغبة مماثلة في أسر ساكنة العطفة • كانت لكل قبيلة من القبائل الكبيرة عطفة واحدة في الايام الماضية ، الا أن عادة اصطحاب العطفة في الحرب أخذت تندثر من بين قبائل البدو ، وربما بسبب ندرة ريش النعام وصعوبة تجديدها • الا أن الرولة لا زالت تحتفظ بها • وأعتقد بأن قوم ابن هذال لا يزالون يصطحبونها ، وفي هذا اليوم حملت العطفة فارغة على ظهر ناقة فارهة وجميلة • أرسلنا الخيل والحمير من أجل الماء الى التلال التي تنهض شمال السهل • والتي تدعى جبل الرواق حيث يوجد نبع ماء عذب يدعى بئر شدحه ولم نعد بعد ، على الرغم من أن خيام الرولة جميعها قد هدمت وبدأت بالمسير •

أبقى سطام خيمته منتصبة على سبيل الادب ، ولكنه لا يستطيع الانتظار لمدة أطول ، وجاء ليودعنا ، وعلينا أن نراه ثانية اليوم ليلا أو في يوم غد . ولكن عليه أن يواكب قبيلته حتى التلال أولا ومن ثم ينضم الينا في الطريق ليذهب معنا الى دمشق • اني أشاهده الآن يركب مبتعدا مع بعض رجاله وأربعة خيول وناقة مع صغيرها أخذت هدية للباشا • ويبدو أن الخيول لم تكن ذات قيمة ملحوظة • والآن ذهب جميعهم •

يصعب على المشاهد رؤية السهل يخلو تدريجيا من ساكنيه . اذ لا نزال نراقبهم ينسابون على شكل جماعات من الشعب وأعالي التلال • وكيف يمكن لكل هذا الحشد في المخيم أن يرحل ويخلف صمتا مطبقا ؟ ولنصبح وحدنا في البادية بين المراعي المسحوقة ، ولا أثر يذكر لأناس كانوا يعيشون في هذا المكان ، لأن العرب لا يخلفون شيئا خلفهم ولا حتى قصاصات الورق التي

---

(١) علمنا من بعض المصادر أن من يخسر العطفة ويوقعها بيد العدو ، لا يمكنه أن يتخذ عطفه بدلها ، ما لم يستردها ، او يأخذ عطفة من الاعداء ويغنمها. وكثيرا ما تكثر الضحايا حولها وتتجندل الابطال حتى النصر او الموت .

يجدها المرء في أماكن المتنزهين بعد انتهاء النزهة • كل هذا باستثناء جمايين ربما كانا من الجمال التي غنمت مؤخرا ، تركت لأنها كانت تعرج بشدة ، وبقيت لأي شخص تال يريد أن يستهلكها . وهنا تلهف غانم الى سوقها وبيعها في دمشق . الا أن ولفرد لم يسمح له بذلك • مساء لم ننطلق حتى الساعة العاشرة تقريبا ، وارتحانا لمدة خمس ساعات فقط ، نصفها على الاقل عبر ما كان يسمى مخيم الرولة ليلة البارحة ، ولهذا فان المساحة الكلية التي كانت القبيلة تشغلها لا يمكن أن يكون عرضها أقل من اثني عشر ميلا ، ولم نكن نعرف هذا الا من خلال حركات الجمال التي لم تجد ما تأكله حتى جاوزنا تلك المسافة . ومن ثم تركناها ترعى كما تحب لأنها لم تأكل ما يكفيها منذ أربع وعشرين ساعة •

أصبحنا عند سفح جبل الرواق • فظهرت علينا غيمة بيضاء تدرجت فوق الافق أمامنا مباشرة ، وسرعان ما أخذت شكل جبل غطي رأسه بالثلج • انه جبل الحرمون المغطى بالثلوج . وهو المنظر الاول من الارض الموعودة • ومنها علمنا بأن دمشق لا بد وأن تكون أمامنا مباشرة وليست بعيدة ، ثم توقفنا في ظل خان مهدم كان يمثل العلامة الاولى لاقتراب الحضارة ، وعنده شاهدنا مرتع العشب الكثيف فقضينا فيه ظهرا رائعا شاهدنا من خلال جوه الشاعري آخر ما يمكن أن يذكرنا بالبدو •• انها ليلتنا الاخيرة في البادية ، وعلينا أن نستمتع بمعظم فترات الهناء فيها •

كنا على مقربة من الروابي البركانيه الغربية . وربما كانت تختلف عن العينات التي شاهدناها في تلال اللجاة • وعلى أحدها اصطاد ولفرد أرنبا بريا، وعلينا أن نقيم وليمة هذه الليلة احتفالا بترقية محمد الى رتبة الاخوة التي قررنا منحه اياها لاخلاصه وخدماته التي لا تقدر بثمن ، وتناقشنا طويلا فيما اذا كان جديرا بهذا الشرف لأن لقب الاخوة لا يستخف به اطلاقا ، أو أن يمنح لأي انسان الا للرجال من الطراز المعين • وبدا لي محمد في بداية الأمر خارج طبقة الأشخاص البارزين ، وعلى كل حال حان وقت التكريم • وكان على شيوخ

البادية الكبار أن يقسموا على التآخي مع شيوخ المدينة ، ومحمد هو الابن الاكبر والوريث لمشيخة تدمر ، وكلها يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار ، يضاف الى ذلك انحداره من سلالة بني لام والطالبيين قد يرفعه فوق عامة الناس وجموع فلاحي القرى • وكاختبار نهائي قررنا اثبات فيما اذا كان جديرا بالتكريم عن طريق اغرائه بالمال عملا بمشورة السيد « سكين » ، وبهذا سيكون أمام امتحان صعب في الواقع بالنسبة لبدوي ومواطن مثله في جزيرة العرب . ولكنه نجح نجاحا باهرا وخرج سالما من هذا الامتحان •

لقد خيرناه بين أمرين : اما أن يرسل الى تدمر بمبلغ محترم من المجيديات مكافأة لخدماته أو أن يختار اخوة وصداقة البك • فأجاب محمد بتعبير رائع مؤكدا بأن البك لو ملأ منديلي بالقطع البيضاء فاني سأعتبرها لاشيء أمام شرف الاخوة عندها سويت القضية وحلف اليمين بحضورنا • وسيجلس محمد الليلة ولاول مرة ليأكل معنا في خيمتنا ، وعندما حلف اليمين أضاف لنص القسم عبارة : حتى آخر يوم من عمري • وتأثرنا تأثيرا بالغا لوقار المناسبة • حصل هذا في وقت لم يظهر فيه سطام بعد، وعلينا أن لا نتوقع مقابلته حتى نصل دمشق•

في السادس عشر من نيسان أصبح الجو عاصفا ، ولكن لا يهم فنحن في نهاية رحلتنا تماما • وفي الليل شاهدت حول القمر قوس قزح جميل • فالقمر يشع وحوله هالة قبيل هطول المطر الغزير ، وكان القوس مرئيا ؛ ولكن الالوان لم تكن تميزه •

مررنا حالا بعد الانطلاق بمعسكر متطرف صغير للرولة ، ولكن دون أن يحط رحاله • فانضم الينا اثنان من الفرسان التابعين للمعسكر وركبوا معنا ميلا أو ميلين • ولكننا لم نستطع الحصول منهم على معلومات مفيدة لأن الصغير منهم كان خجولا والاكبر كان معاقا عن الكلام الشيء الذي جعل من المتعذر علينا فهم ما يقول ، ثم افترقنا بعد أن عبرا التلال الى اليمين لكي ينضما الى الجماعة الكبيرة للرولة في جيرود • أما نحن فتابعنا المسير باتجاه مستقيم الى جبل الحرمون أو ما يسمونه جبل الشيخ.•

وصلنا عند الساعة العاشرة الى أول الحقول المزروعة والى بعض الاثار الاغريقية الرائعة ، وعلى بعد منها شاهدنا نبعا[١] وافرا من الماء العذب الذي لم نشاهد مثله منذ أسابيع • ويبدو أن النبع غير طبيعي فكيف يمكن لمثل هذا الماء الوفير أن يتدفق من الارض ؟• وبعد ذلك وصلنا الى قرية دمر النقطة المتقدمة للحضارة باتجاه البادية • كان المكان مزدهرا ومحاطا بالجنائن وبساتين الذرة؛ وهنالك شاهدنا سكان المدن من ذوي الوجوه الشاحبة ، وهم يلبسون العمائم ويركبون الحمير بدلا من الجمال ، وكانوا يردون على تحياتنا كلما مررنا بهم بلثغة متكلفة عند السوريين قائلين : مرحبا•أصبحنا ثانية تحت سيطرة القانون العثماني • انه المكان المتوسط بين الحرية المطلقة في البادية والقيود الاوربية • وأخيرا قابلنا رجلا يلبس ثيابا افرنجية ويضع الخواتم في أصابعه ويتكلم الفرنسية • فأخبرنا أنه يعمل مترجما لقنصلية أجنبية ولم يكن ممن يجلب النظر اليهم ، لأنه كان حاسر الرأس أصاع وبثياب هزيلة • وفي اليوم التالي انطلقنا راكبين باتجاه دمشق •

* * *

---

(١) نبع الفيجة شمال شرق دمشق .

الفصل الثاني والعشرون

« كان شكلهم غريبا مشوها ... اثار في شيئا من الاضطراب
لذلك استلقيت خلف شجرة كي اراقبهم بشكل افضل »
من رحلة الى هوينامز ـ سويفت(١)

كلمات أخيرة ـ دفاع عن الجمل ـ سطام في المدينة ـ وداعا ـ جماعة الياهو .

انها الكلمات القليلة التي أنهي بها قصة الرحلة ... مضى علينا أسبوع في دمشق ننتظر وصول النقود التي سننفقها للوصول الى الوطن . لأننا قد استهلكنا كل ما نملك واعتمدنا على بيع الجمال كي نعوض المبلغ المطلوب . اذ قام فرحان ومحمد بترتيب عمليات البيع بشكل رائع ، ووجدنا في غضون أيام ربحا صافيا في أيدينا بلغ خمسة عشر شلنا عن كل دابة اشتريناها من بغداد . وبعنا فرسنا طرفاء بخسارة طفيفة بينما تركنا الخيول الثلاثة الاخرى مع القنصل لكي يشحنها فيما بعد الى انكلترا . أما الحمار الابيض فقد بيع بالمبلغ الذي اشتريناه به ، والستة عشر جنيها التي دفعت كانت مناسبة لمثله . اذ لم تبد عليه علائم التعب حتى نهاية الرحلة على الرغم من أنه كان يحمل ما يوازي ثمانية عشر حجرا على ظهره ، ولم يعثر خلال المسيرة كلها .

لقد ذرفنا الدموع عندما فارقنا الجمال كتلك الدموع التي يذرفها الناس عندما يفارقون أعز ما يملكونه . وهذه الحيوانات المخلصة قد قامت بكل ما طلب منها دون تذمر ، حيث لم أقل لها أية كلمة . ومما يثير شجوني تذكري كم كانت هذه الحيوانات مطيعة ولطيفة ، بينما نقرأ ما كتبه بعض الرحالة عن نزعاتها الشريرة تعصبا لغيرها من المطايا فأحد الكتاب مثلا كان عليه أن يكون منصفا عندما كتب صفحة أو صفحتين عن الجزيرة العربية ، وذكر في

---

(١) سويفت جوناثان « ١٦٦٧ ـ ١٧٤٥ » . كاتب انكليزي . من اشهر آثاره : رحلات غاليفر عام ١٧٢٦ .

مقالته ذما لقلب مشاعر الجمل ، بينما المجرب الحقيقي لهذا المخلوق لا يجد مثل هذا القول ، وألصقت تهم قاسية به على الرغم من أن الرفسات النادرة لا يمكن أن تتوقعها صادرة عن الجمل . ومهما كانت هفوات الجمل فلا يمكن عده من الحيوانات ذات المزاج السيء ولعل هدير صوته سيكون مرعبا لأي شخص في أول وهلة ، باستثناء ابن الشارع من أحياء« كوكني »الذين يعتبرون صوته كخوار البقر . والرغاء هو طبيعة صوته الا أنه لا يعتبر مخيفا الى هذا الحد ... والحقيقة ان الجمل يستخدم صوته على سبيل الانذار ، عندما يُحمل فوق طاقته ، أو عندما يجهد في العمل فانه يتوسل بواسطة الصوت طالبا الرحمة . واذا ما ضجر المسافر من رغائه فعليه أن ينظر تحت قتبه قبل امتطائه فلعله يجد سببا لتذمراته العالية التي يصدرها هذا الحيوان المسكين . وبشكل عام يرغو الجمل غير المروض بسبب الخوف ، ويرغو الجمل عندما يجرحه السرج . فكم من مرة تنبهت على صوت جملي وهو يتوسل بادارة وجهه الواجم ليوكز ساعدي ، فأجد عندها بأن السرج « القتب » يحتاج الى حملة حشو مرة ثانية . وفي أكثر من مرة يحين الوقت للترجل اذ لم أكن راغبة بتعريض نفسي لخطر السقوط . فهل هذا السلوك يعد من قبيل المزاج السيء ؟ أم أنه الحاجة الى اشعار الاخرين بما يحدث ؟ وكم أحببت الخيل ! الا انني أعتبرها أقل مرتبة من الجمل . ومن يشك في هذا القول عليه أن يصطحب الجياد والجمال في رحلة ويرى بعينيه تصرف كل منها . فالجواد ان لم يكبحه راكبه فسيبدأ يومه برفسات مضحكة في الهواء وينهيه بعدو متثاقل وئيد . ويتعثر ويتهالك في نهاية المطاف . واذا ما ركب فانه يركب بحذر قد يدوم اليوم كله ، ويجوع الجواد في الليل والجوع أكبر ظاهرة على المسافر أن يلاحظها في مطيته ، ولهذا يرخى له العنان لكي يأكل ، بالاضافة الى أننا لا نجد منافسا له في الصهيل والصياح الا بعض الانواع من الحيات « بسيفالوس »(١) ؛ اذ يولع بالصهيل والمماحكة . فاذا ما قدم له العشب وعرض لموقف قتال فانه سيترك العشب اللذيذ لأن القتال والروح العدوانية عنده أشد رغبة ، واذ لم

---

(١) بسيفالوس : نوع من الحيات الخبيثة تسمى أم العيون يكثر من الفحيح .

يتدخل صاحبه في الوقت المناسب فلن يكون صالحا في رحلة اليوم الآخر • ومن المخاطرة أن يترك دون تكبيل أو ربط من أقدامه الى وتد كبير • وفي الصباح الباكر ستجده إن لم ينفلت رباطه وقد تلوى في رسنه بشكل يصعب تخليصه منه • وكم من مرة تراه يتضور جوعا لأنه لا يستطيع الوصول الى العشب • واذا ما غطاه صاحبه بدثار غليظ ليبقي جسمه دافئا ، فربما ينزعه وهو يحاول التدحرج على الارض فترى الدثار قد تدلى من حزام السرج • وعندما يمد صاحبه عباءته ويكوم فوقها الذرة أمامه يدفن الحصان فمه ويبلؤه ثم يستدير لبعض خاصرته ويبعثر نصف طعامه على الارض ، وفي لحظات أخرى ينبش بحافره الكومة ليخلطها بالوحل تحت أقدامه •بينما الجمل الذي يوصف بالغباء وسوء الطبع يبقى مقتصدا لقوته على الرغم من أنه يسير طوال اليوم، ويحافظ على خطوة المتزن وكأنه بائع متجول درب ميلا بعد ميل وساعة بعد ساعة • وما ان تنتهي الرحلة حتى يمشي بعدها لتناول طعامه ••• انه يعرف قيمة الوقت ولا يضيع أية لحظة ، ويحرص على أن يبقى في المحيط الذي تنتشر فيه الجمال ، وكثيرا ما يصغي الى نداء سيده • وعند الغسق يتوقف ليدير رأسه وهو يرصد نيران المخيم ، وعندما يراها مشتعلة يعرف أنه قد حان وقت المبيت فيشق طريقه ببطء الى المضارب ليركع بارادته لكي يتلقى نصيبه من الفول أو كومة من بذور القطن ، ثم يجتر ما مضغ حتى الصباح • فأي من هذه الحيوانات يبدي احساسا عظيما بالمسؤولية خلال اليوم ؟ وأي منهما يكون في مزاج حسن ؟ ومهما قلت ، فكفى لأنني قد فقدت ابلي •

بعد هذه التوديعات الصامتة كان علينا أن نقوم بتوديعات أكثر رزانة••• حنا ، فرحان ، غانم ، محمد ، القنصل ، فكل بدوره ودرجته ونحن نعتصر النفوس من الالم •

كان غانم أول من انصرف لأنه كان في دمشق بدون مأوى ، وعوكس هناك في أول يوم اذ جرده الدرك من سلاحه الذي كان بمثابة عصاة حديدية يعتز بحملها ، وهو ما أثار اشمئزاز الفتى ، وانتهز أقرب فرصة ليودعنا بعد أن حظي بصحبة الشيخ الشرعي لقبيلته لكي يقوم بأداء الاغاني تمجيدا لأخبار

حرب الرولة • وهناك استعار اسم بندر بدلا من اسمه الحقيقي ، لأنه يعتقد أنه سيجد فرصة كافية لكي يصبح عظيما في نظر الاخرين •

ارتدى غانم ثيابا جميلة وعباءة ومنديلا من عائدات هدايانا له ، وأخذ يتبختر حول المدينة •• انه كما هو على حاله المخلوق الخالي السائح المتمتع، فاختفى أخيرا مع سيده ولم نعد نراه بعد اليوم •

كان حنا مسرورا جدا بأواني وقدور الطبخ بالاضافة الى استلامه راتبا مضاعفا عن كل الاشهر التي قضاها في خدمتنا، وبكى في الايام القليلة التي تبقت من الرحلة وأسال الدموع الغزيرة في يوم رحيلنا • أما فرحان فكان أقل تعبيرا عن عواطفه ومع ذلك كان مخلصا في كل شيء ، وكان الوحيد ــ بين خدمنا ــ الذي لم يطلب سوى أجرته ، ولهذا أخذ كل ما يستحق وما زاد اعتبره هبة من السماء ، حتى انه لم يعد نقوده وأكد بأنه على استعداد لأن يتبعنا حتى نهاية العالم ••• وكنت أصدقه •

رفض محمد أي راتب ، ولكنه كوفيء ببندقيته وببعض النثريات الصغيرة التي لم يفكر في طلبها،وحتى نهاية الرحلة بقي مثالا للفتى الذكي المرح وكعهدنا به أصبح أخا للبك ، وأبدى استعدادا لمشاركتنا المصير حتى نهاية العالم ، ووعد أن يذهب معنا في شتاء العام القادم الى الجوف لنساعده على اختيار زوجة له من قومه بني لام هناك على أن تكون فتاة من أصل نبيل جديرة بالزواج من سايل الطالبيين • أما عبد الرحمن على الرغم من أنه لم يكن من خدمنا الا أنه خدمنا بطرق عديدة خلال الاسبوعين الاخيرين ، فتلقى هدية عامل والمال عنده ــ كما علمته التجربة ــ نعمة ضرورية أكثر من المجد والتفاخر ، وقد ضحك بهدوء من تطلعات محمد « الرومانسية » ولم نكن نرى من مبرر لسحب احترامنا منه ، لأنه من علماء حلب وابن تاجر من تجار الخيل المعروفين • جاء سطام لزيارتنا أكثر من مرة في الحديقة التي خيمنا فيها ، وقد بدا المسكين مسرورا لأن يجلس على عتبة أو باب الخيمة ، لأنه كان يشعر أننا بدو مثله • وفي كل مرة نراه يزداد شحوبا واكتئابا لأن البدو يهزلون بسرعة في جو المدينة• وفجأة رجع الى البادية دون أن نعرف نتائج زيارته الى الوالي ، لأنه كان مراقبا ومصحوبا بموظف من موظفي الحكومة ، ولهذا كان متحفظا من الخوض في

أي حديث • لقد عملنا واجبنا بشأن الصلح ، ولكن لم نكن نرغب بالضغط عليه أكثر من طاقته ، وعلمنا بأنه عاد دون خيوله الى القبيلة ، وأن قضية مسيرة الرولة الى الشمال قد سويت بالتراضي ، ثم وصلتنا أخبار متأخرة تفيد بأن سطاما أصبح مرة أخرى في مراعي السبعة في حمص وحماة تدعمه الحكومة التركية ، ولهذا خشينا أن تكون مهمتنا الدبلوماسية قد أخفقت ، ولا ندري فيما اذا كانت السبعة سوف تستكين لخسارتها المنطقة ، أم أن القضية سوف تعقبها غارات ومعارك جديدة !

حتى الآن لا نعرف شيئا ، وان كنت أود أن أضيف ملحقا تفصيليا عن آخر الاخبار في البادية • أما عن عودتنا الى الوطن فليس من الضروري ذكر شيء من تفاصيلها • فما ان وصلنا الى دمشق حتى شعرنا بأن حنيننا اليه قد توقف وأن ما تبقى من أيام العودة كان تأخيرا مزعجا •

لقد تغلبنا على مشاعر لقائنا لاول بأهل بلدنا قدر المستطاع ، وأظهرنا مقدارا من البشاشة في وجوهنا ، الا أننا قد أصبنا بصدمة لأننا لم نكن نعد أنفسنا للتحول الكبير من شتاء قضيناه بين العرب وما فعله ذلك في أذواقنا وآرائنا وأحكامنا المسبقة على الامور الى حياة بيروت حيث قابلنا أول موجة من الحياة الاوربية • لقد وجدنا الفندق مهجورا فتناولنا عشاءنا بسلام على طاولة بدلا من الارض وبدأنا نشرب الماء مع الكؤوس ونأكل بالشوكات والسكاكين بدلا من الايدي والاصابع ، وكل هذا حتى الآن لم يثر دهشتنا ، وبينما كنا نجلس على أريكة في نهاية صالة الطعام نحتسي القهوة بوقار وهدوء الآسيويين علت في المكان ضجة وأصوات ضحك مرتفع ، ثم فتح الباب بعنف واندفع الى الارض رهط من الرجال والنساء الصاخبين ، وهم يرتدون المعاطف « والبناطيل » والتنورات القصيرة والـ « جاكيتات » كل حسب جنسه ، ولكن برؤوس عارية حاسرة بشكل غريب ، وقدرت عددهم باثني عشر شخصا بوجوه متقدة ومثارة كما لو أنهم كانوا يشربون الخمر فمروا أمامنا الى الطرف العلوي من الصالة دونما توقف أو تحية ، وهناك دون تكلف رموا بأنفسهم على الكراسي • كانت الالبسة والاصوات والايماءات ومواقف الرجال والنسوة صاعقة بالنسبة لنا لا لأنها غريبة أو مثيرة للسخرية ، بل لأنها كانت غير محتشمة

ولأنها كانت غير مهذبة ولا لائقة وكأننا نشاهدها لاول مرة .

تبهرجت النساء بين المجموعة بشكل غير لائق ، وكل فتاة تدلي شعرها الغزير الاشقر مرتخيا على ظهرها ، وحلق الرجال الذقون بشدة ولبس بعضهم النظارات وارتموا بطريقة مزرية على الكراسي وبدؤوا يقايضون مجموعة حقيرة من الباعة المتجولين اليهود الذين لحقوا بهم وبينما كانوا يعرضون سلعهم كانوا يرمقون الغرباء غير المبجلين بنظرات احتقار واضحة . جرت المحادثات بين الفريقين بطريقة مخجلة أتوقف عن ذكرها ... باللغة الانكليزية مرة وفي مرات أخرى بلغات أوربية،ورافقها اهانات وجهت الى الباعة ممزوجة بمداهنات وتملق كانت أكثر خزيا وحقارة . وكل المواضيع التي تحدثوا عنها كانت عن الاسلحة الشرقية المزيفة وعن حلي الفيروز المزيف وعن مخاريط الصنوبر في لبنان .. نادى ولفرد على ساقٍ واستفسر منه عن ماهية هؤلاء الناس وما هو سبب دخولهم الى هذا المكان ؟ لأننا كنا نعتقد أنهم من الطباخين السياح . وعادات هؤلاء مشهورة وربما كانوا يتناولون عشاءهم في الخارج ! أجاب الرجل : أوه ... لا هؤلاء المسافرين هم من أثرياء الانكليز ذوي الاهمية وصلوا ليلة البارحة على ظهر يخت من مالطة .. أجل كانوا رجالا نبلاء من أبناء بلدنا . وكنت مسرورة لأن محمداً لم يشاهدهم وهم على هذه الشاكلة .

انتهت الرحلة ونحن مرة ثانية في انكلترا حيث لم يعد هناك سجل ملحوظ لمغامراتنا الشتوية . أما عن أصدقائنا في البادية فلم نعد نشاهد غير مسدس مشهور الذي علق فوق رف الموقد في الصالون ، وستة من الخيول العربية ترعى في الحديقة خارج المنزل بصحبة شريفة ومهر كميت عند أقدامها ، بينما كانت هاجر تنعم بالعدو والقفز فوق الارض الانكليزية . وعلى الطاولة استلقى الرأس الحجري الذي أعطانا اياه محمد في تدمر بين السياط والمظلات . انه النواة لما جمعناه من لقيات أثرية مع مجموعة من الرسائل وضعت لتعلن خبر يوم مشهود : اتحاد جدعان مع فارس . انتهى كل شيء باستثناء الفصول الاخيرة المثيرة التي اقترح علي ولفرد أن أنهي بها الكتاب ، اذ تضمنت معلومات جمعت خلال رحلتنا . وباعتقادي أنها لن تكون بدون فائدة على الرغم من أن ولفرد يقول : انها ستكون باهتة .

الفصـل الثالث والعشرون

قسم كبير من الارض كان قـد استوطن وعمر اكثر مما يعرفه الجغرافيون عنـه

● السير توماس براون

جغرافية شمال الجزيرة العربية ــ معالم البادية الطبيعية ــ هجرة القبائل ــ وادي الفرات ــ القرى في البادية ــ بعض الاشارات لواضعي الخرائط .

يحد الجزيرة العربية التي حددت على خرائطنا خط في الشمال يبدأ من رأس الخليج العربي وينتهي بخليج العقبة . وذروتها وضعها الجغرافيون عند خط العرض « ٣٤° » الى الجنوب بعدة أميال عن مدينة تدمر القديمة ، وهذا التقسيم يمتد عبر التاريخ الى أيام الامبراطورية الرومانية ، وهو يمثل بشكل دقيق حدود السلطة الثابتة نحو الجنوب باتجاه الجزيرة العربية . وخط الفرات في ذلك الزمن كان محروسا كطريق عسكري عام يصل النهر بالتلال الواقعة فوق دمشق . وبهذا الشكل تكون القبائل في الجزيرة العربية مغلقة وبعيدة عن المراعي في الجزيرة السورية والبادية العليا .

وضمن هذه الحدود انتظمت حياة مستقرة وآمنة ضد الطامعين وسيطر القانون العام للامبراطورية ، ولكن بعد أن مضت قرون عديدة على فقدان الفرات أهميته في أن يكون الحدود الحقيقية للجزيرة العربية ، أو أن يكون الطريق العام المؤدي عبر حاجز تدمر الى القبائل هناك . فقد حان الوقت لكي يزول الخط الوهمي الذي حدده الجغرافيون القدماء من خرائطنا . لأن الجزيرة العربية الشمالية تضم في الوقت الراهن كل المقاطعة الواقعة ما بين سورية وبلاد فارس ، وتمتد شمالا حتى خط العرض «٣٧°» خط أورفا وماردين وعلى كل حال فالجزيرة والعراق والسهول الواقعة شمال تدمر هي بطبيعة الحال جزء من

الجزيرة العربية حيث تشكل مع الحماد وحدة متجانسة فريدة تتفق سماتها الطبيعية مع العرق الذي يستوطنها . فقبائل شمر والعنزة والمنتفك هم عرب أقحاح كأقاربهم في نجد ، وقرويو الفرات والجوف هم كأولئك الذين في كل اليمن والحجاز . ومن المحتمل فعلا أن تكون القبائل الكبيرة المالكة للجمال في البوادي الشمالية تمثل الحضارة القديمة للجزيرة العربية أكثر مما يمثله السكان المسلمون في الجنوب ؛ ويرتبطون كثيرا وبشكل تقريبي بالفكرة والطريقة لمؤسسي التاريخ البدائي والتي يدعي الكل بالتحدر منها ، وعلى هذا يمكن القول بأن الجزيرة العربية ليس لها حدود أخرى غير حدود البادية.

ان السمات الطبيعية للبادية هي التي تخص السهل الواسع أو سلسلة السهول والنجود ذات التربة الفقيرة ضعيفة الري حيث لازراعة فيها غير مروية وسطحها كان في يوم من الايام مهد بحر داخلي (١) لان التربة السطحية لاتزال مركبة من الحصى واللحقيات الرملية التي تغطي طبقة سفلية من الحوار والصخور التجمعية . ويؤسفنا أن نقول بأن المنطقة بدون جبال أو جداول أو بحيرات ماء عذب لان النهرين العظيمين اللذين يقطعان الزاوية الشمالية لا يؤثران بالمنطقة التي يعبرانها ؛ فهما يعبران السهل كغرباء يسرون دونما تفاعل مع البادية التي يجريان فوقها . والسلسلة المعتبرة الوحيدة من الهضاب التي هي تربط دمشق بالموصل وذلك في اسماء متتالية كجبل الرواق وجبل العسور وجبل عبد العزيز وجبل سنجار ، إذ تشكل خطا متصلا تبدأ من الضفة اليمنى للفرات وهذا الخط يتوضع فوق مستوى السهل شمالا وجنوبا وتتوزع الخضرة فوق التلال كما تتناثر مراعي الاغنام بشكل دائم وفي أسفل منها لانجد سوى مراعي الجمال .

انني استغرب كيف أن واضعي الخرائط الحديثة كالالمان يقلقهم تحسين النماذج القديمة من الخرائط ، وقد تخلوا بشكل واضح عن الوضع الطبيعي

---

(١) كانت جزيرة العرب وبادية الشام مغطاة بمياه البحر ، وتكشف عنهما في عصر الباليوجين من الحقب الثالث الجيولوجي ... اي منذ خمسين مليون سنة تقريبا .

لهذه السلسلة من التلال والتي كان الجغرافيون القدماء حريصين على ابرازها وهي مبادلة غير موفقة تجد فيها المساحات الفارغة القديمة من البادية مليئة بعلامات جديدة ، فاما أن تكون خيالية بشكل كامل أو بعيدة كل البعد عن التناسب الحقيقي الذي يمثل قيمتها على الارض ، ولا نجد نسيئا أكثر اثارة لمسافر يريد شق طريقه عبر البادية بمساعدة احدى تلك الخرائط الالمانية من وجود عدد من التلال الرائعة والوديان المعلمة عليها ، والهضاب والمجاري المائية ، ولم يكن هذا لعرض مفيد الا لتبدو الخريطة مقبولة لعيني صانعها . وكم من مرة تتبعت فيها واحدة أو اثنتين من تلك التحسينات استناداً الى مصادرها بدقة .

وهكذا في عام ١٨٧٢ عبر ضابط فارسي يدعى « تيلمان » الحماد من بغداد متوجها الى دمشق وباعتباره ضابطا فطنا دون كل ما رآه أو شاهده في طريقه ، ولاحظ من بين الاشياء الاخرى نطاقا معينا من التلال ـ الحافة المتهدمة للنجد أو الارض المرتفعة ـ وعندما سأل مرشده العقيلي أجاب : انها البرية أو البادية ، ويعني هذا أنه لم ير شيئا يمكن التعرف عليه . وفي الطبعة الثانية لاطلس « كيبريت » يظهر جبل البرية كسلسلة جبال ، وفي خريطة اخرى يعلم جبل الرواق بقمة واحدة ، وفي ثالثة نجد تدمر تنتصب في واد ، وفي حقيقة الامر يمكن القول : انه باستثناء منطقة الفرات التي مسحها الكولونيل شيسزني منذ أربعين سنة لايوجد جزء من الجزيرة العربية الشمالية فحصته يد خبير حتى اليوم ، وصناع الخرائط يحسنون صنعا عندما يقلدون « ستاندفورد » والذي ـ نتيجة لعجزه عن الحصول على معلومات يعتمد عليها الرحالة المعاصرون ـ يتمسك بشجاعة بالتقاليد القديمة ، فخريطته تبدو جرداء ولكنها صحيحة دقيقة ، وهي الوحيدة التي وجدناها مستعملة .

ولكي اتابع البحث أقول : ان السمات الطبيعية للبادية هي تلك السهل المغطى بالشجيرات ذات الرائحة العطرة ، والتي توقفت عن النمو ؛ ولكنها تعيش بغزارة كالخزامي البري الجيد النوعية ، ومن الملاحظ أن هذه الشجيرات كثيرة التنوع ، الا أنها لاتكون متساوية في قيمتها للمرعى ؛ فبعضها

تكون مفيده للجمال وأخرى مفيدة للاغنام ، وقليل منها يعتبر عديم الفائده وعلى التربة الغنية بعد هطول الامطار نجد الاعشاب وأنواعا من النباتات الزهرية واذا ما سبهت الاجزاء الشمالية من الجزيرة وصحارى سورية العليا بشيء فاني اسبهها بمنحدرات « ويلتشاير » الكبيرة المكسوة بالعشب وخصوصا عندما تنظر اليها في أيام الربيع ، والتشابه سيكون سطحيا لان هذه لم تحرث ابدا ولانه لاتوجد مروج دائمة في آي جزء من البادية مطلقا . في السهول العليا يجتمع البدو في الربيع لجز الصوف من قطعان الغنم ، ولعقد الصفقات التجارية مع سكان المدن . وفي هذه الاماكن يمكن ايجاد المراعي الكافية حتى في أيام الحر الشديد فعندما يجف العشب ويصبح أبيض في حزيران تظهر أوراق جديدة على الخزامى البري وعلى الشجيرات التي من فصيلتها ؛ وعندما تهطل أمطار الخريف الاولى يعود اللون الاخضر الزاهي ولا يحتاج الى مزيد من الماء . أما في فصول القحط الكبيرة يصبح واديا دجلة والفرات مرتعا لكل السكان الذين تجد جمالهم الكلأ في المراتع الكبيرة للطرفاء التي تحاذي الانهار . وعند أول موجة للصقيع تتحرك العنزة جنوبا ؛ وما ان يحل كانون الاول حتى يختفي كل جمل من شمال السلاسل والهضاب والسبب المباشر لايعود كله الى البرد . لان الجمال تتحمل الطقس القاسي . بل في كون الشجيرات تفقد أوراقها ولا تصلح بعدها غذاء للاغنام، كما آن المراعي لم تعد مناسبة . فيتحولون جنوبا الى المناطق ذات الشجيرات الدائمة الخضرة . آما القبائل التي لاتربي طوال العام سوى الاغنام فلا تغادر المنطقة ، بينما البدو الذين يملكون الابل فهم في ترحال دائم ؛ فالعنزة تذهب جنوبا في الشتاء حتى تصل على بعد مسيرة أيام من جبل شمر عند الخط الذي يصنفه الجغرافيون بخط العرض « ٢٨° » ، فهم يتجولون في نطاق واسع قدره عشر درجات ، وفي بعض السنوات يرتحلون بصورة استثنائية مسافة الفي ميل ما بين شهري تشرين الثاني وأيار .

تتوالد الجمال في شباط وأوائل آذار عندما تكون العنزة في أقصى حدود النجعة الجنوبية ولذلك فان الحيوانات الحلوبة ستجد الفرصة مواتية

للتغذي على الشجيرات العصيرية الريانة . ومنها : الغرقد(١) أو كما يكتبها بالغريف « الغارة » وهي النبات المفضلة والتي تكون شجيرة شوكية تنمو بارتفاع خمسة أقدام ؛ ولها ساق يميل الى الحمرة ؛ وأوراقها خضراء لحمية . وتذكر المرء بنبات القرانيا الصغيرة عندما تنمو بهذه الطريقة . ومع ذلك تعود القبائل للتحرك ثانية نحو النسان بعد أن يبدأ موسم التوالد . وهي تسير من ثمانية الى عشرة أميال في اليوم محافظة على خطوات ثابتة تمر بأماكن نمو العشب والبابونج النباتات الاخرى التي تحبها الابل ، ومعدل السير لايتجاوز الميلين في الساعة على مقدار ما يستطيع الجمل الصغير أن يسير به .

في هذا الوقت من العام عندما يكون الفصل في شروطه الفضلى نجد الحماد منطقة من أجمل مناطق العالم فهو عبارة عن سهل واسع متموج بالعشب والازهار ، فالمنثور بلونه الارجواني يغطي التربة الخصبة ويضفي على المنطقة لونه الجميل . والجمال تفضله على غيره في المرعى ، أما التجاويف والمنخفضات فتملأ بعشب المروج الكثيف وبالشعير البري والجاودار البري والشوفان . وتتطاير من بين وريقاتها طيور السماني «الفري» بينما يتناثر هنا وهناك «الغرنوق» الازرق « البختري » وهو ما يسمى بابرة الراعي يتخلل البابونج . بينما نجد على التربة الفقيرة الازهار التي ليست أقل شحوبا كالخزامي والقطيفة والازهار النجمية وأزهار السوسن وبعض أزهار المنثور القرمزي . ومن أجمل الازهار هنا الانواع التي نجد ما يماثلها في حديقتنا لاننا لانشك بأن الصليبيين كانوا قد جلبوا لنا كثيرا من أزهار البادية التي نعتبرها اليوم من الازهار الانكليزية المنشأ . ويحق لي أن أقارن ما أجده هنا بأزهار حدائقنا .

ان رعاة قطعان الابل يتحركون ببطء طوال الربيع . بينما تكاد الخيول أن تموت جوعا خلال ثمانية أشهر من العام . ولكن الامهار تسمن على أعشاب الربيع الغضة التي تنمو بين المنثور . والتي عادة ماتكون جافة وطيبة وحلوة كالسكر .

---

(١) NITRARIA RETUSA من النباتات الصحراوية المطلة على سواحل البحار في الوطن العربي ولكن المقصود هو نبات العوسج الذي يطلق عليه البدو أسم « العرقد » وبين النباتين بون شاسع .

لاترافق رحلة البدو نحو الجنوب أية أغنام ، فأغنام العنزة على سبيل المثال تترك خلفهم في السهول العليا عند الولدة أو العقيدات أو القبائل الرافدة الاخرى يرعونها حتى يعود أصحابها ، لان الاغنام تحتاج الى سقاية مستمرة بينما يكون الماء شحيحا في آبار الحماد . وحالما يبدأ موسم التوالد يتوفر الحليب في المخيمات . بينما يقل الماء حتى بالنسبة للخيول . والتي قد تبقى اياما بدون ماء باستثناء مايقدم لها من لبن ؛ ومع ذلك توجد آبار اخرى في بعض الاماكن مع برك للماء تجمع ماء المطر . لكنها قد تجف أو يتوفر فيها الماء حسب الفصل . والقبائل تعرف أماكنها بدقة . وما ان ينتصف شهر نيسان حتى تبدأ الشمس بابراز عضلاتها فيجف العشب وينضب الماء من البرك ، وتسقط بذور النباتات ، ويختفي كل ذلك النعيم ، وعندها تعبر القبائل التلال لترجع الى قطعانها في الشمال ، وتدخل في مبادلات تجارية مع سكان المدن حيث يبدأ جز الصوف في أيار ، وتجد المهار والجمال وهي بعمر الثلاث سنوات أسواقا لها ، ثم تبدأ مواسم جديدة وهكذا .... تكون طبيعة الحياة في البادية .

وبقي علينا أن نصف النهرين العظيمين الذين يقطعان البادية ويعطيان سمات غربية للجزيرة العربية حيث يتوفر الماء الجاري والاشجار . وكلا الواديين يتشابهان وينطبق عليهما الوصف نفسه . ووصفنا لوادي الفرات يغنينا عن وصف نظيره . يظهر الفرات عند حافة البادية بهيئة نهر ناضج تكون منذ القدم . وهو نهر كبير يماثل نهر الدانوب في بلغراد ، ويجري بسرعة أربعة أميال ونصف الميل في الساعة ، ومياهه هائجة ولكنها حلوة وصافية صفاء مياه النيل . وهو والنيل يخصبان التربة عند الري بخاصية تفوق خاصية معظم الانهار في العالم ؛ لانهما يتركان مخزونا من الطمي والتراب الغني بالمواد العضوية حيثما مرا .

كان الفرات في الازمنة الغابرة وحتى خلال الخمسمائة سنة الاخيرة منطقة زراعية غنية ، اذ يدعم سكانه الذين يعيشون على ضفافه سكان المدن التجارية الغنية والمتعددة . وخلال قرنين من الزمان يمكن أن نقول بانه

لا يوجد أي محراث أحدث أخدودا على شطآنه ، والحقول قد هجرت وتحولت الى مراع للبدو ، بينما الاراضي المنخفضة التي هي معرضة للغمر السنوي قد أصبحت أدغالا من أشجار الطرفاء ، وعندما ينساب النهر بعيدا نحو الجنوب يغير من مظهره ويصبح واديه ضيقا ، فتحل بساتين النخيل مكان أشجار الطرفاء ، بينما تحيط البادية احاطة تامة بمياه النهر ، وهناك تكثر القرى بعد أن قلت أهميتها القديمة ، الا أنها كانت تشغل الاماكن نفسها التي كانت تشغلها أيام نزول الانجيل على سيدنا عيسى ونزول الكتب المقدسة ، فبيت هي المدينة التي سكنها أيوب عليه السلام ، وجباب هي موطن الحثيين والعبرانيين ، وهناك قرى أخرى يمكن التعرف عليها بسهولة ، وفيها آثار عظيمة من آثار الماضي .

ويبدو أن النهر قد شق طريقه في بعض المناطق بقوة وعمق حافرا لنفسه واديا يصل عمقه الى مائتين أو ثلاثمائة قدم تحت مستوى السهل ، وله صلة طبيعية به تشبهها قليلا بصلة سكة حديد تعبر مقاطعة زراعية في انكلترا ، فهو لايستقبل الروافد من المناطق المجاورة ولا يقدم أي شيء من واديه للري . وطريقة استمرار الحياة فيه تختلف عن طريقة الحياة في البادية . لانه يحمل معه وعلى جانبيه نباتاته الخضراء وطيوره وحيواناته الخاصة ، فاذا ما نزل الغزال اليه ليشرب من مياهه في الصيف فانه يفعل ذلك في الليل ثم يترك الوادي حالا . ويطير القطا فوقه ولكن نادرا ما يتوقف ، وحجل البادية هو الطائر الصغير الوحيد الذي يستوطن أجرافه في كلا الجانبين . بينما نجد أن الاسود والذئاب وبنات آوى نادرا ما تغادره ، وبينما تعيش الخنازير البرية قريبة جدا ضمن أشجار الطرفاء ، ومن الملاحظ أن طيوره هي طيور آسيا الصغرى وأوربا نفسها ، فالحجل والدراج والعقعق والبط والاوز وطيور الشنقب ودجاج الارض ، فكل هذه الطيور نجدها قرب هذا النهر . ولكننا لانجد هذه الطيور في المناطق المتاخمة أبعد من ميل واحد .

وأخيرا لابد من مقارنة لمعرفة الاختلافات العادية في الاعمال المتنوعة والفعاليات عند رجال الوادي وسكان البادية ، فالاخيرون نادرا ماينزلون الى

النهر باستثناء فصول القحط المدمرة ، أو عندما يعتزمون عبوره بقصد شن الغزو على الشاطىء المقابل ، ولان المراعي في السهول العليا أفضل ، ومناسبة لهم كثيرا لرعي الجمال من الوادي الغني بالنبات . وخلال قسم كبير من السنة يعتبر النهر غير موجود بالنسبة لهم على الرغم من أنهم يخيمون في مناطق قريبه منه . ويعتبر النهر عندها في متناول أيديهم . فهناك مثلا مئات العنزة لم يكونوا قد شاهدوا الفرات قط في كل حياتهم . ومن جهة اخرى نجد قبائل الفلاحين مع قطعانهم من الحيوانات ذات القرون وحقولهم الزراعية تلتصق بالوادي بشدة ، وحتى تلك المدن في البادية البحتة كالدير وعنة يتحدث أهلها بخوف وهمس عن « الچول » أو البراري والبادية .

يعتبر الكولونيل تيسزني المهندس الذي مسح الفرات بدقة ، اذ لا يحتاج المسافر الا مراجعة بسيطة للاسماء والاماكن حتى يجد طريقه . وهذه اذا ما أعطيت بشكل صحيح نجد بعضها قد غير كلية بسبب الاحتلال التركي للوادي وظهور مناطق بأهميات جديدة ، وأماكن ذات أهمية عسكرية تحتاج الى تثبيت جديد على الخريطة . ولكني وجدت مسح دجلة أقل جودة من مسح الفرات . الا أن الكولونيل شيسزني لا يعتبر مسؤولا عن ذلك ، بينما خريطته عن الباديه تعتبر عديمة الفائدة . فهو ــ على سبيل المثال ــ يضع تدمر جنوب موقعها الحالي بخمسين ميلا . ويضع الحضر غرب موقعها الحالي بثلاثين ميلا مبتعدا بذلك عن الحقيقة .

اذا ما استثنينا سلسلة المدن والقرى على النهرين في الجزيرة العربية الشمالية لايوجد مايحق لنا أن نسميه مدينة . عدا بعض القرى التي تقوم في الواحات . وهذه القرى تكون عادة في الجنوب محاطة ببساتين النخيل ، بينما في الشمال تكون محاطة بالحدائق والحقول المفتوحة ، وفيها محاصيل الذرة وغيرها التي تعتمد مبدأ الري في غالبيتها . وأكثر وصف لهذه المناطق ينطبق على الوصف الذي وصفه «بالغريف» لمنطقة الجوف المزدهرة نسبيا، بينما عندما نتجه الى الشمال فلا نجد شيئا مما ذكر ، حتى نصل الى سلسلة التلال التي تقسم السهول العلوية عن السفلية . وعلى سفوح تلك التلال تتبعثر القرى

البائسة القليلة ، اذ تشكل كل واحدة منها موقع نبع هزيل ، وحوله أرض لاتزيد مساحتها عن الخمسين أو المائة فدان ، وغالبا ما تكون مروية • وكل قرية تكون عادة محاطة بسور طيني تخترقه بوابة وحيدة ، بينما البيوت في الداخل مبنية بالطين وعلى نفس الطراز ، اذ تكون منخفضة وذات سطح منبسط • وكل قرية تضم من البشر مايقارب المائتين الى خمسمائة نسمة ؛ وهي من أكثر المناطق تعاسة يمكن تصورها في العالم ، لان المناطق الصحراوية المجاورة لها تكون جرداء وخالية من الكلأ بسبب الرعي الجائر . ولانها قد وطئت واجتثت أعشابها دونما رحمة ولعدة أجيال •

وأهم تلك القرى : القريتان وتدمر غرب الفرات ، وقرى سنجار شرق الفرات • لقد علمت أماكنها على خريطتي التي صنعها « ستا نفورد » لانني وجدت جغرافيتها دقيقة نوعا ما •

ان البادية العليا مع التلال تضم « دزينة » من التلال والاماكن الصغيرة وعلى الاخص في منطقة سنجار ، ونجد في النهرين التنوع ذاته من حيث المظهر بين قرى الشمال وقرى الجنوب ، فالاخيرة تحاط باشجار النخيل الكثيرة . بينما الأولى تبدو بائسة ، ويعود السبب الى أن البدوي لا يعرف زراعة التمر . والارض التي تشغلها بساتين النخيل لاتصلح للرعي ولهذا فهو يتركها لمالكيها بينما تكون الحقول المفتوحة للقمح والشعير دوما مصدر اغراء مستمر لقطعان ماشيتهم • وهكذا نجد مدينة عنة وقرى النخيل تعاني من خسارة التجارة . بينما دمرت مدن الفرات الاعلى بشكل كامل •

اننا نجد شمال خط العرض « ٣٤° » أن وادي الفرات لايمكنه أن يفخر بست من القرى التي تعيش بين الموت والحياة ، وكأن الامر في السنوات الاخيرة لايتعدى محاولات جرت للقيام بزراعات محدودة تحت الحماية التركية • والدير هي القرية الوحيدة الباقية من تاريخ الاحتلال التركي عام ١٨٦٢ • ويعود الفضل لاستمرار وجودها الى بساتين وحقول الذرة التي تقوم فوق جزر يحميها النهر • أما بالنسبة الى البصرة والقرى التي تقوم على النهر جنوب بغداد فلا يمكنني أن أقول شيئا لانني لم أقم بزيارتها . انما

أقول : انها مشهورة بسبب المدن المقدسة ككربلاء ومشهد علي ، وتزدهر نوعا بالنسبة لغيرها .

بينما الضفة اليمنى لشط العرب التي تسكنها قبيلة المنتفك قد وصفت لي كأفضل منطقة مزروعة في كل الوادي ، وهناك القليل من الواحات الصغيرة غربي الفرات مثل : كبيس والشدادي التي يمكن أن نعتبرها من الاسواق المهمة بالنسبة للبدو .

ومن خلال رحلتي أخشى أن نكون قد قدمنا الشيء القليل من المعلومات الجغرافية بالنسبة للرصيد العام من المعلومات . فالمدن الاغريقية القديمة مثل : الحضر تعتبر معروفة قليلا بالنسبة للاوربيين ، لانها وصفت من قبل السيد « ليارد » وعلى الاقل من قبل رحالة انكليزي آخر .

وأعتقد أن طريقنا عبر الجزيرة يعتبر من الطرق الجديدة ، وأن بحيرتي سنيسلة وأم الذيابة سوف تدون الآن لاول مرة على الخريطة ، كما تأكدت بأنه لايوجد فرع للخابور اسمه سنجار ولا أي فرع آخر اطلاقا ، لذلك يجب أن يزال اسمه من الخريطة ، لان المياه المتحدرة من سنجار الى الجنوب تنتهي كلها بالسبخات والبحيرات المالحية . أما في الحماد فقبل تثبيت موقع جبل الغراب الذي رأيته على خريطة « كيبرت » يبعد سبعين ميلا جنوب غرب موقعه الحقيقي ، علينا أن نؤكد على وجود سلسلة من البرك ذات المياه العذبة التي تغذيها الامطار في كل شتاء ، والتي تقع بين الغوطة قرب دمشق والفرات. ولم تحدد في هذه المنطقة أي شيء ذي قيمة حتى الآن ؟! فالطريق بين تدمر ودمشق أيضا معروفة ، ولكنها تحتاج الى بعض الملاحظات واعادة النظر فجبل الرواق لايسلك قمة منفصلة كما يفهم البعض ، الا أن الاسم أطلق على السلسلة الجنوبية القصوى لسلسلة الرئيسية من التلال ، وان سهل صيقل على بحيرة واسعة من الماء العذب وأخيرا حددت مواضع عدة ينابيع ، وبعض الآبار لكي يستفيد منها المسافرون في المستقبل . وبهذا العمل البسيط أعتقد أنه لا أحد بيننا سيسمح لنفسه أن يطالب بمدالية أو وسام .R. G. S(1)

---

(1) انه نوع من الاوسمة البريطانية الخاصة بالمكتشفين والجغرافيين .

الفصل الرابع والعشرون

تاريخ البادية ـ غزوات العنزة وشمر ـ انهيار الحضارة في وادي الفرات ـ اعادة فتحها من قبل الاتراك ـ مكانتهم الحالية في الجزيرة العربية ـ سجل القبائل البدوية ـ بحث عن السبعة .

ان تاريخ الحديث للجزيرة العربية الشمالية يمكن اعتباره بداية لفتح تلك المنطقة من قبل بدو شمر الذين جاؤوا من نجد بقيادة فارس منذ مائتي عام تقريبا وحتى ذلك الوقت نجد الامبراطورية العثمانية قد ورثت تقاليد أسلافها من الرومان والاغريق والمسلمين والتتار ، بمحافظتها على حدودها الجنوبية عند خط الفرات والطريق العام العسكري الذي يصل بغداد بدمشق وضمن هذه الحدود نجد ساكني البادية من رعايا السلطان ، وينطبق عليهم القانون العام للدولة العثمانية .

كانت الجزيرة والبادية السورية العليا قد سكنت في ذلك الوقت من قبل قبائل رعوية مختلفة ، بعضها عربية جاءت مع موجات الفتوحات الاولى تحت لواء الخليفة عمر ، وبعضها من القبائل الكردية التي اندفعت الى الامام نتيجة للغزوات المعاكسة من الشمال في القرنين الثالث عشر والرابع عشر . وقبيلة أخرى مختلطة الاصل ألا وهي قبيلة الموالي التي تدين بوجودها وفقا للاحداث الجارية الغريبة التي تذكرها كتب التراث :

ففي أيام الخلافة في دمشق أرسل ولد الخليفة في سفارة الى بلاط قسطنطين الثاني في القسطنطينية (١) فلفت انتباه الامبراطورة « تيودورا » التي أكرمته بعطفها ، حتى انها عندما غادر بلاطها قررت أن تمنحه منصبا مستقلا في بلاده ، اذ حملته بالهدايا وأعطته عددا كبيرا من العبيد الذكور

---

(١) رددنا على هذه الفرضية من قبل في الجزء الاول .

والاناث ، ليؤسس بهم قبيلة عربية لم تكن معروفة من قبل هي قبيلة الموالي أو المماليك . وكدليل على صحة هـذه القصة نجد البدو من ذوي العروق الصافية يزدرون عامـة الموالي ، بينما يحترمون شيـوخ الموالي ويعظمونهم مضيفين عليهم لقب بك . وهذا الشيء لم يكن معروفا في البادية من قبل(١) .

يشغل هؤلاء الموالي الضفة اليمنى لنهر الفرات . ويبدو أن قبيلة طي التي هي من أصل عربي نبيل في السهول العليا من الجزيرة تخضع لهم مـع الولدة والعقيدات والجبور والحديديين ومن يأتي منهم ، اذ لايزالون يعيشون ظروف القهر على طول واديي الفرات والدجلة .

يعتبر واديا الفرات والدجلة من المناطق التي لازالت تعتمد على الزراعة والتي تمر عبرهما التجارة مـع الهند على الرغم مـن التدمير الجزئي الذي تعرضت له من قبل التتار وفتوحات بني عثمان .

يعتبر « بنيامين التطيلي »(٢) مصدرنا الوحيد بالنسبة لوضع العشائر في العصور الوسطى ، اذ يصف ديارهم بأنها كانت مزدهرة وعديدة . فقلعة جعبر والرحبة كانتا وحدهما على الفرات في زمنـه تضمان السكان العرب بالاضافة الى الآخرين ، وفيهما أربعة آلاف من اليهود ، بينما كانت تدمر تضم ألفين فقط والحضر خمسة عشر ألفا و«عكبرا»على دجلة تضم عشرة آلاف(٣) .

ان معظم هذه المدن قد اندثر بشكل كامل الآن . وماذا كان وضعها في القرون الخمسة الماضية ؟.. لانعرفه لعدم وجود سجل يخبرنا بدقة . ويبدو أن تحولها النهائي تم بفتح شمر لها في منتصف القرن السابع عشر ، أي منذ مائتي عام على وجه الدقة .

---

(١) يطلق نيبور اسم البشر كاسم لعائلة شيوخ الموالي .

(٢) بنيامين التطيلي : رحالة يهودي اندلسي رحل من سرقسطة عـام ١١٦٥ فزار فرنسا وأيطاليا وقبرص واليونان وسورية وفلسطين وبـلاد ما بين النهرين وبلاد العرب ومصر وايران وعندما عاد كتب أخبار رحلته وتوفي عـام ١١٧٣

(٣) عكبرا : مدينة ذكرها الحميري في الروض المعطار شرقي دجلة ، وتبعد عن بغداد سبعة فراسخ على الطريق المؤدي الى الموصل .

كان السلطان محمد الرابع مشغولا بحصار « بلغاريا » ، بينما كانت الحدود الجنوبية للامبراطورية يجتاحها البدو الذين قدموا من نجد واحتلوا الحماد ، لان الحدود لم تكن محمية فاستولوا على تدمر وقطعوا طرق مواصلاتها البرية مع بغداد ودمشق ، واجتازوا التلال الشمالية وهزموا الموالي ــ اكثر القبائل المولعة بالحرب ــ في بوادي سورية العليا ، وأجبروا القبائل على الخضوع ، ومن ثم اجتاحوا وادي الفرات وجعلوا مدنه ترفدهم بدلا من أن ترفد السلطان ويبدو أن آخر صورة للحضارة قد طمست من الضفة اليمنى للنهر ، وسيطر بدلا عنها القانون البدوي حتى بئر الشيخ في الشمال ، ومع ذلك يقول العرب : ان الموالي طوال عشرين عاما استمروا في الحرب من أجل مراعيهم على الرغم من الدمار الشامل الذي لحق بهم ، واستطاعوا بضربة واحدة أن يحققوا مكاسب معينة • فبحجة عقد مجلس للتشاور استدرجوا شيوخ شمر الى مضاربهم ، وبينما كانوا يأكلون غدروا بهم جميعا ، فبقيت تلك الجريمة البشعة تذكر عن الموالي في طول البادية وعرضها ، ومنه قول العرب : بيت الموالي هو بيت العيب ــ أي البيت الذي تم فيه العمل الغادر ــ ومع ذلك لم تنته العشرون سنة الماضية حتى تم النصر لقبيلة شمر عندما قهرت الموالي بقسوة • ولكن ظهر في الساحة غاز جديد قلب موازين الحرب القبلية ، وكان هذا الغازي هو قبيلة العنزة التي جاءت من نجد هي الاخرى ، بعد أن سمعت بالمراعي الخصبة التي اكتسحها أسلافهم• وجاءت العنزة لتزاحم القبائل الاخرى على جمع الغنائم • فانحاز الموالي الى جانب القادمين الجدد ، ودفعوا معهم الشمريين عبر الفرات الى الشرق • وجد الشمريون في الجزيرة أرضا أخصب من الاراضي التي فقدوها ، فتخلوا عن البادية السورية للعنزة، وفيها أخضعوا قبيلة طي وعبروا الدجلة ليشنوا الغارات على الموصل والحدود الفارسية فعوملت مدن دجلة من قبلهم كما عوملت مدن الفرات ، حتى ان بغداد نفسها كانت مهددة • ومن الغريب أن تقف الحكومة العثمانية مكتوفة الايدي أمام هذه الاحداث المروعة ، وتنظر الى ما حدث نظرة اللامبالاة ، اذ لم تقم بأية محاولة للسيطرة على الغزاة • وكل ما فعلوه

اقناع الباشوات في الموصل وبغداد باصلاح أسوار المدن وانتظار الاحداث بصبر وثبات . شلت التجارة مع البادية بشكل كامل ، وهجرت القوافل الطرق المباشرة القديمة ، وأخذت تسلك الطريق الطويل الذي كان يمر خارج البادية مرورا بماردين وأورفا ، وذلك بسبب الخوف والرعب من البدو . وفي هذه الاثناء احتل بنو لام والمنتفك العراق وكل المنطقة الواقعة بين سورية وايران ، باستثناء عدة مدن مهجورة أصبحت جزءا من الجزيرة العربية المستقلة . وهكذا استمرت حالة توزيع القبائل فوق هذه الرقعة حتى في وقتنا الحاضر .

ان حالة القبائل البدوية في بواديها كانت في تغير مستمر ، فتعاقب فصول الخصب وتوالد الجمال بكثرة يجلب لها الثراء العاجل ، يضاف لها حنكة وشجاعة شيخ القبيلة ، لذلك نجد في بعض الاعوام أسهم القبيلة تصعد وتمتلك النفوذ اللازم ، وفي سنة أخرى تهبط لتصعد أسهم الاخرى وهكذا . الا أن نفوذ قبيلتي شمر والعنزة وسيطرتهما على القبائل الاخرى لم يكن موضع مناقشة منذ أن ظهرتا على مسرح الاحداث في الجزيرة والشمال .

كانت العنزة تمتلك الحماد وشمالا حتى حلب . أما شمر فكانت سيدة الجزيرة . أخذت الحرب تندلع بين هاتين القبيلتين منذ زمن بعيد ، فتنشط أحيانا وتهدأ في أحيان أخرى بسبب الهدنة . الا أن الصلح المطلق لم يعقد بينهما أبدا . وغارات شمر على العنزة وغارات الثأر التي تقوم بها العنزة لايمكن أن تعد بسهولة ؛ وتبدأ في كل صيف منذ أن تظهر طيور السنونو في المنطقة في آيار . وكلا القبيلتين لها تاريخ حافل في الصعود والهبوط . فشمر بقيت قوية في أذهان الناس ، ويذكرها المعمرون حتى أنها كانت تهدد بغداد بالحصار . واذا ما أخذنا وصف فتح الله(١) بعين الاعتبار يمكن القول : ان ابن شعلان شيخ الرولة كان يغزو ايران خلال السبعين عاما الماضية . الا أنني لا أملك فكرة كاملة عن معدل هبوط أو صعود أسهمهم ، لأن العنزة ومنذ زمن طويل لم تعد

---

(١) هو فتح الله سيجر أو الصايغ شاب ارمني من حلب كان يرافق السياح وضباط المخابرات أمثال لاسكاريس الفرنسي وغيره .

القبيلة المتحدة ، وتشتتهم هذا أنقذ شمر من الدمار ، وشمر أقل عددا منهم ، الا أن النزاع بينهم لا يزال مستمرا • ويمكن القول : ان عدد الخيول التي تمتلكها الاطراف المتحاربة كان له الحظ الاوفر في احراز النصر • وحسن الطالع في القبيلة كان يترافق مع العدد الضخم من الخيول الاصيلة في مضاربها • ويبدو أن هذا كان متوفرا في القبائل التي تعيش في البادية العليا صاحبة الامتياز الاول في الغزو • وحسب اطلاعي تعتبر قبيلة الفدعان والحسنة حتى وقت قريب من أشهر القبائل ، ان لم تكن من أكثرها عددا وتليها قبيلة العمارات ـ ابن هذال ـ والسبعة وولد علي جاؤوا بعدهم • ثم ظهرت الرولة بعد مدة طويلة لأول مرة في منطقة دمشق في نهاية القرن الماضي ، بينما غادرت منطقة نجد جماعة الطوف(١) والرفدي (٢) في العشرين سنة الماضية •

دونت تلك المعلومات التراثية عن تاريخ الجزيرة العربية الشمالية منذ مائتي عام تقريبا • أما الآن فقد بدأت عهود جديدة • ففي الستين عاما الاخيرة استعادت الحكومة التركية جزءا من الاقاليم الضائعة من الامبراطورية منذ زمن طويل • وكانت ذروة الحركة الاصلاحية والنشاط في عام ١٨٦٢ عندما وجد الباب العالي نفسه وفي حوزته الجيش العظيم والمال الوفير ، وذلك بعد حرب القرم التي انتهت منذ مدة ، عندما قام عمر باشا حاكم حلب وقاد جيشا مجحفلا الى الفرات ، فاحتل قلعة جعبر والدير القريتين المأهولتين على ضفاف الفرات الاعلى •

كانت الدير في ذلك الوقت مأهولة بالفلاحين العرب الذين ينحدر قسم منهم من المؤسسين للمدينة زمن الخلفاء ، وقسم منهم جاء من الموصل وأورفا • وعاشوا في استقلال مطلق عن العنزة تحت ظل الحماية ، ولكنهم استاؤوا من تدخل الاتراك في شؤونهم ودافعوا عن المدينة ببسالة • الا أن عمر باشا كان قد جلب معه المدفعية واحتل الموقع بالقوة ولم يواجه مقاومة تذكر • تمركزت

---

(١) الطوايف : عشيرة صغيرة تقيم في الجولان قرب دمشق وترحل الى انحاء حمص •

(٢) رفيدة الشام قسم من ربيعة ، ورفيدة بن عز بطن من عنز بن وائل •

حامية تركية في الدير وبنت مواقع الحراسة على الطريق بينها وبين حلب ، ثم أصبحت الدير باشوية تحت حكم والي حاب • وأعلن بأن الجزء الاعلى من الفرات يعتبر جزءا من الامبراطورية ، بينما أخذت العنزة تكتفي بسلب القوافل التي تسير على طول الفرات الاسفل ، ودون أدنى جهد أخذت تبسط سيطرتها على المدن •

أخذت السياسة التي اتبعها مدحت باشا تعطي ثمارها كاملة في السنوات الماضية عندما كان حاكما لبغداد ، اذ أكمل أبنية مواقع الحراسة حتى أوصلها الى الرمادي ، و « عنة » بالنسبة لبغداد كالدير بالنسبة لحلب ••• وهكذا استقرت حاميات الحراسة على طول وادي الفرات ، فأخذت القوافل تسير على الطرق بسلام ، كما وضعت عدة مدن على الدجلة تحت حمايتهم • ومنذ ذلك الوقت بذلت جهود كبيرة لتشجيع القبائل الصغيرة على الزراعة؛ فحققت بعض النجاحات جنوبي بغداد ، كما أمنت الحماية لقبيلة الدليم وشمر طوقة و « البومحمد » ، لكي تسقي من ضفاف النهر وتزرعها بالقمح • حتى انني سمعت دون أن أكون شاهد عيان بأن قبيلة المنتفك ـــ القبيلة القوية في جنوب العراق ـــ قد أصبحت مؤخرا قبيلة فلاحية مجدة • أما فرحان شيخ قبيلة شمر فقد أنعم عليه بلقب باشا وبراتب سنوي قدره ثلاثة آلاف جنيه لقاء تعهده بتحويل قومه البدو بالطريقة ذاتها الى فلاحين مخلصين • وكم من مرة سمعنا فيها أصداء نجاح هذه السياسة ، الا أنه لم تجر أية اختبارات حقيقية • ويبدو أن الامر يرتكز على حقائق وهمية ، لأن فرحان هذا كان قد جمع بالفعل عدة مئات من العرب في الشرقاط ، فبعضهم من شمر ومعظمهم ممن نبذتهم قبيلة الجبور والقبائل المغمورة الاخرى على نهر دجلة ، وبمساعدة هؤلاء تظاهر فرحان منذ عدة سنوات بأنه يزرع الوادي • وكان هذا الادعاء واضحا في اقامة مخيم فرحان في الشرقاط ، الا أنه من خلال كامل رحلتنا كلها بين قبيلة شمر لم نر أي أثر للزراعة المزعومة ، غير أن المشروع كان في بدايته ، ولم يحالفه الا قليل من النجاح من أجل جعل العنزة رعايا مسالمين للباب العالي •

سار أرسلان باشا ـ خلال فترة حكمه في الدير ـ بفرق كبيره من المشاة ضد قسم من السبعة الذين وجدهم يخيمون قرب الفرات ، فطوقهم وأمرهم بأوامر السلطان أن يتخلوا عن حياة البداوة ، ويصبحوا مثالا مخلصا للوجود والاستقرار في الارض من أجل الزراعة . الا أن البدو لم يجدوا موقفا يبعث على القرف ، ويعتبر بمثابة اهانة لهم مثل ما وجدوه في هذا الاقتراح ، فاحتجوا في البداية الا أنهم وجدوا جمالهم يهددها الفناء . وباعتبار أنه لا خيار لهم وافقوا أخيرا تحت حراب الجنود . فتبدوا سلسلة من البيوت الطينية في مناطق مختلفة من الوادي . وفي هذه البيوت كانوا في حالة تذمر لا توصف ، لكنهم تظاهروا بالعيش فيها طالما وجد الجنود بينهم للحراسة . وما ان مضت على هذا الوضع ثلاثة أشهر حتى وجد الباشا أنه يحتاج لرجاله في مكان آخر فسحبهم دون تأخير عندها عاد البدو الى البادية ، وبقيت القرى الطينية فارغة على الوادي بدون سقوف . وبقاء آثارها هو النتيجة الوحيدة لتجربة أرسلان باشا ، ومع ذلك لا زالت الاراء متفائلة بان الباب العالي سينجح في محاولاته ، وبدون شك لو حصل ذلك لكانت فوائده عظيمة في المنطقة ، ويمكن عندها تحقيق بعض السيطرة على شمر والعنزة ، لأن ذلك سيضعهم تحت سلطة القانون . وطالما أنهم لا يملكون مواقع ثابتة فان الحكومة حتى وان كانت مدعمة بأقوى جيوش العالم لن تستطيع فرض الجزية عليهم ولا مراسيم الدولة الاخرى . أما الحملات التي تحصل بين وقت وآخر ، فالبدو يسمعون بها ولا يسمحون لأنفسهم بالمباغتة كما حدث لأرسلان باشا مع السبعة . فهم على علم مسبق بكل ما يجري في المدينة ، وعند سماعهم أخبار أية حملة تتحرك نحوهم يزيلون خيامهم بسرعة ، وما داموا في البادية فان تجد قوة في العالم يمكنها السيطرة عليهم لأنهم يتفرقون في مجموعات صغيرة ، وتتفرق بهم السبل في السهول والمراعي الجافة غير النافعة . ويبدو أن الامر يختلف جدا مع القبائل الصغيرة . فهم بدو فقط عندما يتحركون بخيامهم وأغنامهم الى أميال عديدة أعلى أو أسفل الوادي ، لكنهم لا يبتعدون عن النهر أبدا . وهم يدركون مسبقا فوائد العيش تحت ظل سلطة مستقرة تحققها الحكومة التركية .

ان هذه القبائل تعتبر اليوم في أمان من التحرشات الدورية التي تأتيهم من البادية فبدأ رجالها يحرثون ويبذرون الذرة ، ومع ذلك تعتبر حالة تعلقهم بقطعان الماشية لا توصف ، ولهذا يفضل تركهم في خيامهم على اجبارهم للسكن في البيوت المبنية لأنه لا توجد حياة أتعس من حياة الرعي والعيش في أبنية ثابتة .

ان القبائل ذات الحياة المزدهرة هي التي استقرت ، بينما بقيت تحيا حياة بدوية خالصة وكفت أذاها عن القبائل الاخرى . وحيثما وجدت الانعام والجواميس تكون القبائل التي تملكها مزدهرة فقبيلة الجبور على الدجلة ، والسبخة على الفرات تعتبران مثالين ممتازين من السكان المجدين الشرفاء ، ولكنهم عرق رعوي بحت يعيشون مع ماشيتهم على مدار العام في نفس المنطقة جاعلين من أنفسهم رعايا صالحين كما يريد السلطان ويرغب . والحديديون هم ايضا مثال رائع لما يجب أن يكون عليه البدو الخالصون . اذ لا يربون سوى الاغنام مع جمال معدودة تستعمل في النقل ، ولهم سمعة ممتازة من النزاهة والاخلاق الحميدة في البادية . فمواطنو حلب والموصل يعهدون بأغنامهم اليهم كل شتاء ، وهم قانعون بهذا الترتيب . والحديديون هم أكثر القبائل ازدهارا كنا قد زرناهم ، والولدة الى الغرب يتمتعون بسمعة مماثلة من الشرف الا أن سنين القحط والجفاف الاخيرة وابتزاز حكومة حلب قد أفقرتهم عما قبل . ولكن التشجيع المناسب والضرائب المخففة يمكن أن تبقي البادية الشمالية بسكان الرعي الاثرياء الكثيرين ، وهو الشيء الذي لم ينو فعله أي شخص حتى الآن .

ليس من الخطأ من الناحية الاقتصادية تشجيع الزراعة في كل أرض يمكنها أن تعطي محصولا . ولكن من أجل جني الفائدة كاملة في البادية على مدار العام يجب أن تبقى بعض المراعي كاحتياطي يعتمد عليه في سنين الجفاف وأيام الحر الشديد في الصيف . وأظن أن احتلال المزارعين الاوربيين لمثل هذه المراعي في الجزائر لم يكن اجمالا ذا فائدة للريع الاستعماري . وهدف الحكومة الرشيدة في الجزيرة العربية الشمالية يجب أن لا يحصر في اجبار سكانها من البدو على حياة الاستقرار كالقرويين . ولكن يجب أن يترافق مع

تشجيع القبائل التي تمتهن الحرب بالتخلي عن الحرب • ويمكن تحقيق هذا الهدف باظهار فوائد السلم واعطاء الامان لكل من لا يرغب بالقتال منهم • فالبدو الاغنياء والناس الاخرون دوافعهم قليلة باتجاه السطو على الطرق العامة•

تهيمن الحكومة التركية في الوقت الحاضر وللمرة الثانية على الفرات وعلى جزء كبير من وادي الدجلة مع السهل العراقي الواقع جنوب بغداد ؛ بالاضافة الى حيازتها بعض الواحات المعزولة في البادية نفسها • فقد احتلت تدمر ويديرها اليوم مدير تركي ، وفرضت الضرائب على المدن الصغيرة والقرى في جبل العسور وجبل سنجار . والقوافل المحمية يمكنها أن تمر بأمان من حلب الى بغداد عن طريق الفرات ومن دمشق الى الدير • وباستثناء ما حول هذه الطرق والخطوط لا يزال البدو يتمسكون بطرقهم • وعلى الرغم من أن مرورنا الآمن عبر ديارهم قد أثبت أن السفر عبر الجزيرة لا يعتبر من المستحيلات كما يظنه الكثيرون حتى دون حماية • الا أن جماعات من تجار بغداد ، ذوي السفر الدائم لا يزالون يفضلون الطرق الملتوية الآمنة عبر ديار بكر الى الموصل •

وفي مجال مقارنة شمر بالعنزة من ناحية العدد سمعت من يؤكد بأن النسبة ثابتة ألا وهي ثلاثة الى سبعة • وأعتقد بأن هذه النسبة صحيحة لأن العنزة أكثر من شمر ، على الرغم من أن الارقام الحقيقية عبر معلوماتي بلغت الآلاف وعشرات الآلاف • ويبدو أن التعامل بالارقام يبدو أكثر صعوبة •• ولكن أبقي على التناسب السابق المسموح به حسما للمبالغات • وأعتقد أن اثني عشر ألفا وخمسمائه تسري الى ثلاثين ألف خيمة من العنزة لن يكون بعيدا عن الحقيقة • واذا ما حسبنا معدل أربعة أشخاص في الخيمة الواحدة فتصبح الارقام على الشكل التالي :

خمسون ألفا مقابل مائة وعشرين ألف شخص بشكل شامل • وفيما يلي سجل كامل لقبائل شمر قدمته لي لجنة الاعراب والفلاحين والبدو في الشرقاط ، وراجعه لي فارس بنفسه :

شمر الجزيرة :

جميعهم من البدو الاصلاء ويملكون الإبل والخيول ويحملون الرماح ، ويعترفون بسلطة شيخ عام هو من آل الجربا الذين يتحدرون من فارس زعيم القبيلة ؛ الذي قادهم من بلاد نجد في القرن السابع عشر • شيخ شمر الحالي هو فرحان ابن صفوق على الرغم من أن قسما من القبيلة وربما ربعها قد انشق عن فرحان ويعيش بامرة أخيه فارس ، وشمر الجزيرة هم فرع من شمر في جبل شمر . ولا يزالون يحافظون على علاقات طيبة مع أقربائهم هناك •

يهاجر شمر الجزيرة شمالا وجنوبا حسب الفصل ، ولكنهم لا يبتعدون جنوبا في فصل الشتاء الى أبعد من مدينة « عنة »، ويفرضون الخوة على القبائل الصغيرة في الجزيرة وهم مستقلون عن الحكم التركي •

انظر الجدول

الجربا(١)	رئيسهم فرحان ابن صفوق	خيامهم ٢٠٠٠
الهضبة	رئيسهم محمد ابن جليدان	خيامهم ٥٠٠
العصلان	رئيسهم مطني	خيامهم ٤٠٠
الصايح	رئيسهم ميزر	خيامهم ٥٠٠
العليان	رئيسهم عرسان ابن دايس	خيامهم ٣٠٠
العبدة	رئيسهم فردي ابن شرهان	خيامهم ١٠٠٠
الشديد	رئيسهم بداي	خيامهم ٣٠٠
القعيط	رئيسهم بدر	خيامهم ٥٠٠
الدغيرات	رئيسهم حيزة ابن هشمي	خيامهم ٥٠٠
الفداغة	رئيسهم هجر ابو وتيد	خيامهم ٧٠٠
العامود	رئيسهم سلطان ابن عرفان	خيامهم ١١٠٠
العفاريت	رئيسهم مراثى ابن شيهان	خيامهم ٥٠٠
المنيع	رئيسهم ابن رشام	خيامهم ٨٠٠
الثابت	رئيسهم جاسم الاحدب	خيامهم ١٠٠٠
اللهيب	رئيسهم حسان الدرويش	خيامهم ٤٠٠
الصديد	رئيسهم ميزر	خيامهم ٤٠٠
الحمير	رئيسهم جلاد الدوبا	خيامهم ٤٠٠
مجموعات اخرى		خبامهم ٧٠٠

المجموع ١٢٠٠٠ خيمة

---

(١) تقسم شمر الى القبائل الكبيرة التالية : الاسلم عبدة، الخرصه. سنجارة. وقد ركزت الليدي على المجموعات الفرعية من شمر ، وجاء التقسيم مشوها : فالعصلان فرقة من الاسلم ، والدغيرات من عبدة ومنهم الشديد. والمنيع من الاسلم ، والحمير من سنجارة ، واللهيب من الصايح، والصديد هم رؤساء الصايح ولهذا جاء اسم ميزر مكررا .

احـلاف شمر :

قبائل ترفد شمر . وتعتبر مستقلة في معظمها عن السلطة التركية :

١ ــ الزوبع : قبيلة بدوية تملك الابل والخيول وتحمل الرمح ، يسكنون جنوب الجزيرة حتى ملتقى نهر دجلة بالفرات • شيخهم الحالي : زاهر الحمود وخيامهم « ٥٠٠٠ » خيمة •

٢ ــ الحديديون : قبيلة رعوية غنية مسالمة شريفة، تملك بعض الابل أو الخيول • يعهد اليها فلاحو الموصل وآورفا وحلب بأغنامهم لكي يرعوها أثناء الشتاء • يشغلون أعالي الجزيرة وتلال شمال سنجار • شيخهم من عائلة ابن رونـــان وخيامهم « ٢٠٠٠ » خيمه •

٣ ــ طي : قبيلة بدوية صافية في البداية ، وكانت قوية في الجزيرة العليا. ومن أحلاف طي في جزيرة العرب • يسلكون الابل والخيول ويحملون الرماح ولكنهم من الاغنياء المسالمين ولديهم قطعان كثيرة من الاغنام • وشيخهم الحالي هو عبد الرحمن ، ويعتبر من عائلة نبيلة جداً ، وخيامهم « ١٠٠٠ » خيمة •

٤ ــ جيس : قبيـلـة مولعة بالحرب ولكنها ليست ذات أصـــل عربي خالص ⁽¹⁾ • يملكون الجمال والخيول ويحملون الرمح ويشغلون أقصى الشمال الغربي من الجزيرة • وشيخهم عبد الله وخيامهم « ١٠٠٠ » خيمة •

٥ ــ البوحميد : قبيلة صغيرة شبه بدويه تشغل المنطقة مابين جبل حمرين وجبل سنجار • شيخهم فرحان وخيامهم « ١٠٠٠ » خيمة •

٦ ــ الجبور : قبيلة فلاحية غنية ومعظمهم غير مسلح يشغلون دجلـه فوق تكريت والخابور . حيث يرعون قطعانا ضخمة من الجاموس والمواشي• يضيفون الغرباء . ولكنهم يقبلون النقود عما يقدمونه • خيامهم « ٤٠٠٠ » خيمة •

---

(١) يبدو أن الليدي لا تعلم بأن النسابة في الجزيرة وبعض المصادر تعتبرهم من قبيلة قيس العربية المعروفة التي كانت تعيش حتى قبيل القرن التاسـع الهجري على الفرات .

٧ ـ الجواري : قبيلة صغيرة كالجبور خيامهم « ١٠٠٠ » خيمة •

٨ ـ الجغايفة : قبيلة رعوية على وادي الفرات ، تعيش قرب مدينة رواه • وهم الى حد ما من الفلاحين • خيامهم « ٥٠٠ » خيمة •

٩ ـ البقارة : مثل الجغايفة ؛ ولكنها تعيش في مكان أبعد والى الشمال خيامهم « ٨٠٠ » خيمة •

السجل التالي : هو لقبائل العنزة حسب الاماكن التي تتشغلها في نجعتها الصيفية من الشمال الى الجنوب •

العنزة في شمال جزيرة العرب : جميعهم من البدو الاقحاح ، إذ يملكون الابل والخيول ويحملون الرمح . ويفرضون الخوة على القبائل الصغيرة ؛ وفي حالة حرب دائمة من الآخرين . ويتوزعون بشكل مندرج من حلب في الشمال وحتى جبل شمر في الجنوب •

١ ـ الفدعان : أكثر القبائل الصحراوية ولعاً بالحرب • وهم قوم يتميزون بالخشونة وينقصهم التمدن ، ابلهم قليلة ويملكون قليلا من الخيول من أجل التوالد ، ويعتمدون على السلب والنهب بشكل اساسي ؛ وينقسمون الى الفروع التالية : ولكل فرع شيخه المعروف •

ـ المهيد : شيخهم جدعان وعدد خيامهم « ١٠٠٠ » خيمة •

ـ التسيلات : وعدد خيامهم « ١٠٠٠ » خيمة •

ـ العجاجرة : عدد خيامهم « ١٠٠٠ » خيمة •

ـ الخرصة : وشيخهم نايف ابن كعشيش وعدد خيامهم « ١٠٠٠ » خيمة •

ومن الجدير بالذكر أن عائلتين من الفدعان هما عائلة ابن سبيني وعائلة « أبو سنون » تعتبران من العائلات الغنية التي تملك خيولا كثيرة ، الا أنهما لا تشتركان بالحرب مع قبيلتهما • ولكن يدفعون الضريبة للقبيلة •

٢ ـ السبعة : قبيلة غنية بالابل والخيول • وهم يملكون أفضل سلالات الخيل في جزيرة العرب ، ويعتبرون من ذوي الاصول النبيلة ••• ويتميزون باللطف وكرم الضيافة والشرف ولا يقاتلوز الا دفاعا عن النفس • ينقسمون الى الفرق التاليه :

ـ القمصة : شيخهم بطين ابن مرشد • خيامهم « ١٠٠٠ » خيمة •

ـ الرسالون : •••• خيامهم « ٥٠٠ » خيمة •

ـ العبادات : •••• خيامهم « ٥٠٠ » خيمة •

ـ الدوام : •••• خيامهم « ٥٠٠ » خيمة •

ـ المسكة : شيخهم ابن كردوش خيامهم « ٥٠٠ » خيمة •

ـ الموايجة : شيخهم فرحان ابن هديب خيامهم « ٥٠٠ » خيمة •

ـ العمارات (١) ••• خيامهم « ٥٠٠ » خيمة •

ومن الجدير بالذكر أن المصرب مع شيخهم محمد يعتبرون قسما من الرسالين •

٣ ـ ابن هذال : قبيلة قوية كثيرة العدد • ويعتبر شيخهم عبد المحسن الحسيدي هو وقومه من أنبل الاصول البدوية في البادية باستثناء ابن مزيد شيخ الحسنه • والهذال أقوياء وأغنياء ويملكون خيولا كثيرة العدد • وخيامهم « ٤٠٠٠ » خيمة •

٤ ـ الحسنه : كانت فيما مضى القبيلة التى تقود العنزة ، الا أنها تراجعت نتيجة لحالف الروله مع السبعة منذ حوالى ستين عاما • وعائلة شيخهم فارس بن مزيد تعتبر أنبل وأشرف أصل في البادية • وتعيش القبيلة اليوم تحت الحماية التركية قرب دمشق وعدد خيامها ربما « ٥٠٠ » خيمة •

---

(١) العمارات قبيلة مستقلة من العنزة بقيادة آل الهذال . ولكن يبدو انها تقصد العميرة من السبعة .

٥ ـ الرولة أو الجلاس : تعتبر هذه القبيلة أغنى وأقوى قبيلة بين قبائل العنزة . وعلى الرغم من أن القبيلة كلها تعرف باسم الرولة ، الا أن هذا الاسم لاينطبق الا على قسم ضئيل مستقل منهم .

تعتبر عائلة شعلان أهم عائلة بين الرولة على الرعم من أنها ليست عريقة في البادية ومشيخة الجلاس فيها وراثية . تستلك الجلاس في الوقت الحاضر القليل من الخيول لانهم تخلوا جزئيا عن استعمال الرمح واستبدلوه بالاسلحة النارية . يملك الروله « ٥٠٠٠٠ » جمل . ويروى أن القبيلة جاءت من نجد منذ سبعين عاما تقريبا . ولايزالون يحافظون على صلات حميمة مع جبل شمر . حيث لايزالون يعودون اليه في الشتاء . وهم الآن في حالة حرب مع بقية العنزة ، وخيامهم تقدر بـ « ١٢٠٠٠ » خيمة .

٦ ـ ولد علي : قبيلة قديمة اشتركت مع قبائل اخرى بالاسم نفسه في وسط الجزيرة العربية ومع ولد علي في مصر الغربية . لديهم ابل وخيول كثيرة . وحتى وقت قريب كانت قوافل الحج المنطلقة الى مكة تذهب بحماية محمد الدوخي ابن سمير الذي يحتل مكانة رفيعة في البادية . وخيامهم تقدر بـ « ٣٠٠٠ » خيمة .

٧ ـ السرحان : قبيلة في الحماد الادنى ونادرا ما تذهب الى الشمال . واعتقد أن لديهم قليلا من الخيول ، ولكنهم غير معروفين كثيرا في البادية .

٨ ـ ٩ الرفدي : شيخهم رجا . والطوف (١) : شوهدوا فقط في الصحراء الشمالية خلال الاثني عشر سنة الماضية . ويعرفون قليلا في البادية .

احلاف العنزة :

ـ الموالي : قبيلة قوية في السابق ومولعة بالحرب ولا تعتبر من الاصول

---

(١) الطوايف من عشائر الجولان السورية . ولا ندري فيما اذا كانت تقصدهم ام تقصد الطوقان من الموالي ، أم الطوقة من بني صخر ؟.

العربية الخالصة على الرغم من أن عائلة الشيخ تنحدر من سلالة أحد الخلفاء وتملك سمعة واسعة ، وتعتبر من القبائل التي تستخدم السلب والنهب فلا يعتمد عليها ، ولكنها في حلف قديم للفدعان والسبعة . وخيام الموالي تقدر بـ « ١٠٠٠ » خيمة .

— الولدة : رعاة شرفاء كالحديديين . لديهم قليل من الخيول الاصيلة ولا يملكون الجمال ، وهم من القبائل المحترمة ، ويحسنون الدفاع عن أنفسهم وخيامهم تقدر بـ « ١٠٠٠ » خيمة .

— العفادلة : قبيلة تربي الماشية مثل الجبور ، ولكنها تسكن أدغال الفرات حيث يصنعون لانفسهم الاكواخ من أغصان أشجار الطرفاء . أناس شرفاء ومسالمون ويتسلحون بالرماح القصيرة وبالبنادق ذات الفتيلة لاستعمالها في قتل السباع التي ترتاد أدغال النهر . خيامهم ربما « ٤٠٠ » خيمة .

— البوسرايا ، البوخميس ، الدليم : بعضهم من الفلاحين وبعضهم من غير الفلاحين ويرفدون العنزة ، الا أنهم تحت الحماية التركية . وهم قبائل رعوية مسالمة يقطنون الضفة اليمنى من نهر الفرات . والدليم منهم يملكون في بعض الاحيان خيولا جيدة .

القبائل المستقلة في الصحراء العليا والحماد

— اللهيب : قبيلة رجالها يقطعون الطرق ما بين حلب وحماة . وهم من الفرسان القساة .

— العمور : قبيلة صغيرة من الرعاة اللصوص في جبل العمور .

— بنو صخر : يجعلهم بعض المصنفين مع العنزة . ولكن لا أعتقد بذلك . وهم يعيشون جنوب حوران ويستقرون هناك . وهناك من يقترح بأنهم من اليهود[1] في قبيلة عساكر أو عسكر .

---

[1] اعتمدت على مذكرات بنيامين التطيلي .

— العدوان : قبيلة تقطع الطرق في شرق الاردن ، ولهم سمعة غير محمودة في البادية وشيخهم : قبلان .

الشرارات : قبيلة كثيرة العدد من البدو الخلص ويقطنون وادي السرحان جنوبا حتى نجد . لا يملكون الخيول بل يكاثرون الابل العربية . وأخبارهم لا تسر .

— العليثون : قبيلة صغيرة تحالف الشرارات . شيخ القبيلة محمد أبو نجاد ويقطن العليون في وادي عربة وجوار البتراء ...

— الصلبة : قبيلة من أصل هندي تقطن الحماد وتذهب بعيدا حتى نجد. يأتي الصلبة شمالا حتى تدمر في الصيف وهم يطاردون الغزال الذي يعيشون عليه . ولا يملكون الابل بل بضعة قطعان من الاغنام . يكاثرون الحمير ويبيعونها لضواحي المدن من الكويت وحتى حلب ويعتبرون من العشائر الوضيعة ولهم سمعة سيئة بسبب قافلة ضللوها في البادية منذ عشرين عاما ثم سلبوها ولكنهم بشكل عام لا يعتبرون من ذوي الضرر الا أنهم من الهمج الذين لا يشتركون في حروب البادية .

قبائل تحت السيطرة الجزئية لباشوية بغداد

— المنتفك : قبيلة قوية كثيرة العدد تجمع بين البداوة والفلاحة . ويقطن المنتفك الضفة اليمنى لوادي الفرات أسفل الحلة . وشيخهم عادة يعينه باشا بغداد . وعلى الرغم من أن هذه القبيلة كانت في سالف عهدها من البدو الاصلاء الا أنها اليوم تزرع سهول الفرات الادنى وقد أصبحت غنية ومزدهرة وشيخهم الحالي يدعى باسم : ناصر . خيامهم « ٨٠٠٠ » خيمة .

— بنو لام : قبيلة بدوية خالصة تحولت الى قبيلة فلاحية ، ولكن ليس الى الحد الذي وصل اليه المنتفك . يقطن بنو لام الضفة اليسرى لنهر الدجلة وعبر الحدود حتى ايران ، وخيامهم تقدر بـ « ٤٠٠٠ » خيمة .

ــ المعدان : قبيلة نصف بدوية كبيرة ، تقطن العراق ووادي الدجلة الجنوبي .

ــ البومحمد : من قبائل جنوب العراق .

ــ شمر طوقة : من قبائل جنوب العراق .

ــ البطة : من قبائل جنوب العراق .

هناك قبائل أخرى صغيرة ، وبعض الاقسام من القبائل حول بغداد . ولكن لم أجد بينها من يستحق الذكر باستثناء الصابئة .

الصابئة قبيلة تعيش اليوم في سوق الشيوخ ــ قرية على شط العرب أسفل الحلة ــ ويبلغ تعدادها كلها « ٣٠٠٠ » شخص . ووفقا لتقاليد الصابئة يرجع تاريخهم الى بدء الخليقة وهو كالتالي :

يقولون : قبل عهد نوح كان العالم كله من الصابئة ، يؤمنون بالله الذي لا يُرى ويتكلمون لغة واحدة . وكان لنوح أربعة أولاد : سام وحام ويسان ويافث . فبدؤوا في مرحلة ما بعد الطوفان يتحدثون بلغات منفصلة . وسام هو الوحيد الذي كان يحافظ على لغة والده ــ لا يعرفون أي شيء عن برج بابل ــ والصابئة هم المتحدرون الحقيقيون من نسل سام ، وحتى يومنا هذا فهم يحافظون على لغتهم القديمة ولم يبدلوها ، وهي اللغة التي يدونها كتابهم. ويصفونها على أنها نوع من السريانية .

استوطن الصابئة مصر في بادىء الامر ، وهم المصريون الذي حكمهم فرعون عندما كان يضطهد بني اسرائيل . والقبيلة الحالية تدعي أنها متحدرة من « أرديوان » أخي فرعون الذي غرق في البحر ، ومن ثم أسسوا مملكة في دمشق دامت مائتي عام بعد وفاة نبيهم يوحنا المعمدان قبل ثلاثمائة وستين

عاما من الهجرة، ثم ارتحلوا الى بغداد حيث ازدهروا حتى أطاح التتار بالخلافة • وفي ذلك الوقت استولى التتار على أربعمائة كنيسة مدمرة ، فنقل تيمورلنك كل كتبهم الى أصفهان حيث يعتقد بأنها لا تزال موجودة هناك • وهم أنفسهم تواروا عن الانظار في العراق وربما حتى في الاحساء ، وتناقصوا الى ثلاثة آلاف نسمة • ولعل ديانة الصابئة هي القضية الاكثر اثارة ، ولهذا سنذكرها في سياق هذه القصة •

يقولون : انهم يعبدون الله الجبار خالق النور والظلام ، والذي لاتدركه الابصار • ونظامهم الديني الرئيس يعتمد على المعمودية ــ كما يقولون ــ شرعة الله في جنة عدن • وآدم نفسه كان معمدا باسم الحياة الاولى والحياة الثانية والحياة الثالثة ، وكلها أسماء الله • ولكن هذا التعميد هجر وأصابه الاهمال ، ولكنه استعيد من قبل نبيهم المبشر يوحنا المعمدان •

لا يعترف الصابئة بنبي آخر ، ولا يبالون بقصص العهد القديم أو الجديد باستثناء قولهم : ان عيسى هو روح القدس ، وقد رفع من الارض ولكنه ليس الله ويؤمنون ببعث الجسد يوم الحساب ولقاء كل انسان بزوجاته في الاخرة • واذا كان الانسان من غير المتزوجين سوف يهبه الله زوجات أخريات • أما في الحياة الدنيا فالمسموح بزواجهن من النساء أربع • ولديهم أسرار مقدسة يخبز خال من الخميرة والخمر يناوله لهم قساوستهم على انفراد وفقا لطقوس سرية معينة ، ويعتقدون بهذا على أنه أنشيء في جنة عدن • أما طقوس التعميد عندهم فيجب أن تتم في ماء جار ، تغسل الخطايا ويؤمن الخلاص من الذنوب • ويعمدون الاطفال وهم بعمر الثلاثين يوما ، وتجدد هذه الشعيرة باستمرار ، والرهبان يعمدون أنفسهم مرة كل أسبوع •

يصوم الصابئة ستة وثلاثين يوما في السنة ، ويمتنعون فيه عن تناول اللحم ، ولهم أعياد أربعة : عيد رأس السنة ، وعيد القديس يوحنا ، وعيد اليوم الخامس بعد الذكرى السنوية لعمادهم ، وعيد آخر يدعى : ديما دبساس ، وهم لا يعرفون مضمون هذه الأعياد .

حصلت على هذه التفاصيل من الدكتور كولفيل في بغداد لأنه يعرف شيخهم . وبشكل عام تعتبر ديانتهم نمطا غير شرعي من المسيحية. ومن المدهش أن نجد امتداد المسيحية في الجزيرة العربية يحصل بهذا الشكل .

* * *

الفصل الخامس والعشرون

ابناء سام اول مولود لنوح
على حالهم والى الابد كالاطفال عند الباب
في جنة عدن ... واي عار جلبوه
وهم يتثاقلون .. بينما سبقهم الى المجد الاخرون
يفخرون جدا بحراثة الارض ولا يبالون بالفقر
يعيشون بنعمة الله دون شكر .. لا يؤدون
حقه ولا يتضرعون اليه ولا يتوسلون اذا ما اشاح
بوجهه عنهم ! يارب ! منك الغيث والضياء
ولك الحكمة الازلية في عالمنا المنسي وانت
على عهدك الذي لم يعرف الفناء .
هل لنا ايضا نحن ابناء يافث ان نعيش الخوف ؟
علينا ان نوقف الانفعالات الفارغة ، وان نستمر في الحياة .
وكلما تطلعت اليك يا رب ... انحني ولا اجادل .

السمات الطيبة للبدو الاعراب ــ قصيرو الاعمار ــ أفكارهم الخاطئة ــ انسانيتهم ــ احترامهم للقانون ــ يتخلفون عن غيرهم في مجال الصدق والاعتراف بالجميل ــ حبهم الطفولي للمال ــ كرم الضيافة ــ نساء البدو .

يبلغ طول البدوي العربي الاصيل غالبا أكثر من خمسة أقدام وستة انشات ، ولكنه دوما بأطراف طويلة لا تتناسب مع قده ، بينما القماش الذي يخيط منه لباسه يتماشى مع هذه الهيئة وهذا الطول . أما من حيث الشكل والمظهر فيتميز بالخفة والرشاقة ولا أتذكر مثالا يثبت العكس ، الا اذا كان ذلك المثال هو محمد الدوخي شيخ ولد علي الذي كان فعلا يميل الى البدانة!. والسمنة الحقيقية غير المعروفة بين البدو الاقحاح ، واذا ما شاهدوها عند الآخرين فسوف ينظرون اليها بشفقة مزرية على أنها نوع من التشوه الجسدي.

شباب البدو غالبا ما يكونون من ذوي المظهر الحسن والعيون اللامعة وعلى شفاهم ابتسامة جميلة ، وفي أفواههم أسنان ناصعة البياض . ولكن بعد سن الثلاثين تجد في وجوههم العبوس بسبب عادة تقطيب الحاجبين الدائمة لحماية العينين من أشعة الشمس ، وهذا ما يضفي على الوجه تعابير قاسية تتنوع بتنوع شخصياتهم الحقيقية .

ان المران القاسي وندرة الطعام قد أذبلت في الماضي وجناتهم ، بينما قلبت الشمس بشرتهم الى الالوان السمراء الهندية على وجه التقريب . وفي سن الاربعين تشيب لحى البدو ، وفي الخمسين يتحولون الى شيوخ . ونادرا من يصل منهم الى سن الستين ان سبب هذا الفناء المبكر يجب أن يبحث عنه في طريقة عيشهم . فهم ومنذ عهد الطفولة يشبون على التدريب الشاق وشظف العيش، اذ يأكلون مرة واحدة في اليوم من أجل الاقتصاد وينامون على الارض، وكل هذا يؤمن لهم صحة ممتازة ومتعة كبيرة تنسي قدراتهم في الوقت الذي تعتاد فيه أجسامهم على السرعة ثم تعقب هذه الفترة من النشاط فترة خمول معينة لا يقومون فيها بأية اجهادات غير ضرورية لأنه لا توجد أمام الرجال الا أعمال قليلة يجب أن تنجز اذا ما زالت دوافع المغامرة والاثارة . وفي مثل هذه الظروف لا يوجد أي سبب يدفع الفرد لمغادرة خيمته لذلك لا تجد سوى عدد محدود من الرجال خارج الخيام .

ان المكائد السياسية تجعل البدو يتحسبون لخزن المؤن ، وهذه المهنة تأخذ منهم الوقت والعمل العضلي . وكثيرا ما تترك حملات الغزو آثارها في سلوكيات الشباب . واذا ما توقف الغزو تجد أيام البدوي تمضي في كسل وخمول .

يتميز البدوي بردة الفعل السريعة والانفعال . والرجال وهم في سن الاربعين ــ ونخص منهم ذوي المراتب العالية ــ يشتكون من عسر الهضم ومن الروماتيزم مع بعض الامراض التي تسببها حياة الخمول . وعند أول مرض

يتعرض البدوي لموت أكيد لأنه لا توجد لديهم فرص للشفاء . وهم كأحياء البراري يموتون في السهول المفتوحة وحدهم ، لأن الاطباء لا وجود لهم هناك . والبدوي لا يعرف الاعشاب الطبية ، والمريض ملزم مهما كانت حالته المرضية بالتحرك مع القبيلة عندما ترحل ، فيوضع على جمل يتشبث به قدر استطاعته في الحر والبرد وفي الريح والمطر وتحت الشمس ، ورأسه يتدلى نحو الاسفل وربما أخفض من أرجله ، ويمنعه من السقوط مساعدة أبنائه وزوجته التي تمشي بقربه . أما في الخيمة فيستلقي محاطا بأصدقائه الذين يواسونه في محنته ويسامرونه حتى يموت . وحتى الجروح ربما تكون مميتة على الرغم من الحالة الصحية للبدو نتيجة لاحاجة الى الهدوء ونقص المعرفة بأساليب المعالجة .

ان البدو يفضلون أن يموتوا هكذا ، ويواجهون نهايتهم دون خوف . وفي بعض الاسر يكون شرفهم في ألا يموتوا حتف أنفهم . وبشكل عام نجد اعتلال الصحة وضعف القوى في مرحلة الشباب شيئا غير معروف بين البدو . ومن أجل متعة الحياة نجد البدوي يفعل في حياته القصيرة أكثر مما نفعله نحن في كامل حياتنا .

لقد قيل الكثير عن حاسة البصر القوية وعن حاسة السمع عند البدو . ولكنني لا أجد أنهم يفوقون الاخرين بهما ، وعلى العكس من ذلك أجد حسر البصر شائعا بينهم . والبدوي العادي لا يرى ويسمع أكثر من الايطالي أو اليوناني أو الاسباني . وعندما كنا في البادية كانوا يطلبون منا باستمرار أن نبين لهم ماهية الاجسام البعيدة . أما عن قدرتهم على الاهتداء في البادية فربما تكون من باب المبالغة . فالبدو بطبيعة الحال يعرفون المنطقة التي يعيشون فيها جيدا ، وهذه المنطقة غالبا ما تكون كبيرة ولكن اذا ابتعدوا مرة خارج حدودها فستجدهم عاجزين تماما عن السير . والعنزي من البدو لا يماثل سكان أمريكا الجنوبية الذين يشقون طريقهم بمساعدة الريح أو الشمس ، ويحافظ على هذه المعرفة يوما بعد يوم حتى يصل الى غايته ، بينما نجده يرتحل من نقطة علام

الى أخرى • واذا ما خذلته هذه فسوف يعتمد على المعلومات التي يقدمها الرعاة الذين يصادفهم في الطريق وربما من ساكني الخيام • واذا ما كانت المنطقة غير مأهولة فانه يصاب بالهلع • والعيش في البادية يتحدث عنه البدو دوما بخوف، وهو بلهجتهم « الچول » أو البراري • ولم يكن بمقدورهم أن يفهموا كيف أمكننا المغامرة بدون مرشدين في أراض مجهولة ! وهم يعجزون عن السير في طريق مستقيم طوال اليوم لانهم لا يعرفون حساب الحركة التدريجية للشمس من حولهم • والشخص الوحيد الذي قابلناه ويمتلك تلك المقدرة هو رجل شمري طاعن في السن رافقنا في الجزيرة على الرغم من كونه ضعيف البصر •

تسير القبيلة البدوية في هذا الاتجاه وتذهب الى آخر ، وتتخبط في اليمين واليسار نحو غايتها، ولا تسير بخط مستقيم، وكأنهم في غموض ذهني في المسير • لا تبرز القوة العضلية جلية واضحة عند البدو ، الا أنهم من البشر النشيطين الذين يتحملون الصعاب ••• يسرعون في المشي وفي الركض ، أما على ظهر الخيل فهم لا يكلون ولا يملون • وهم من الفرسان على كل حال وذلك بالمقاييس العادية ، أما اذا قارناهم بفرسان السباق فلا نجدهم من المتفوقين • وقليل منهم من يتقن الركوب الجيد ، بينما عن أيديهم فمن الصعب علي أن أحكم لأنهم يستخدمون الرسن فقط ، ولا يعرفون المهارة القليلة ، في اظهار فائدة الحصان، ولا يقتصدون في صرف جهده • وطريقتهم الوحيدة بالعدو بالحصان هي ركوبه بالايدي والارجل من البداية وحتى النهاية ، ولكنهم يمتلكون مهارة فائقة في الاستدارة والانعطاف بقوة والاستفادة من الارض في المطاردة أو الهرب • وجدارتهم كمروضي خيل هي في صبرهم الذي لا يعرف الحدود أو التعب ، والغضب مع الحيوان ليس من طبعهم • ولم أرهم أبدا يضربون أو يسيئون معاملة خيولهم ولا بأي شكل • والصبر في الواقع من الميزات الرئيسة التي يتميز بها البدوي • أما عن الشجاعة ــ على الرغم من أنها تحتل المقام العالي ــ

فتعتبر غير ضرورية للبدوي وحتى للشيوخ وأحيانا يقولون لم يمنحني الله الشجاعة في فعل كذا •• لذلك لم أقاتل ، وهم يعترفون كما يعترف الصياد الانكليزي بأنه قد فقد السيطرة على نفسه • وأصحابهم لا يوجهون النقد لمثل هؤلاء الناس ولا يضحكون منهم •

يولع الشباب البدوي بالمغامرة . وينطلقون في حملات السلب من أجل المجد والمكاسب • وغالبا ما يتعرضون لضربات قاسية • وكثير منهم من يحمل الجروح الكثيرة التي تظهر بادية على جسده ، بينما لا تلصق بهم فكرة العار اذا ما هربوا في يوم من الايام حتى وان كان الهاربون يتمتعون بقوة أفضل ؛ والبدوي في جوهره انسان طيب يحب الخير ولا يبطر ، فاذا ما قتل رجلا في الحرب تجده يخفي الحقيقة ولا يجاهر بها ، بينما الجريمة لمجرد الجريمة أو القتل العمد فغير معروفة بين القبائل . وهم لا يتلذذون باراقة الدماء كما تفعل بعض الاجناس البشرية الاخرى •

والصدق عند البدو لا يعتبر في الامور العادية فضيلة ، والكذب لا يعتبر عيبا ، وهم يقولون : لكل انسان الحق في أن يخفي ما ينكر به • أما في الامور ذات الاهمية فيؤكد الحدث بقسم يمين • واذا ما تم ذلك يمكن اعتبار الحقيقة التي أقرت مؤكدة ويمكن الاعتماد عليها • وهناك استثناء لهذه القاعدة العامة• فالبدوي لا يكذب اذا ما سئل عن سلالة فرسه ، فقد يرفض أن يجيب ، وربما يقول : لا أعرف ولكنه لن يعطي اسم سلالة أخرى غير السلالة الاصلية التي تنتمي اليها الفرس، وربما يكون السبب بأن الخداع لا يمكن تبريره بين البدو؛ اذ لا توجد أسرار في المعسكر البدوي ؛ وكل شخص يعرف فرس جاره كما يعرف فرسه • وعلى كل حال تعتبر القاعدة المستثناة محدثة ومعترفا بها • وقد لاحظت أمثلة كثيرة أخبرت فيها بصدق عن هذا الموضوع المثير للتشكوك . ان وجد الشاهد أو غاب على حد سواء •

سألت رجلا مسكينا كان قد أحضر فرسه لبيعها : ما هي سلالة الفرس ؟

فأجاب قائلا : شويمة • فقلنا : اذا هي ليست من سلالة شويمة سباح • فقال : لا شويمة قال هذا وهو يعرف بأن السلالة الأولى لو ذكرها لارتفع ثمن الفرس ثلاثة أضعاف • وهذه القاعدة بطبيعة الحال لا تجلب نفعا لتجارة الخيل ، بينما نجد في بعض الاحيان اضطرابا في تحديد عمر ونوعية الملكية بالنسبة للحصان• وقد تعطى خاطئة لعدة أسباب •

أما فيما تتعلق بالشرف والاخلاص فالبدوي على عكس القبائل المولدة• فبين هؤلاء تكون السرقة قاعدة ولا يتحرجون من كلمة الحرامي التي يمكن أن تطلق عليهم • فالقبائل الكردية وشبه الكردية في الجزيرة السورية العليا لا تعتبر السرقة مسألة تمس بالشرف . بينما العربي البحت يعتبر ذلك عارا •

ان الاعمال اللصوصية التافهة تعتبر غير معروفة بين العنزة أو شمر ، وخلال كامل رحلتنا لم نفقد بهذه الطريقة أكثر من شلنغ واحد ، بينما تعتبر أعمال اللصوصية على الطرق العامة مسموحا بها ، وأكثر من ذلك تعتبر حقا مكتسبا لهم • وعلى المسافرين الذين يمرون دون مواكبة مناسبة من احدى القبائل أو بتعريف منها ، فعليهم أن يتوقعوا خسارة حيواناتهم وبضائعهم وثيابهم وكل ما يملكون • ولا يلحق هذا النوع من السلب أي عار أكثر مما يمكن أن يلحقه السلب واستعباد الغرباء على الحدود الرومانية • وبموجب قوانين البادية تجب مصادرة البضائع المارة مهما كانت شخصية مالكيها •

ان احترام القانون هو في الواقع من معالم الشخصية البدوية • ولكن يجب فهم هذا القانون من زواياهم الخاصة فقط دون الاعتراف بالقانون التركي أو الاوربي • لأن القانونين الاخيرين يحتقرهما البدو كثيرا • والعدالة بمعنى العدالة لا يمكنهم تحقيقها في البادية ، الا أن الفقير هناك لا يجار عليه ولا يصيبه الحيف كرجل فقير • وكل القضايا تقرر وفقا للمعنى الصارم للقانون ومن المستحيل أن تطبق حرفيا لأن القانون غير مدون في هذه الحالة •

تحل كل القضايا التافهة من قبل شيخ العشيرة ؛ أما أكثر القضايا التي يناقشها قاضي المنطقة فهي مسائل التشرد وتحديد النسب ، بينما القضايا الهامة تحفظ لكي يبت فيها شيخ اعلى وربما يكون غريبا . وفي بعض الاحيان تترك للتحكيم من قبل ثلاثة أو سبعة أو اثني عشر محلفا . وأسوق قضية قررت من قبل محلفين يمكن أن توظف كايضاح ممتاز عن نوعية النزاعات المثارة وطريقة تقريرها :

في فرقة من السبعة تعتبر كل الخيول التي من سلالة المعنقيه التي تؤخذ في الحرب من حق عائلة معينة حسب عرف قديم من اعرافهم . والشيخ هو احد أفراد هذه العائلة . وصادف في احدى الغزوات أن فرسا معنقيه قد استولى عليها رجل فقير من القبيلة ، في الوقت الذي فقد فيه فرسه الخاصة ؛ فأخذ الشيخ منه الفرس بموجب امتيازه في الحصول على هذه الخيول . وعندما احتج الرجل الفقير وقدمت القضية أمام اثني عشر محلفا للنظر فيها والنطق بحكمها . وبعد المشاورة والمداولة اعترف المحلفون بحق الشيخ فيها ، ومع ذلك أصدروا حكما لصالح المدعي فأعطيت الفرس للرجل الفقير . أما القضيه الغريبة الاخرى فهي الدعوى التي شهدناها في مضارب ولد علي بين جدعان وزوجته والغريب أيضا في مثل هذه المحاكم البدوية أنه لا يوجد موظف من أي نوع لتطبيق القرارات بالقوة ، لأن الرأي العام وحده يجبر الناس على اطاعة القانون . وفي حالات العقوبة القصوى تطرد المذنب كليا من القبيلة . وفي حالات القتل يترك القانون القضية لعائلة المقتول لتثأر لنفسها ، وأخذ الثار واجب على كل أقربائه مهما كانت هذه القرابة بعيدة . والقاتل نفسه قد يقتل وهو ما يطلب دوما ، والرجل الكبير من قومه قد يستهدف بالقتل وفق المبدا الذي يقول : قتلت ابن عمي وسأقتل ابن عمك ، ودم ميت يغمر دم ميت آخر . وتنتهي الضغائن عند هذا الحد . ولكن قد يقتل من القبيلة أكثر من فرد واحد عندما يكون الثأر لرجلين وليس لواحد وتستمر الاحقاد لسنوات قبل أن يتم التعادل .

ان الالتزام بأخذ الثأر شيء مقدس جدا • ويسير الرجال مسافات طويلة لكي يجدوا أعداءهم ، وفي هذا المجال أخبرنا محمد بن طالب بأنه عندما قتل عمه من قبل جماعة معادية في تدمر ، قام رجل من بني لام وقطع مسافة طويلة من الجوف الى تدمر لأخذ الثأر •

يمكن أن يوضع حد لاستمرار الضغائن بدفع الدية التي تقدر بخمسين جملا أو مائتين وخمسين جنيها عن كل مغدور ••• هذه هي الحالات الواضحة من الخصومات والنزاعات وحالات اراقة الدم المعروفة في البادية ، وهي حالات نادرة بشكل عام •

ومن الاخلاق الممتازة عند البدو كونهم في حالة حذر دائم من اراقة الدماء ، لأن القاتل لا يتوقع انتقام أعدائه فقط . ولكن عليه توقع غضب أقربائه الذين ورطهم معه في هذا الشجار • ونتيجة لهذا القانون البربري الواضح نجد أن اللصوص والخارجين على القانون نادرا ما يتعرضون للقتل خوفا من الثأر • والبدوي معتدل في ممارساته • وقد وجدت ذلك في المثال التالي : منذ سنوات كان شاب فرنسي يدعى « دابو دوانجر » يسافر مع حارسه الزواوي⁽¹⁾ من حلب الى تدمر فسقط في أيدي جماعة كبيرة من الحسكة وكانا مسلحين بشكل جيد • فعندما ركب اليهم العرب ترجل الفرنسي وبدون أي مقدمات فتح النار فقتلت فرس الشيخ برصاصة ولم يمس العرب بسوء ، فشنوا هجوما على الفرنسيين الذين دافعوا عن أنفسهم جيدا ، وقتل الزواوي في العراك واستسلم سيده • وعلى الرغم من أن موت الفرس قد أغضب البدو لأنها كانت بقيمة كبيرة ، الا أنهم قد رضوا بتجريد أسيرهم من سلاحه وتركه يذهب بسلام • والقتل في بعض الاحيان لا يثار ، وفي بعض المناطق القليلة قد لا تكون فيها العقوبة بسببه قاسية • ونستطيع القول بأن أضعف نقطة في شخصية البدوي هي بلا شك حبه للمال ، وهذا ليس لمجرد الجمع والحرص على لم الثروة . انما هو حب حقيقي للقطع النقدية الفضية البيضاء التي يفضلونها على الذهب. علما أن حب النقود والمال يبدو من الامور العادية في حياة الاجناس البشرية .

---

(1) فرقة متشاة فرنسية كانت تتألف في الاصل من جنود جزائريين يلبسون الملابس المزركشة .

وغوته تتناسب عكسيا مع قيمة العملة ••• وهكذا فان الاطفال لديهم حب للفلوس عندما تنتابهم فكرة التملك مفضلين اياها على أي شيء يمكن ان يقدم لهم، على الرغم من أنها عديمة القيمة العملية بالنسبة لهم • وبالطريقة نفسها نجد البدوي الذي يعيش في البادية على مدار السنة ، وهو بغنى عن الحاجيات التي يقدم من أجلها النقود . ولم تتح لهم الفرصة حتى لانفاقها ، نجده يسافر الى مسافات كبيرة معرضا نفسه للهلاك وللمشاكل ويبذل مجهودا كبيرا حتى يحصل على بعض القطع النقدية • ولو كانت سفرته من أجل الاغنام أو الجمال لما كلف نفسه كل هذا العناء • أما بالنسبة للشيخ الذي لن يجهد نفسه في أن يُغرى باقتراحات عملية للحصول على الغنائم فهو غالبا ما يخرج عن وقاره عندما يرى النقود •• ونتيجة لاستغلال نقطة الضعف هذه حقق الاتراك كثيرا من المكاسب والانتصارات الدبلوماسية في البادية • وعلى الرغم من حب البدو للمال نجدهم أقل مهارة في عمليات التجارة ، ودائما عرض شراء ما يمتلكونه يعتبر عندهم من الامور البغيضة التي تصل الى درجة الادانة • وليس لديهم مبدأ صارم في التعامل مع زيادة السعر المطلوب يتناسب مع رغبة المشتري المفروضة في الشراء ، ولهذا نجد أحيانا بأن الجمل أو الحصان الذي يرفضون بيعه في بداية الامر يباع فيما بعد الى شخص آخر بثلث السعر الاصلي ، ومع ذلك فالمهارة التجارية تختلف بشكل ملحوظ من قبيلة لأخرى • فبنو صخر الذين يعدون من البدو الاقحاح يقال بأنهم من التجار المهرة كاليهود أنفسهم • وحتى بين العنزة نجد من هو ماهر بالتجارة الا أن هذه الفكرة لا نجدها دوما محبذة •

ان الرأي العام البدوي يعترف بمباهج الثروة ، الا أنه يحترم دوما الرجل غير المبالي بها • وشيوخ البدو هم أحرار فيما يمتلكونه . ويقتسمون غنائم الحرب مع أتباعهم . وحتى الهدايا التي يمكن أن تقدم من الغرباء •• والشباب أكثر بروزا في هذه الصفة من الشيوخ الكبار • ففارس زعيم قبيلة شمر الذي يمثل أعلى قيم الماضي لا يبقي شيئا لنفسه الا عن طريق الهدايا أو الغنائم . وكل شيء عنده يذهب الى خدمه • وعلى الرغم من حب البدو للمال

الا أنهم لا يقبلونه من الغرباء الذين يعيشون في خيامهم الا تحت ظروف معينة. ولعل فضيلتهم الكبيرة هي في حسن ضيافتهم ، وحسن الضيافة بالنسبة للاوربي لا يزكي النفس مثل البذل والرحمة لأنه فضيلة طبيعية ، أو كما يعتبرها علماء الاديان بالفضيلة فوق الطبيعية وهي أن الامر يتطلب شيئاً أكثر من غريزة الشعور الطيب العادي لكي يبقي المرء بابه مفتوحا على مصراعيه للغرباء وأن يذبح في كل مرة خروفا ، ويشارك الاخرين في رغيف خبزه ، ومع هذا فالبدو لا ينظرون الى هذا الامر من هذه الزاوية . بل ينظرون الى الضيافة على أنها مجرد واجب مفروض بأمر الهي وعمل أولي يدركه كل ذي عقل صحيح . ورفض ايواء الغرباء أو عدم تقديم الطعام لهم لا يعتبر عملا شريرا فقط وانما هو اهانة لله وللانسانية ويعتبر قمة في الانحطاط الخلقي . والذي يتصرف مثل هذا لا يمكنه أن يكسب مرة ثانية احترام أو تسامح جيرانه ، وهذا هو الشعور السائد بين كل القبائل العربية بدوية كانت أو غير بدوية . ولكن شدة الالتزام بكرم الضيافة قد يختلف بين قبيلة وأخرى كالجبور والعقيدات والقبائل الفلاحية الاخرى . وقد يقبل بعض العرب أن يدفع لهم تعويضا عنها ، بينما نجد العمور يسلبون الغرباء الذين يمرون بديارهم أو الذين يستدرجونهم بحجة الضيافة . ويبدو أن فضيلة الضيافة لها معنى أوسع شمولا عند بعض القبائل . فالضيف ان لم يكن من قبيلة معادية فهو آمن من كل التحرشات وحتى ان كان من الاعداء ، فبمجرد أن يترجل ويلمس حبل خيمة واحدة من المخيم فهو آمن . أما الغريب العادي فهو حر بالذهاب الى أي مكان يشاء ؛ وأن يحل ضيفا حيثما رغب ، وعادة يختار أكبر خيمة لأن حجمها يدل على مكانة صاحبها ، وهناك يبقى يأكل وينام حسب رغبته وحدود الضيافة بالنسبة للزمن غير محدود تماما ، ولم يحدد لي أحد مقدار ايامها ولا أظن بأن في خيمة الشيخ فائدة لمثل هذا ، ولم أسمع بهذه الحالة . ولكني أتخيل أنه بعد بضعة أيام نجد صديقا ممن يعتمد عليهم المخيم يلمح للوافد بأنه قد حان وقت الرحيل . وربما يندس بعض الفقراء ليتحدث عن بيت المؤونة الفارغ ، فيحث الرجل على الرحيل . ولكن ذلك مجرد تخمين مني لا دليل عليه .

في الحالات الاعتيادية يبقى الضيف ليلة واحدة ، ثم يغادر حيث لايتوجب أن يؤدي أية تحية أو وداع أو شكر ، وحتى في الخيام الفقيرة نجد أن المال لا يطلب ثمنا للاقامة أو الطعام ، وعندما نسأل في بعض الاحيان عن جدي أو خروف نأكله يعتذر البائع بقوله : لقد جلبته من خيام أخرى • وعندما تقيم طويلا في خيمة الشيخ فمن المألوف أن تعطي كروانا لصانع القهوة أو للطباخ أو لكليهما معا ان وجدا ، وهم من الزنوج طبعا ، كما يمكن أن تقدم قطعة فضية صغيرة لمن يمسك ركاب جوادك عند الركوب • أما للرجال الكبار فيمكن تقديم الهدايا عند الوصول فقط حتى لا يحمل معناها على أنها من قبيل الاجرة • وعباءة وزوجان من الاحذية وكيس من السكر للنساء هي الهدية المعتادة في البادية ، وقد ترافقها حبوب القهوة والتبغ بشكل دائم وتقبل بسهولة • والمسدس يعتبر هدية مناسبة ، ولكن لا يقبلها الرجل الكبير بدون أن يقدم هدية مقابلة • وبالتالي فمن الضروري تقدير رتبة المضيف والضيف بعناية حتى يمكن تجنب الاساءة • ويستقبل الفقير تماما كالغني وان كان على الغني أن يجلب عباءة اذا كانت الزيارة موجهة الى شيخ القبيلة •

ان الهدايا هي دائما من قبيل التشريف وليست من قبيل الاجر . وتعطى عادة للاصدقاء والى من يعتمد الشيخ عليهم • ولا يوجد هناك أي شك على صفاء نية ودوافع الشيخ في هذا المجال • والمسافرون الفقراء غالبا ما يمضون أسابيع في خيمة واحدة وقد يمرون من خيمة الى أخرى • والبدوي على حدة طبعه دائما يحتفي بهم ونادرا ما يسمحون لعواطفهم أن تنساب دون سيطرة • وكثيرا ما يقود الشجار الى تبادل الكلمات وقد يؤدي الى سحب السكين في حالة الغضب الا أن الرصانة تعد من الاسباب المهدئة الرائعة •

لا يشرب البدو مشروبا أقوى من اللبن أو الحليب الحامض المعروف بينهم ، وهم ينظرون الى كل السوائل المخمرة على أنها عار وشيء مشين ، وعلى الافرنجي الذي يأخذ الخمر معه الى البادية أن يتوقع خسارة لكل احترام هناك • والجرائم البشعة لا يمكن أن تجد لها مكانا في قاموس الذنوب البدوية مطلقا • حتى الآن تكلمت عن رجال البدو ، أما عن النساء فان وصفا قصيرا قد

يفي بالغرض عنهن ، فهن أطول أو يماثلهن الرجال في الطول ، ومن المعتاد أن ترى الكبيرة منهن بدينة أو ثقيلة المشية. أما بالنسبة للفتيات فهن من الجميلات اذا ما نظرنا اليهن نظرة تصور ذهنية ، وهن عادة بوجوه صبوحة باشة ، ونشيطات في تأدية كل الاعمال في المخيم ، يحضرن الحطب ويسحبن الماء وينصبن الخيام ويهدمنها ويحلبن النعاج والنوق ، ويقمن بعمليات اعداد اللبن وبطبخن الطعام ، وبعشن بسعزل عن الرجال ، ولكن لا يحجر عليهن أو يوضعن تحت الحصر والمراقبة .

تخرج النساء في الصباح لجمع الحطب ومعهن الجمال أو الحمير . وكل من صادفناهن وجدناهن يعملن في همة عالية وبمعشر حسن ، اذ يختلطن ويزرن خيام بعضهن بعضا ومعهن الاطفال ، ولديهن القدرة على الاختلاط بالاقارب الذكور كل حسب درجة قرابته . الا أن مكانتهن الاجتماعية في حالة يرثى لها ، ولكنهن لا يتذمرن من ذلك .

ولم أجد من يلاطفون الاطفال كالبدو . فابن الشيخ يُعتنى به ويلاطف ويلاعب من قبل الرجال في خيمة الشيخ طوال اليوم . ولا يوبخ الاطفال ولا تساء معاملتهم . والبدو الاصلاء يربون أولادهم بشكل جيد ويحرصون على جعلهم بأخلاق حسنة . وكثيرا ما يترك الاطفال في ثياب متسخة حتى سن الثالثة ، مما يضفي عليهم مناظر قذرة ، ولكنهم يقومون بذلك عمدا عن قصد لكي يحفظوهم بعيدا عن العيون الشريرة ، ثم ينظفون ويعتنى بهم كبقية الكبار فيما بعد .

ان الصفات الفكرية لنساء البادية تعتبر أقل مستوى من الرجال بكثير ، وأفكارهن محدودة جدا ، ويندر أن تجد منهن من يملك القدرة على التأثير على أزواجهن أو من خلالهم على القبيلة . الا أن أكثر من مشاهدة تثبت أن في خيمة الشيخ امرأة واحدة على الاقل بيدها أمر تقرير السياسة العامة في القبيلة .

* * *

الفصل السادس والعشرون

تأمل الشجرة اذا ما قطعت ان تنشأ ثانية ، وفروعها عند ذلك لن تتوقف عن النمو .. ولكن الانسان يموت ويفنى عندما تغادر روحه الجسد ، ولكن مسيرته الى اين ؟

● ايوب

ديانة البدو لا تتعدى حدود الايمان ــ لا يقيمون الشعائر والاحتفالات ــ الايمان والقسم ــ ايمانهم غير واضح بحياة الآخرة ــ تندر الخرافات بينهم ــ الفضيلة نظام مطلق ــ طقوس الزواج .

يعتبر ايمان البدو ايمانا موروثا منذ القدم ، الا أن البدو لا يعترفون بأية عقيدة معينة مهما كانت ، ولا يعرفون وضوح العقائد ولا الخرافات ، الا أنه لن نجد من البشر في هذه الدنيا من لا يهتمون بما وراء الطبيعة . وايمان البدو بالله يعتبر أبسط أنواع الايمان ولا يتعدى كون الله موجوداً وقد يقرن بقوى الطبيعة كالشمس والسماوات الا أن هذه لا تعتبر قاعدة عند البدو .

ان الله هو الله ، جملة يعبر بها البدو ببساطة عن كل ما يعرفونه عن الله . أما عن الكيفية والوجود والحقيقة فلم أجد أية مناقشة عنها بينهم . وأما عن الوحي الالهي فيبدو أنهم لا يعرفون شيئا عنه . والله هو القوة التي يجب أن يخضع لها الجميع ، مصدر الخير والشر في هذه الحياة ، والمسببة للمطر ووجود الشمس وعلة توالد القطعان ، والمسببة لأمراض الماشية ، الا أنهم لا يتضرعون الى الله في صلاة ، ولا يشكون من قسوته عند المرض ولا يعرفون الشكر . كما أنهم لا يسبون الله ، ويتساوى عندهم الحب والخوف منه . واذا ما كانت لهم علاقة مباشرة مع الله فهو شاهدهم الصامت في كل قسم يقسمونه في نزاعاتهم

وحتى في هذه الحالة فهم لا يتوقعون شيئا من لدنه ، ولا المغفرة من خطأ ، أو العقوبة في قسم كاذب •

ان الصلاة — من الاعمال الجسدية — لا يمارسها البدوي البحت • وحتى القبائل التي تأثرت بالديانة الاسلامية نتيجة لاحتكاكها بالمدن تكتم تدينها عن أنظار وأسماع الغرباء • وشمر وحدها من بين كل القبائل النبيلة التي زرناها كانت تملك « الملا » ودوره بينهم لأغراض دينية دون أدنى شك • ووجود الملا سببه قناعات شخصية لشيخهم صفوق وتأثره بالقناعات التركية • وسار على نهجه ولده فارس ذو الاصل النبيل، اذ لازال يمارس صلواته دون انقطاع •

ان تلك الاستثناءات الفردية تعقبها ممارسات دينية تؤخذ كمؤشرات على تدني الفضيلة في القبيلة • فالانحطاط بين فلاحي العراق واضح على الرغم من أنهم يتعصبون لاحكامهم الاسلامية الشيعية • أما عن العنزة فلا أتذكر أنني شاهدت مصليا بينهم • وعلى سبيل العادة دون المعنى الديني يكثر البدو من استخدام اسم الله وبشكل عرضي لتأكيد شيء ما ، وعليك أن تسمع منهم طوال اليوم كلمات : ان شاء الله والحمد لله ، ومعنى هذه الكلمات عندهم أقل من معنى الكلمات التي نستخدمها نحن : شكرا لله •• وان سر الله • وعبارة ما شاء الله ربما تكون مختلطة بشيء من الخرافة في مسناها ، فهي تستخدم مع حديث الاعجاب خشية الحظ السيء ، ولهذا يعتبر الامر من باب قلة الادب أن تذكر جمال فرس دون أن تضيف معها كلمة ما شاء الله • وكم من مرة صحح لنا صاحب الحيوانات التي نذكرها الكلام الذي نقوله بحقها دون ذكر الله •

ولعل الاستخدام الرزين الوحيد لاسم الالوهية هو عندما يراد تأكيد القسم • اذ ترفع اليد اليمنى ثم يشهد الله • اذا ما قال البدوي ذلك فيمكن الاعتماد على ما قال ولكن هذا الصدق في القسم لم أجده نتيجة لعوامل خوف ،

بينما نجد القسم الكاذب سائدا بين القبائل الفلاحية الوضعية ، على الرغم من أنها تدين بالاسلام . وقسم البدوي هو في واقع الامر مناشدة للشرف بمقدار ما يملك من معان دينية ، وهو يماثل الوعد القائل : على رأسي : عندما لا يستخدم معه اسم الله .

ان قسم الاخوة له سمة دينية حقيقية عند الذين يقسمونه وعندما يذكر فيه اسم الله . ويدخل هذا في جوهر الميثاق الذي أبرمه ابراهيم مع أبيسليخ(١) في بئر السبع ، وهذا القسم يلزم الذين يقسمون به أن يتصرفوا تصرف الاخوة وفي كل الظروف ، والعون والمساعدة يجب تقديمها حتى في حالة الشجار الفردي .

واذا تم عقد الاخوة بين شيخين فسوف يتبادلان العون في حالة الحرب . مع التزام كل من الشيخين بعدم القيام بعمل عدواني ضد قوم الشيخ الآخر المتآخي معه وعندما تؤخذ ابله مع غنائم قوم معادين يأتي الاخ ليناشد الغزاة استعادة الجمال بحكم الاخوة في الحال ، وأكثر من ذلك اذا كان الاخوة من قبائل متحاربة فهم لا يشتركون ضد بعضهم في صدام مباشر ، بل يترك الامر لمحاربين غيرهم . ان قسم الاخوة لا يستخف به أبدا ، أو أن يؤخذ على غير محمل الجد حتى ان كلماته تتلى بصوت هادىء خاشع وقور ، ولا يخامرها وهم أو شعور بالتفاهة قبل أو بعد القسم ، ويطلع على القسم شاهدان ، وقد يكتفى بواحد . ولم أسمع عن نقض لمثل هذا القسم ، وقد يجري هذا القسم نتيجة تعاطف حقيقي بين المقسمين لليمين ، وهم من شيوخ القبائل الذين تدفعهم الى ذلك دوافع سياسية وربما دوافع المصلحة . الا أن التآخي يعتبر خطوة أولية نحو السلام على الاقل . ان معظم شيوخ البدو يتآخون مع شيوخ المدن المتناثرة في البوادي الذين هم من دم عربي

---

(١) شخصية من شخصيات القصص الديني اللذي كانت تنقله اللبدي من كتب الاسفار .

صاف ويعرفون تقاليد الشرف في البادية • وقسم الاخوة في هذه الحالة خدمته عظيمة لكلا الطرفين للبدوي في المدينة وللحضري في البادية ، والاخوة ملزمة في كل شيء ويستثنى من ذلك حالات الزواج ، وأخت هذا الاخ لا تحرم على الآخر وهكذا نجد الايمان عند البدو موجودا بشكله الساري ألا وهو الخضوع للمشيئة الالهية وهو ما يتطابق مع تدين البطارقة القدماء • أما في وقتنا الحاضر فلم يتعد الامر كونه انعكاسا غامضا لاعتقاد قديم يعتمد على العرف أكثر من اعتماده على التصور الفكري عند البدو •

شاهدنا في مضارب شمر رجال اليزيدية الذين وصفهم العرب بعبدة الشيطان وهم يلبسون القمصان التي قصت مربعة عند العنق • وهؤلاء يتميزون بخصوصية تنتهي عند حدود البادية • ان الايمان بالعشيرة يسعد الا أن الحياة الآخرة يبدو انه لا مكان لها في تفكير البدوي • وهم كأيوب ينظرون الى القبر بمثابة أرض الظلام وبالاحرى هي الظلام بذاته ، ولا يأمل البدوي بتحقيق أية رغبات بعدها • ومن الصعب على أوربي اقناع نفسه بأنه ينتهي هكذا ، والذي لا يؤمن لن تجده ييأس لأنه لايؤمن • والبدوي يعرف أنه سيموت ولكنه لايخاف الموت ومع علمه بالهلاك نجده لايرتجف عند رؤية القبر ، وهو لا يفكر بأكثر من التذمر مما نفعل لأنه ليس لنا أجنحة ننجو بها من المصير المحتوم • أما عن تصور البدوي لعموم الكون فليس هناك مكان عنده للجنة أو النار ؛ والكلمات التي دونتها في مقدمة هذا الفصل تعبر تعبيرا دقيقا عن التفكير البدوي هذا اذا ما كان يفكر بالموت فعلا ، ولكنه في واقع الامر نادرا ما يشغل باله في مثل هذه الامور لأن طريقة حياته تمنعه من ممارسة مثل هذا التفكير •

نعاني نحن في الغرب من مرض التفكير نتيجة لزيادة اهتماماتنا وبسبب البطالة بمقدار يتناسب مع الذكاء • أما البدوي في شبابه فليس لديه وقت يمضيه في البطالة أو الخمول ؛ فهو في نشاط دائم •• ومعظم حياته يقضيها في الهواء

الطلق مما يكسبه الصحة ، والحمية من الاطعمة الزائدة والتمارين اليومية القاسية لا يؤديان بذهنه الى التفكير الخطير أو الكآبة السوداء ، والعقد التي تقود الى أفعال منعكسة لا ارادية نتيجة للعوامل الخفية ، وهو ما لمسناه في أنفسنا خلال هذه الرحلة ، اذ كانت عقولنا مشغولة اليوم كله بالاشياء التي تنتظرنا . ولم نعد نفكر الا قليلا بالماضي أو المستقبل ؛ ولكن جل تفكيرنا ينصب على تدبير وجبة العشاء . وعندما كنا نمضي ساعة بعد ساعة ونحن على ظهور الجياد نراقب الافق الذي يستدير حولنا أو عندما كنا نراقب تقدم الشمس عبر ظلال أعناق الابل ، أمام كل هذا نعترف أننا لم نستطع المضي في التفكير ؛ فآمالنا كانت تنحصر بالبئر التي علينا أن نصلها في المساء . ومخاوفنا تكمن في السلسلة المنخفضة من التلال خشية أن تخفي عدوا كان بانتظارنا . ان متعة اللحظة التي نعيشها ومتعة العيش لمجرد العيش كانت قد امتصت كل خيالنا ؛ لأن الحاضر الذي نعيشه أغلق علينا أبواب الماضي والمستقبل وحتى في لحظات الخطر لم يكن لدينا وقت للتفكير بالموت ... هذه هي الحالة عند البدو في أيام الشباب ، أما في الشيخوخة وعندما تخذلهم القوة والظروف الصحية فلن نجدهم بظروف أفضل . والبدوي يمكن أن يتم كامل أيامه من المهد الى اللحد دون أن يكون وحده لأن حياته من حياة المجتمع الذي يعيش فيه . ففي الخيمة الخارجية عندما يكون غنيا لن تمر ساعة من النهار أو يوم من السنة دون أن ترى مجموعة من الاصدقاء أو الاتباع عنده في الخيمة ، بينما في الخيمة الداخلية يمكث الاطفال والنساء والعبيد والاقارب بشكل دائم . أما ادا كان البدوي فقيرا فسوف يجلس اليوم كله في خيام الاخرين . ولن تجد البدوي يركب وحده ولو لبضعة أميال حتى وان كان على ظهر فرسه ؛ وسيخامره شعور بالخوف ان كان بدون أصحابه ولو كان من أشجع الرجال .

سبب آخر في تقديري يجعلنا نحن في أوربا نقدر ونخاف الموت ألا وهو مواجهتنا له روحيا بين وقت وآخر . أما في البادية فلا يتعرض أحد لمثل هذه

المقابلة لأنه عند أول اصابة خطيرة بالمرض يهلك الفرد • والبدو يعرفون انهم سيموتون لأنهم يرون الاخرين يموتون من حولهم ، ولكن لا يعرفون ماذا سيكون بين فكي الاسد • وهكذا مع الخوف من الموت تتوقف الحاجة الى التفكير بحياة أخرى ؛ والموت لا يسيطر على مخيلتهم ، ولا يفكرون في ماوراء حالة القبر أبدا • أما عن الخرافات فهي نادرة في البادية ، ولا واحدة منها يمكن أن تستحق التضحية بمنفعة حقيقية •

يمكن أن تجد عند البدو آراء مسبقة عن الالوان والعلامات في الخيول : فيعتبرون بعضها جالبا للحظ وبعضها الآخر جالبا للنحس • ولم أجد بينهم من يرفض حيوانا جيدا لأسباب وهمية أو خيالية • ولا تجد عند البدو أياما للنحس أو أياما لحسن الطالع • وهم لا يتطيرون لطير في الجو ولا لحيوان في السهل، ولا يحلمون ولا يرون المنامات والاشباح ، ولكنهم يلبسون أطفالهم اللون الاسود ويبقونهم في حالة اتساخ خشية العين الشريرة، ولكن أفسر ذلك بالعادة المتبعة التي تكون دون معنى •

وهتافاتهم هي كذلك معتدلة خرافية ، ولم أجدهم يستخدمونها في حالات التشاجر(١) ولا يبالون كثيرا لمثل هذه الاشياء مثلما يبالون لما تجلبه من منافع مادية • أما بالنسبة لأخلاقية البدو فهم يختلفون فيها عنا كما يختلفون في طريقة التدين فنحن نلتزم بأخلاقية تنبع من تشريعات الهية معينة ، أما بالنسبة لهم فان هذه الاخلاقية تكون نتيجة لممارسات طبيعية للامور : وهم لا يناشدون الضمير أو الذات الالهية لتبيان الحق من الباطل ، ولكن يلجؤون الى العرف والعادة ، ويعتبرونه حقا لأنه أقر على أنه حق وكذلك الباطل ، ويقولون :

---

(١) كان غانم — رفيق الدرب — يضع تميمة على ذراعه جلبها من جبل شمر لتحميه من الرصاص ، وكان يخجل من أن يدعها مرئية .

انهم يبرون بالقسم لأنهم من البدو . والاتراك يحنثون بأيمانهم لأنهم من الاتراك ، ولا يعدون ذلك عيبا .

ينظر البدو الى الخمر واللحوم المحرمة بالطريقة نفسها ، وهم يقولون : ان الصلبة يأكلون القنفذ ونحن لا نأكله . والخوض في مثل هذه القضايا لا يعتبر مجرد قضية احصائية .

نجد عند البدو ــ فيما يتعلق بالحق والباطل ــ بعض المبادىء الصارمة التي تكون واضحة بشكل عام. وتلقى دعما أدبيا من قبل الراي العام البدوي. فليس من أحد في البادية يعجب أو يوافق على الاثم والعدوان حتى ولو كان ناجحا ، ويبقى العار ملتصقا بصاحبه على الرغم من قوته وثروته . أما الشجاعة والكرم وحسن الضيافة والعدل فتعتبر من الفضائل التي يجب أن تحترم في البادية ، بينما الكذب والسرقة في ظروف معينة لا تحتمل العقاب في القانون البدوي العام ، بينما الجرائم الاخرى التي قد تتسامح معها في حالة الانحلال لا يمكن أن تغتفر عندهم بسهولة . فنقص الثقة والخيانة التي هي عامة في أوربا الحديثة تدان عندنا قليلا . بينما تعتبر عند البدو من الامور المخزية الفاضحة : وربما لا تصدق الاذن الانكليزية أن البدوي البسيط تعهد أموال ثمينة للاصدقاء ولا يسيء استعمالها ! فسكان حلب والموصل يعهدون في كل شتاء بآلاف الاغنام الى قبيلتي الولدة والحديديين ، ثم تعود بفائدة مربحة الى أصحابها في الربيع .

ان النظام البدوي لا يعرف الملكية الجماعية لا في الخيل ولا في غيرها . ودرجة النزاهة قد تختلف من شخص لآخر ، ولا يمكن اعتبارها قاعدة عامة . وفي كل القبائل قد ترى الارامل والايتام يحصلون على ملكيات هامة من الابل والاغنام دون أن يكونوا في خطر معين ، أو في خوف من أن يجار عليهم من الاقرباء . والعقيل في البادية يضرب بهم المثل في النزاهة والثقة . ولن تجد

رجلا منهم لا يحمل مقداراً كبير من المال والامانات . وقد نجد بعض المحتالين الاوغاد في البادية الا أن صفة انعدام الامانة لا نراها سائدة كما في أوربا الحديثة على شكل قاعدة عامة ، ونستثني من ذلك الحالات النادرة من اللصوصية ، فاللصوص غالبا ما يجتمعون بشكل عصابات صغيرة منفصلة عن البقية ، وربما كان أفراد هذه العصابات ممن طردوا من قبائلهم ، ومن مثل هؤلاء علينا أن لا نتوقع أي خير . أما الاشخاص المعروفون بعدم الأمانة في القبائل الكبيرة فلا يمكن مسامحتهم أو تحمل وجودهم ، وبالطريقة نفسها فان الظلم من جانب هؤلاء بالقوة يعتبر شيئا مستحيلا ، والرأي العام سيواجه ذلك فورا . وكل شيخ يحاول تجاهل القانون البدوي سيجد نفسه وبسرعة معزولا وحيدا وقد تفرق الناس من حوله .

وكثيرا ما نجد مرونة كبيرة يسمح بها القانون البدوي في أمور الطلاق والزواج والفجور وذلك في المعنى الفني لمقدار الاساءة للقوانين . ويبدو أن هذه الظاهرة تعتبر أقل شيوعا مما هي عليه الحالة في الامم الاوربية . وبطبيعة الحال يصعب على مسافر مثلنا أو على عابر سبيل غريب أن يحصل بسهولة على معلومات تتعلق بهذه المواضيع ، ولكن من كل الذين سمعت منهم أقول : ان الخيانة الزوجية غير معروفة في البادية ، ولهذه الحالة أسباب عديدة : فأولها أن كل شخص في خيمة البدوي رجلا كان أو امرأة عليه أن يعيش بشكل دائم وبوضوح . ومن الصعب أن تحاك المؤامرات أو ان تنفذ بسهولة . والنساء لا يحق لهن محادثة أي رجل سوى الاقرباء ، ولا يستطعن مثل هذا دون مشاهدة عشرين شاهدا على الاقل ، وكثيرا ما تغتاظ الاخوات والحموات وحتى الخدم من أي امرأة صممت على خرق قانون الزواج ، وأسهل عقوبة تتبع مثل هذا الخرق هي الطلاق بطبيعة الحال وأدنى شك في أي سبب حقيقي سيكون مبررا كافيا لطرد المرأة الى والديها دون أية صيغة أخرى أكثر من قول زوجها لها أمام الشهود : أنت طالق ، كما أنها تملك الحق بمفارقة زوجها دونما

سبب ولا يمكن أن تبرر الخيانة الزوجية على أساس التعاسة وعدم السعادة البيتية • ويتظاهر الرجال الكبار من البدو بعدم الاكتراث بالجنس اللطيف ، وهو فوق ما يحسون به لأن دلك لا يتلازم مع السمعة الحسنة ؛ ولا يتم تشجيع يذكر للاعمال الناجحة في هذا المجال ؛ كما أن الاهتمام الزائد بالنساء ينظر العرب اليه دوما بازدراء ، ويوصف صاحبه بالمخنث أو التركي •

سألت محمد الطالب الذي أمضى شهرا وهو يغيب عن بيته وأهله : فيما اذا كان غير متلهف للعودة الى زوجته وأولاده • فأجاب بحرج كما لو أن مشاعره قد جرحت بشحنة من الضعف وقال : لماذا علي أن لا أرغب بذلك ؟ وأنا الذي غادرت البيت بصعوبة •

ان الدعارة العلنية غير معروفة في البادية • ويبدو أن البدو الفقراء نادرا ما يتزوجون أكثر من زوجة واحدة على الرغم من عدم وجود القيود التي تمنعهم من ذلك ، ولا حتى الاغنياء يرغبون بزواج آخر طالما أنهم ينعمون بالسعادة في زواجهم الاول • والمرأة التي ترضي زوجها وتلد له البنين هي آمنة نوعا ما من مزاحمة امرأة ثانية لها في خيمة زوجها • والسبب الشائع للخلاف بين الزوجين هو فشل الزوجة في انجاب الذرية ؛ لأن نقص الورثة من الذكور لا يعتبر حظا سيئا فقط ولكنه يعتبر بمثابة العار عند البدو • وقد ينتظر الزوج سنتين أو ثلاث سنوات حتى يزمع اقامة عقد زواج جديد وربما يعيد الزوجة الاولى الى أهلها • ولكن غالبا ما تبقى الزوجتان معا في بيت الزوجية ، وهو ما يحدث شجارا حادا بين الزوجتين المتنافستين • وربما تترك المرأة زوجها لأنها لا تستطيع العيش مع ضرتها الكبيرة لأن الزوجة الاولى تبقى عادة تحتفظ بسكانتها كربة للبيت الذي تديره بنفسها ، وكثيرا ما تسيء استعمال هذا الحق مسببة كثيرا من الخلافات • ومن الطبيعي أن تطفو الخلافات الزوجية على السطح عندما تتعدد الزوجات ويعشن مع بعضهن في بيت واحد •

ان مثل هذه الامور تعتبر كريهة بالنسبة للاوربيين . ولكن العرف والعادة يجعلان النساء العربيات يقبلن بهذا الواقع ولا يعتبرن العيش مع أكثر من زوجة عملا يحط من قدرهن . ويبدو أن الشجارات في مثل هذه البيوت لاتكون عميقة الجذور أكثر من النسجار الذي يحدث بين أفراد البيت الانكليزي .

وأخيرا ان نساء البادية لهن حقوقهن التي يجب أن تحترم ، وهن لا يتذمرن اذا ما أسيئت معاملتهن ، الا أنهن لا يحلمن بأن يحصلن على معاملة متساوية مع أزواجهن واخوانهن .. ان نساء البادية سعيدات ومجدات .

* * *

الفصل السابع والعشرون

دستور البدو السياسي – الحرية – المساواة – تعصبهم للسلطة – قوانين الحرب – الظعائن .

يعتبر النظام السياسي عند البدو بمنتهى الغرابة ، لأنه يعطي مثالا راقيا لأفضل أنواع الديمقراطية في العالم ؛ وربما ديمقراطية البدو هي الوحيدة التي تتحقق فيها الشعارات التالية : الحرية . المساواة . الاخوة .

الحرية عند البدو هي أساس النظام كله . ولا نقصد الحرية القومية فحسب . ولكن الحرية الفردية كذلك التي لا تقيدها أية ضوابط كضوابط الولاء للملك أو الدولة ، والبدوي لا يدين بشيء لا يقرره على نفسه ، وهو يستقل بالعمل الحر الشخصي وبالاهتمامات الخاصة . فاذا ما استاء البدوي من شيء يمكنه أن ينعزل عن المجتمع الذي ينتمي اليه في أي وقت دون أن يسأل ؛ أو يخاف من عقاب . ومكانة البدوي في مجتمعه يذكرنا بأنه عضو في ناد أكثر من كونه من مجتمع أو رعية . ولكن طالما أنه من قبيلة فعليه أن ينصاع لأحكامها وضوابطها ، وعليه أن يشارك في كل المداولات التي تجري من أجلها . واذا ما رأى آراءه مهملة فله الحق أن يتحرر من سلطتها اذا كانت تحول دون استقلاليته . ولن تجد بدويا في البادية يتذمر أو يشتكي من الظلم لأن مواجهة ذلك وعلاج الظلم تبقى معطياتها دوما بين يديه .

ان الحس الجماعي يطغى على الحس الفردي في القبيلة ؛ والاقلية اذا كانت لا تفضل الخضوع للاغلبية عليها أن تنسحب من الهيكل العام للقبيلة لتعيش وحدها دون أن تجلب على نفسها عداوة الدولة أو أن تعرض نفسها لاتهامات

الخيانه . وحتى الفرد الوحيد يمكنه أن ينعزل عن المجموعة دون أن يسأله أحد ، وله الحرية في نصب خيمته حيث يريد . وفي أيام السلم من النادر أن تجد أكثر من خمسين أو مائة عائلة بدوية تعيش مع بعضها في علاقات يومية ؛ أما في أيام الحرب فالخوف يجمع أفراد القبيلة قرب بعض خشية هجوم الاعداء . وشعورهم بالخوف أكبر من شعورهم بالواجب . فالرولة على سبيل المثال كانوا يجمعون عندما زرناهم في سهل صيقل حتى بلغ تعداد خيامهم اثني عشر ألف خيمة لأن الحرب كانت على الابواب . وأخبرونا بأن خمسمائة خيمة بقيت منهم في نجد عندما زحفت القبيلة نحو الشمال ، وذلك بسبب الخلاف بين شيخهم وابن شعلان الشيخ الاعلى للقبيلة ؛ ومع ذلك لم يتحدثوا عن ذلك بمرارة على الرغم من أن تخلف تلك المجموعة الهامة قد أضعفهم في مواجهة المخاطر ، ولم يناقشوا الاقلية في حقها أن تفعل ما تشاء .

ان الفرد هو الاساس ، وعليه يعتمد حكم الدارس للنظام السياسي في البادية . واذا ما قارنا رجل البادية بالرجل الانكليزي المتباهي بحريته نجد كل بدوي يشعر في خيمته وكأنه في قلعة حصينة ، حيث يكون حرا فيها ويفعل ما يشاء دون تدخل أو ممانعة من جاره ، بينما يتمتع بميزة اضافية عن الانكليزي: كونه يستطيع هدم خيمته ثانية حيث يشاء ، ونجده كذلك في حل من كل سيطرة سواء أكانت من جامعي الضرائب أو من رجال الشرطة ، اذ لا يترتب عليه دفع أي مبلغ . وحتى خدماته نجده غير ملزم بها بمعنى الالزام لجيرانه زمن الحرب . غير أن الامور تجري لمصلحته اذا ما تنازل قايلا عن هذه الاستقلاليه المطلقة . فهو في هذا التنازل يحمي نفسه لأنه لا يستطيع أن يعيش وحده بتكل عملي دون أن يتوقع سلب رجال القبائل الغازية له والذين سيكون حقا طبيعيا في سلبه . عندها عليه أن يعيش مع قبيلته ـــ باستثناء بعض الامثلة النادرة ـــ ويشاركهم في الدفاع العام عن القبيلة ويشرع رمحه عند الحاجة لشد آزر المدافعين وقد يشارك مع أصحابه في أعمال الحرب والنهب التي تحتاج الى جهد جماعي . كما أنه يخضع للقوانين العامة وللانظمة الضرورية

في المجتمع البدوي • وعلى الرغم من فقره فليس لديه شعور بأنه سيقبل الانقياد لقوانين يضعها الاخرون لا من أجله بل من أجل مصالحهم •

ان النظام القبلي أشبه بنظام حكومي بسيط ، لأن القبيلة أو قسما منها على الاقل يقع تحت حكم اسمي لشيخ اختير باقتراع أصحابه • ولم نجد من مؤهلات مطلوبة محددة بالنسبة للناخب أو المنتخب ، ومع ذلك نجد الحكم المسبق الشائع هو في مصلحة القوة العليا التي توكل لعائلات معينة يختار الشيخ من بينها • والشيخ يجب أن يكون من أصحاب الثروة حتى يتمكن من تحمل أعباء الضيافة • والقيادة الموروثة يبدو أنها من الامور المسلم بها في البادية لأن ابن الشيخ الراحل أو أخاه أو عمه هو الرجل المرشح لخلافته ، ولا يتطلب الامر سوى الذكاء والجدارة غير العادية للقيادة حتى يتمكن الرجل الجديد من مزاولة مهام منصبه • ان السلطة الحقيقية زهيدة بين يدي الشيخ على الرغم من أن آلاف الرجال يطيعونه رسميا، وهو حقيقة لا يمثل الا الارادة المشتركة للقبيلة ، لأنه في الامور السياسية عليه أن يجاري الرأي العام أكثر مما عليه أن يقوده • ان الشيخ الذكي جدا أو الشجاع سيجد نفسه بعد مدة مزودا بقوة داعمة حقيقية لا لمركزه ولكن لشخصيته • ويبدو أن مثل هذا الرجل يبقى بشكل عام هو المفضل بينما يكون الشيخ الضعيف مجرد ممثل أو رمز للقبيلة •

على شيخ القبيلة مجموعة من الواجبات يقابلها القليل من المنافع • وعلى عاتقه تقع مسؤولية حل قضايا النزاع الصغيرة والشجار بين الزوج وزوجته ونزاعات ملكية الجمل أو الشاة ، وعليه يقع عبء توجيه العمل السياسي للقبيلة وتوقيع الرسائل التي تكتب باسم القبيلة ، ويقوم بنسخها كاتب عام غالبا ما يكون من أبناء المدينة ، وعليه أن يستقبل الغرباء ، وفوق كل هذا عليه أن يبقي بيته مفتوحا أمام قومه في كل وقت •

والشيخ يدعى لوقف الشجار بموجب سلطته التي تسمح له بتوبيخ معكري صفو الامن • ومن مهامه الاساسية قيادة القبيلة من مكان الى آخر محددا مكان خيمته الخاصة التي تتوزع حولها خيام القبيلة •

تخصص للشيخ بعض الخصوصيات الاضافية من الغنائم الحربية لأن بيته يعتبر مكان التشريف العام الذي تعقد فيه الاجتماعات ومجالس الحرب ، ومع ذلك هو لا يستطيع فرض اية ضريبة بموجب سلطته ؛ ولا أن يقرر أيـة قضية ذات اهتمام كبير ، كما أنه مجرد من الحرس أو الشرطة لكي يفرض سلطته . وكثيرا ما يطاع في الامور التافهة لأن الرأي العام الى جانبه ، أما في غير ذلك فالبدو لا يعيرونه اهتماما كبيرا ، ومع ذلك نجد احترام الشيخ ظاهرة ملموسة لدى معظم القبائل لأنهم هم الذين قاموا باختياره . فالرجال ينهضون وقوفا له عندما يدخل الى خيامهم ؛ ويظهرون له نوعا من الاجـلال المألوف بسبب سيره على نهج آبائه . وقلما يسيء الشيخ استخدام هذا المنصب . واجواء السلطة المطلقة لا يعرفها البدو، ويعتبر شيوخهم هذا الامر ممروعا منه. لا يعتبر البدو التظاهر باللباس الحسن أو التباهي بالسلاح من صفات الذين تربوا تربية حسنة أو من صفات ذوي الاصل النبيل . والشخص الوحيـد الذي شاهدناه يتظاهر بذلك هو تركي بن جدعان بن مهيد الذي كان يلبس قميصا مدرعـا .

يمكن تمييز شيوخ القبيلة من السيف الذي يحملونه ، أو من سلاح دمشقي قديم يوضع في غمد مهلهل غالبا ما يكون الشيخ قد ورثه من أسلافه القدماء . ولكن السمو الحقيقي الوحيد الذي يظهرونه هو في أخلاقهم العالية وفي التربية الحسنة والاصل النبيل ، ولا تتوفر غالبا الا في البادية . وهناك عائلات معينة تحترم الى درجة التعصب . وعندما تجد فردا منها بمكانـة كبيرة فسوف يكون نفوذه كبيرا ؛ وعندها سيمتلك قوة معنوية حقيقية . ونذكر ان هذه الرتبة كانت لعبد الكريم وسليمان بن مرشد وفيصل ابـن شعلان الا أنه في وقتنا الحاضر لا تجد من يصل الى مراتبهم .

ومن حيث المبدأ يعتبر كل أفراد القبيلة في درجة واحدة من التساوي . فأفقر راع يتكلم مع شيخه كما لو كان يتكلم الى قريبه . وقد يناديه باسمه الاول فقط . ويبدو أن هذه المساواة قد هذبتها التغيرات الكبيرة لموالدهم . والثروة نفسها ليس لها تأثير كبير في كسب إحترام الاخرين ، ولكن النبـل

والتحدر من سلالة الابطال المشهورين أو من العائلات ذات التربية الحسنة والمتوارثة كلها يمكن أن تؤخذ بعين الاعتبار ، ولهذا فالعنزي أو الشمري هو أسمى من الجبوري أو من بدو الحديديين ، وابن جندال وابن الحميدي هما أسمى من العنزي العادي ، وابن مزيد ـ شيخ الحسنة ـ على الرغم من كونه فقيرا فله الخيار دون شيوخ البادية باختيار أصهاره ، ويمكنه أن يطلب مهرا لبناته مقداره خمسون جملا •

وفيما يلي سجل للعائلات المحترمة في البادية تسلسل حسب مرتبتها :

- ابن مزيد شيخ الحسنة •
- ابن جندل شيخ(١) الرولة •
- ابن الطيار شيخ الرولة •
- ابن الحميدي شيخ الهذال •
- ابن سمير شيخ ولد علي •

ويروى أن هذه العائلات الخمس كانت تذبح الشياه للضيوف طوال الوقت • ويلي هؤلاء :

- ابن صفوق من الجربا •
- شيوخ قبيلة طي •
- ابن هديب شيخ الموايجة •
- روس المهيد •
- ابن مرشد شيخ القمصة •
- شيخ الموالي

بالاضافة الى آخرين لا يتسع المجال لذكرهم • أما ابن شعلان شيخ الرولة الحالي وجدعان بن مهيد فيمكن اعتبارهما من الشيوخ الحديثي العهد بالنعمة. وتلك ما هي إلا بعض الفروق الاجتماعية • أما من الناحية السياسية وأمام القانون فكل الافراد متساوون سواء أكانوا من الاصل النبيل أم من غير النبيل

---

(١) ابن جندل من السوالمة ، وابن الطيار من ولد علي وليس من الرولة •

وفقراء كانوا أم أغنياء ، وتستثنى من ذلك بعض الاسر التي سمح لها أن تحصل على بعض الامتيازات في توزيع غنائم الحرب • وعندما تنتقل من القاعدة الى القمة في القبيلة نجد أن السيادة تملكها كل القبيلة ، وكل قبيلة في الواقع تعتبر بمثابة أمة منفصلة لها حقوق اقرار السلم أو اعلان الحرب ولها استقلالها السياسي الكامل ، فالرولة وحدها على سبيل المثال تملك القوة الكافية لأن تكون وحدها في الميدان ، وكذلك شمر الا أن معظم القبائل تجتمع بموجب روابط الدم القديمة لتشكل وحدة متكاملة حتى تتمكن من حماية نفسها مشتركة ، ولهذا نجد السبعة يتألفون من سبع قبائل مستقلة ، وكل قبيلة لها شيخ خاص وترتبط مع البقية بروابط الدم ، وكل واحدة تكون على قدم المساواة مع القبيلة المجاورة • وهم لا يعترفون بسلطة مدنية عامة الا أنهم ساروا مع بعض منذ زمن غير محدد ، وفي زمن الحرب يقاتلون تحت قيادة موحدة • والشيء ذاته ينطبق على عشائر الفدعان الاربع ، بينما لا تزال تربط بين هذه القبائل بما فيها الرولة أواصر القربى العامة التي تجمعهم في قبيلة العنزة الكبيرة • ولم يمض وقت كبير على بقاء العنزة موحدة وتقاتل تحت راية واحدة •

تتفرع قبيلة شمر الى عشرين فرعا مختلفا ، ويرأس كل فرع شيخ ، الا أنهم يعترفون بشيخ عام هو ابن صفوق من آل الجربا ، كما يعترف الجلاس من الرولة بابن شعلان شيخا أعلى لهم •

في زمن الحرب نبقى سلطة الشيخ في مجال القضايا المدنيه ، أما في المجال العسكري فيحل محله قائد عسكري تختاره القبيلة نتيجة لمؤهلاته القتالية . فيصبح قائدهم الذي يأمر الجميع فيطيعونه كلهم بما فيهم شيخ القبيلة ، ويدعى هذا الضابط بالعقيد ، ويعهد اليه بكل العمليات والخطط العسكرية وقيادة الغزوات والحملات والانسحابات ، وربما يكون الشيخ نفسه هو القائد ، ولكن القاعدة لا تكون عامة • فسطام بن شعلان هو ليس العقيد على الرغم من أنه شيخ أقوى قبيلة في البادية • والسبعة في هذه الايام يفتقرون الى رجل

تتمثل فيه الموهبة العسكرية ، ولهذا أجبرو على القبول بجدعان قائدا لهم على الرغم من أنه دخيل على القبيلة •

ان الحروب تعتبر من الامور الاعتيادية بين القبائل • والعقيد هو الرجل الهام بينهم وعليه يتوقف ارتفاع شأن القبيلة ، ولهذا فهو يعامل باجلال كبير•• وبعد كل هذا أرى من الضروري أن أقدم تمهيداً عن أسباب وسير العمليات العسكرية في الباديـــة •

ان الحروب البدوية لا تصل الى المراحل الدموية المهلكة ، ولا تصل الى مرحلة اللاعودة على الرغم من أن السلام قد لا يعقد الا بعد عدة سنين مـــن الحرب • وعلى كل حال يعتبر العنزة وشمر نفسيهما العدوين الطبيعيين اللذين لا وجود لسلام مفترض ممكن بينهما • وقد تكون هناك فترات من الهدنة . ولكنها لا تدوم مطلقا غير أن هبوط روح المغامرة عند أحد الفريقين قد يبقي الهدنة قائمة ، ولكن ذلك لا يمنع من حصول غزوات وقيام مجموعات السلب والنهب بدورها عبر حدود الهدنة ، وفي بعض الاحيان قد يتوصل الشيوخ افراديا الى شروط من الهدنة أو التحالف ، حيث وصلتني بعض الاخبار في هذا الصيف تفيد بأن فارسا شيخ شمر الشمال ـــ الذي يتعرض لضغوط من أخيه ـــ قد عقد حلفا مع جدعان عقيد السبعة • واذا صحت الاخبار فستكون هذه سابقة لا مثيل لها في البادية •

تقوم حرب عابرة أو مؤقتة بين بطون العنزة المختلفة . وأسباب هذه الحروب تبدأ عادة بتحريض من الاتراك الذين يرفعون شعار « فرق تسد » والذي هو شعارهم العملي في رسم سياستهم في البادية ومن السهولة اثارة الشجار بسبب المراعي • فالقبيلة التي تزدهر وتزداد غنى بقطعان الماشية تبدأ تحس في ضيق من تحقيق السلام ، فباشا دمشق أو حمص عندما يسمع بهذا يرسل رسالة مؤدبة الى الشيخ يدعوه لمقابلته في دار الحكومة ، وهناك يتلقى رداء الشرف والمجاملات اللطيفة ، فيذهل الشيخ ـــ كما هي الحال مع كل البدو ـــ لقوة وثروة الحياة المستقرة ، ثم يسأله الباشا بعدها عن أخبار القبيلة

ويواسيه عن نقص المراعي مقترحا عليه أن يذهب الى سهول ومراع أكثر خصبا تشغلها قبيلة أخرى ، ولكنها تكفي القبيلتين ، عندها يسر الشيخ وينبع كبرياءه بفكرة حماية الحكومة له التي وعده الباشا بها مباشرة ، وبعود الشيخ محملا بالهدايا الى مضارب قومه ليخبرهم بأنه أصبح صديقا حميما للوالي .

يقبل القوم بفكرة غزو المراعي الجديدة ويرسلون الشيخ مرة ثانية الى الوالي ولكن يصطحب معه هذه المرة فرسا أصيلة وبعض الجمال العربية لتوضع في خدمة الباشا . وفي الحال تجري صفقة بين الاتراك والبدوي يدفع بموجبها مقدار معين من المال ليعلن الباشا أن المراعي المذكورة أصبحت تخص الشيخ فيغزو القبيلة الاخرى ، وتكون الحرب هي النتيجة النهائية لهذه اللعبة . يقتل بعض الرجال في الحرب من كلا الطرفين وتؤسر بعض الخيول . عندها ينصل الباشا من كل وعوده ليترك صديقه الشيخ بخوض الحرب بمفرده .. ان هذه القصة تعبر عن أسباب نصف حروب البدو في هذا القرن . وهناك قصص أخرى كثيرة عن الحروب في البادية ، وكأن التاريخ يعيد نفسه فيها من جديد وبسرعة . ومع ذلك فالحرب ليست كارثة رهيبة كما هي الحال بين الامم المتمدنة التي تقوم حروبها على القتل والحرق والتدمير الشامل حتى يستسلم العدو ، بينما تكون القاعدة في البادية ألطف منها . فالهدف هو ملكية العدو وليس العدو نفسه ، وفي القتال لا يتمنى المتقاتلون الخراب الشامل بل تقتصر العقوبة القصوى للاندحار على خسارة قطعان المواشي والخيام والاثاث والخيول .. ان حروب البدو لا تتجاوز هذه الحدود ، ويكون العدو مقدسا ومحميا عندما يكون أعزل من السلاح ، أو عندما يكون راجلا ، كما أن الاسرى لا يستعبدون ولا يطلب عنهم من الفدية غير الخيول . ومن النادر أن تجد العداء الشخصي في كلا الطرفين ، أوأن تجد الدم يراق دون مبرر وفي غمار المعركة يتبادل الشباب المتحمس طعنات الرماح ، ولن يقتل أي شخص الا عن طريق المصادفة . وفي الواقع يعتبر من الاعمال الفظيعة أن تقتل رجلا بدون حق ، لأن هدف القتال قد تحقق بجعل العدو يترجل عن فرسه ليداوي جروحه . تبدأ المعركة البدوية كما في أيام البطولة بسلسلة من القتال الفردي

حيث يهرب فيه الضعيف ويلاحقه القوي ، ثم تتحول العملية الى مراوغة وكر وفر تتحكم بنتائجها مرونة وسرعة الخيول ، وربما تقود المطاردة المتقاتلين بعيدا عن ساحة المعركة ، فتبدأ قوة الهارب بالتلاشي فيستسلم ملقيا بنفسه على الارض ويصيح : « دخيل » أي أنا أستسلم ! بعدها يقوم المنتصر فيضع عقاله في عنق المستسلم ليصبح بعدها أسيره . والعقال هو حبل من شعر الجمل يلبسه البدوي ، ولكنه في الحرب يدليه على كتفه لأن البدو يتحاربون ، وهم حاسرو الرؤوس .

تصبح فرس الاسير وسلاحه ملكا للمنتصر حتى عندما يتم اطلاق سراحه فيما بعد ، والاسير لا يمكنه المشاركة بعدها في القتال . واذا ما أسرت فرسه عند استسلامه فسوف يترك ليأخذ طريقه بسلام راجعا الى أهله مشيا على الاقدام . ولكن اذا هربت الفرس وأنقذها قوم الاسير عندها يجب على الاسير أن يرافق آسره الى خيمته حيث تتم استضافته بشكل جيد ، الا أنه سيبقى رهينة حتى تسلم الفرس عوضا عنه ، ثم يسمح له بعدها بالمغادرة .

علينا أن نتساءل لماذا لا تستهدف الحياة وحدها في الحرب ؟ والجواب علينا أن نبحث عنه في طبيعة الاسلحة المستخدمة . فالاسلحة النارية لا تستخدم في الحرب كما أن تبعة ادعاء الاضرار في نهاية الحرب له ثقله في الموضوع . فالقبيلة التي تتسبب في قتل خمسين روحا يتوجب عليها دفع دية ثقيلة في نهاية الحرب . والخيول الأسيرة قد تستعاد أحياناً في شروط السلام المعقود بين القبيلتين ، الا أن هذه من الناحية العملية غير واردة لأن الذين غنموا الخيول يتلهفون لبيعها أو مبادلتها مع قبائل غير متورطة في الحرب ، عندها يتجنبون احتمال مثل هذه الاستعادة ، وعندما تعود المياه الى مجاريها وتدفع دية الرجال من الابل وأعتقد أنها تقدر خمسين جملا عن كل قتيل ، كما هو الحال في القتل العمد والقاتل ذاته غير معني بدفع المبلغ لأنه يفرض على القبيلة كلها . والموت في الحرب لا يسبب ضغينة بين عائلة المقتول والقاتل ، أما لو قتل شخص في الحرب من قبل آخر كان يطلبه ثأرا فان في موته نهاية حتمية للشجار .

ان هذا القانون الانساني في الحرب تظهر فيه بعض الثغرات لأن حياة شيخ القبيلة تستهدف دون أن يلفظ كلمة « دخيل » التي قد لا تقبل ، ولهذا فان مدبغ بن مرشد قتله جماعة من الرولة الذين قابلوه بقوة كبيرة في حالة حرب بين السبعة والرولة ، وعندما هرب بفرسه الجيدة سقط بعد أن تعثرت في حفرة يربوع . وعلى الرغم من ترجله وتركه للسلاح فقد انقضوا عليه وقتلوه . الا أن هذا المثال يعتبر من الامثلة غير العادية لأن السبعة كانت مشغولة بموت زعيمها ، وحملوا الفرس مسؤولية سقوطه واللحاق به . وفي هذه الحالة بقيت الضغينة قائمة بين ابن مرشد وابن شعلان لأن موت مدبغ اعتبر غير نظامي ، ولهذا قام صديقنا مشهور منذ بضعة أشهر بقتل خمسة فرسان من الرولة ثأرا لدم والده .

ان حياة الشيخ لا يمكن اعتبارها أكثر من حياة شخص عادي ، أما في هذه الحالة فقد طولب بخمسة أشخاص من الرولة لأن الذين قتلوه كانوا خمسة .

ان حكايات سفك الدم التي رواها « بالغريف » وآخرون في مذكراتهم قد تكون صحيحة عند القبائل الاخرى التي زاروها ، الا أنها غير صحيحة بين شمر والعنزة حتى أن التقرير الذي وصف أسرى يقتلون في مخيم الرولة تبين لنا فيما بعد أنه لا أساس له من الصحة ، وقد أنكر صدق الحادث كل من عرف البدو وعاش بينهم .

* * *

الفصل الثامن والعشرون (١)

ملحق

مشروع سكة حديد وادي الفرات ــ النقل النهري ــ الادارة التركية ــ نجاحها الجزئي ــ الفشل ــ تطلعات نحو المستقبل .

اقترح علي أن أقول كلمات تتعلق بمستقبل البلاد التي زرناها أو التي ذكرت في هذا الكتاب ، وعلى الاخص فيما يتعلق بحصولنا على طريق بري نحو الهند ومشروع الخط الحديدي المقترح بناؤه بين البحر الابيض المتوسط والخليج العربي . فليس من المستغرب أن يقوم خط حديدي في البادية ، وكل شيء يمكن حدوثه في أيام الانتصارات الهندسية الرائعة في وقتنا الحاضر .

ولكن هناك مجموعة من التحديات التي تواجه خطة التنفيذ والتي أخذت تواجه البناء ذاته وان لم يكن في البناء والتشييد فهي في كيفية العمل في مثل هذا الطريق . ويبدو أن الآمال في تحقيق المكاسب المالية من وراء هذا المشروع تعتبر الآن ضربا من الوهم والخيال فاما أن يقام الخط في سهل النهر ، واما أن يقام فوق الهضبة المطلة على النهر . وفي الحالة الاولى سوف يتعرض الخط لخطر الفيضان واحتمال تغيرات المجرى المستمرة في النهر ، بينما يتطلب الامر في الحالة الثانية شق الاقنية ومد الجسور لأن هناك شبكة من المسيلات والوديان التي تقطع البادية متجهة نحو النهر ، يضاف الى ذلك كله معدلات ارتفاع سهل النهر في بضع مئات من الاقدام فوق سرير النهر نفسه ، وقد لا يثبت الماء في مستوى واحد دوما ، والتلال الوعرة التي يجب شق الطرق من خلالها ، وهذا يتطلب جهودا مكثفة لشق طريق عبر البادية .

---

(١) موضوع الخيل الذي وضعه ولفرد في هذا الفصل سينشر في بحث مستقل ان شاء الله .

ومن الملاحظ أن المنطقة الواقعة بين « دمشق » وعنة تمتلك مجموعة من الاحواض المائية السطحية ، يجري فيها الماء العذب ولكنها تعتمد في تغذيتها على أمطار الخريف علما أن المطر لا يهطل بشكل منتظم ، ولهذا فقد تجف تلك الاحواض صيفا بشكل كامل . غير أن العقبة الاكثر خطورة ستكون في كيفية استخدام الخط بالنسبة لأشهر السنة ، فباستثناء الاشهر المعتدلة الحرارة لا أعتقد بأن كثيرا من المسافرين يفضلون ركوب القطار في رحلة تطول آلاف الاميال تحت حرارة الشمس المحرقة في الحماد ، ما بين شهري أيار وتشرين الاول كل عام . ان الحد الاعلى لدرجة الحرارة اليومية في أبرد البيوت في بغداد خلال شهر حزيران هو « ١٠٧° » ، بينما قد يرتفع الميزان⁽¹⁾ هناك الى «١٢٠° ــ ١٢٢°» وستكون الحرارة في البادية أشد من ذلك بكثير، وما لم تقام محطات استراحة تأوي المسافرين في ساعات الحر الشديد فسوف يكون السفر على ذلك الخط شبه مستحيل على الاوربيين ، وبطبيعة الحال ستحتاج هذه المحطات الى الحراسة والحماية لأنه من غير المحتمل أن يحترم العنزة حرمة هذه المحطات .

أما من الناحية التجارية فسوف تأخذ بعين الاعتبار وفرة البضائع التي تنقل في فصل الشتاء في وقت لا تتوفر فيه المواصلات المحلية ، غير أن قرويي الفرات هم فقراء جدا ولن يتمكنوا من دفع الحد الادنى من الاثمان التي تطلبها منهم قيادة السكة ، بينما قوافلهم التجارية على ظهور الابل ستكون أرخص لهم بكثير مما يترتب عليهم دفعه الى سكة الحديد ، والوقت بالنسبة لهم لا قيمة له مطلقا .

ان شعبية نهر الفرات ضعيفة الى أدنى حد في هذه الايام ، كما أن الكثافة السكانية قليلة على هذا الطريق . فمن المفترض أن هناك خمسين ألف نسمة بين بغداد وحلب واذا كان العدد الحقيقي أكبر مما افترضه فسيكون خمسهم على

---

(١) لم تذكر الليدي اسم الميزان الحراري ، ولكن الارقام العالية هذه لا بد ان تكون لمقياس فهرنهايت .

الاقل يتمركز في السهل المنخفض جنوب مدينة « عنة » وعلى الرغم من أن المسافة بين«عنة» وحلب تقدر بثلاثمائة ميل فلن تجد قرية واحدة جديرة بالاهمية على هذا الطريق ، ومن المحتمل أن لا يزيد عدد السكان المدون هناك أكثر من عشرة آلاف نسمة .

ومن الجدير بالذكر أن الخط الحديدي النافع سيكون مجديا اذا ماشيد قرب طريق القوافل القديم بين أورفه والموصل ، لأنه سوف يمر في منطقة زراعية وفي ضواحي المدن الكبرى . ولكنني لن أتوقع تحقيق النجاحات على الصعيد المالي في مثل هذه الظروف لأن السنوات الاولى من عمر الخط الحديدي ستكون عديمة الفائدة بالنسبة لبقايا الشعب الاشوري وللمساحات الكبيرة من التربة غير المحروثة والتي هي في متناول اليد بين حلب والبحر . ومن الصعوبة على المهاجرين اختيار أدغال شجر الطرفاء على دجلة والفرات كمكان لائق لمستعمراتهم الجديدة ، لأن أرض الطمي على ضفاف الواديين تكون محدودة جدا لاتفي بمتطلبات الاستثمار بتشكل كاف .

ولم أجد ميزة حسنة لاقامة مثل هذا المشروع سوى عودة الخصب الى السهل البابلي جنوب بغداد ، لأنه كان في الماضي من السهول الخصبة في العالم، الا أنه من غير المعقول أن يعاد ازدهاره مثلما كان بدون النفقات الهائلة لترميم وبناء أقنية الصرف البابلية . وبدون شبكات الري لا يمكن للمنطقة أن تنمو من جديد، وبطبيعة الحال ستكون الكلفة المالية باهظة حتى لأغنى بلد في العالم.

ان الخطة الوحيدة لتحسين الاتصالات بين البحر الابيض المتوسط والخليج العربي أراها ناجعة بانشاء خط للقوارب البخارية يمخر عباب نهر الفرات فيما لو خطط لها بشكل صحيح ، وسوف تعطي ثمارها ، وربما ريعها سيغطي التكاليف المصروفة .

وعلى مدار العام يصلح نهر الفرات لملاحة القوارب في غاطس ثمانية عشر انشا . وقوارب مدحت باشا أخفقت في مواصلة سفرها في النهر لأنها كانت كبيرة جدا .

ان خط القوارب البخارية الذي اقترحه سيلبي الحاجات المحلية بشكل كاف ويستطيع أن يبحر بمعدل أسعار زهيدة جدا اذا ما قيست بمتطلبات الخط الحديدي • يضاف الى ذلك كون القوارب في مأمن من خطر تدخل البدو ، وسوف يكون وقود آلاتها البخارية من حطب الطرفاء المتوفر على نهر الفرات • وان خطة كهذه ستكون على أية حال ذات فائدة محدودة بالنسبة للهند •

ان انشاء شبكة النقل المائية أصلح مساوىء الاتراك ونظام حكمهم الحالي في هذه المنطقة ومن المحتمل أن تتطور البلاد بشكل طبيعي على الرغم من أنه لن يتم ذلك سريعا أو في الغد المنظور • انني لا أتعاطف مع الاتراك في جزيرة العرب ، وأقل ما يمكن قوله في نظام ادارتهم : انه فاسد كليا ، ولكن لا أعتقد أن نظرية حكمهم لتلك الديار سيئة ، وهي التي تقوم على حماية القبائل الامنة وكبح جماح الحروب وتشجيع كل الذين يرغبون بزراعة الارض وجعل الطرق العامة آمنة واحتلال الريف عسكريا وعقد التحالف مع زعماء البدو وتقديم الاغراءات لهم للعمل في مهمة « البوليس » في البادية • ومثل هذه الافكار لن يأتي الاوربيون بأفضل منها • ونقطة الخلاف تكمن في الممارسات التي يفشل الاتراك بسببها في تحقيق أهدافهم • وأخاف حاليا من الاخطاء التي لا تقبل العلاج •• الا أنهم لم يفشلوا كلية حتى الآن •

أما من الناحية العسكرية فكم تبجح الباشوات ببعض الحقائق والنتائج التي تم انجازها في هذا المجال بالمقارنة مع السنين الماضية ، الا أن البلد لم يحقق خطوات حثيثة باتجاه المدنية والحضارة المعاصرة ، غير ان قوة قبائل البدو قد أضعفت بشكل كبير خلال تلك الفترة وان لم تحطم تماما ، ومن المنتظر – اذا ما تحقق نفس المقدار من التقدم – في العشرين سنة أن يختفي العنزة من البادية السورية العليا ، وقد تستجيب قبيلة شمر لظروف الحياة المستقرة في بلاد مابين النهرين ، في وقت يتم فيه زرع وادي الفرات اللحقي بشكل كامل ، وقد يضعف ماء النهر في المستقبل ، وقد يجف في أشهر الصيف! •

ان البدو الحقيقيين يجب أن يعودوا الى نجد من حيث أتوا • وان لم يفعلوا فعليهم أن يهجروا حياتهم المستقلة في البادية •

ان هذه التفاؤلات التركية لها ما يبررها اذا ما ساروا في طريق تحقيقها بدقة • الا أنني لا أؤمن في استمرارية التجديد في تركية ولا حتى بالمحافظة على القوة العسكرية لوقت غير محدود من الزمن • وخطيئة النظام التركي الاولية ـ كما شاهدتها في البادية ـ هي الخطيئة ذاتها التي تؤثر في مجريات الامور في كامل الامبراطورية • والضربة القاضية تكمن في أن الاوزة التي تبيض البيض الذهبي تقتل كل يوم في تركيا ، أو أنها تسرق دون رحمة ، وقد تنهب لادخار بيضتها الاخيرة وعلى سبيل المثال : قبائل الرعاة الامنة المستقرة ـ على الرغم من أنها محمية من غارات العنزة وشمر ـ تسلب من قبل الحكومة ولم يطرأ عليها أي تغيير سوى تغير السيادة غير المحترمة • فالولدة قبيلة غنية منذ عشرين سنة عندما كانت في حلف العنزة ، غير أنها اليوم في فقر مدقع بسبب ابتزاز الباشوات في حلب • والجبور على نهر دجلة كانوا من الرعاة المجدين • ويبدو أن حياتهم وظروف عيشهم تغيرت عما كانت عليه عندما عاش بينهم ليارد عام ١٨٤٥ م •

ان البدو الوحيدين الذين يملكون القوة تحت الحكم التركي هم الحديديون لأنهم على احتكاك دائم بسكان المدن ، ومن المحتمل أنهم في احترام بمنأى عن غارات السلب العام والغزو المتواصل ، ومن الصعب والمدهش أن تظن بأن ذلك هو وراء حالتهم الجيدة بالنسبة للقبائل الفقيرة من حولهم •

ان أكبر القبائل المالكة للابل تكون في ترحال دائم وغالبا ما تكون بعيدة عن متناول يد الحكومة • وقد رفضت كل العروض لتهجر حياة البداوة وتقبل بالاستقرار والزراعة • ان القوة العدوانية عند البدو قد تقلصت كثيرا بسبب اقامة المواقع العسكرية على جانبي النهر ، وبسبب توفر الاسلحة النارية الدقيقة بين أيدي الجنود الاتراك ، يضاف الى ذلك قطع الدعم والامداد الذي كانوا يتلقونه من البادية مصدر ثروتهم القديم • ولكن لم يؤثر فيهم ذلك حتى الآن •

ان العنزة وشمر ما زالوا في استقلال مطلق عن السلطات ، كما كانوا عليه في الايام الاولى من وصولهم الى البادية ، وبقيت شخصيتهم القديمة ونمط حياتهم بدون تغيير يذكر •

انني أتصور بأنه سيأتي اليوم الذي تنفد فيه كنوز القسطنطينية ، لأن طرق الامداد العسكري وخط سكة الحديد المقترح على طول الفرات وطريق النقل النهري بالقوارب البخارية ستهجر كلها عندما يستبدل البدو رماحهم بالاسلحة النارية الحديثة ، وستتمكن قبائل البدو من احكام قبضتها على الوادي من جديد وبقوة هائلة •

وسوف لن تندم قبائل الرعاة وسكان القرى بعودتهم الى الحياة المستقرة من جديد وسيكونون كما كان أسلافهم في المنطقة منذ مئات السنين ••• عندها سيكون تعاطفي معهم وليس مع التقدم الحضاري • ومن أجل مصلحتهم سأهتف : يحيا السلطان ولكن هل تظهر قوة أخرى في البادية ؟ لا أدري ؟

* * *

الفهرس

رقم الصفحة	الموضوع
٥	**مقدمة الترجمة**
١٥	**الاهداء**
١٧	**تقديم**
٢٣	**الفصل الاول** اهداف الرحلة ـ زيارة الجمعية الجغرافية الملكية ـ سرنا باتجاه حلب ـ الرحلة عبر اسكندرون ـ قصة التاجر المتجول عن الفرات ـ حبة حلب ـ حططنا الرحال في آسيا .
٢٩	**الفصل الثاني** ميناء اسكندرون ـ بقايا شركة الشرق ـ تاجر بغال ينقلنا الى حلب ـ جياد البوني في بيلان ـ عبرنا بوابات سورية ـ مقتل تاجر البغال ـ الجنود الاتراك ـ لهو على العاصي ـ ليلة في خان ـ عواصف ثلجية ـ حصان ميت ـ قرية طوقان ـ اليوم الاخير من بؤس الشتاء ـ الوصول الى حلب .
٤١	**الفصل الثالث** في مضافة كريم ـ حكايات السيد الاقطاعي ـ قصة جدعان مع الباشا ووفائه لصديقه احمد ـ العنزة في نجعتهم ـ التفكير بزيارة البدو ـ سيد احمد واليهود ـ الشحاذ الوقح لايعرف الاستسلام.
٥٥	**الفصل الرابع** قلعة حلب ـ سجون حلب ـ العدالة الغريبة ـ كرو الكردي ـ نصف كروان للقاتل وغضب الرأي العام .
٦٣	**الفصل الخامس** اشترينا الخيل لأننا قررنا اللحاق بالعنزة ـ هاجر ـ اخبار الصحراء ـ شائعات الحرب ـ جدعان في موقف حرج ـ اختلاط الامور في الصحراء ـ فصل في السياسة .
٧٥	**الفصل السادس** غادرنا حلب ـ تجوال في الظلام ـ قرية عربية ـ الصحراء ـ نحن والفرات ـ الدرك او الضابطية ـ منفى كئيب وطبق من الدراج ـ عسكرنا في العراء قرب النهر .
٨٩	**الفصل السابع** أسود منطقة الفرات ـ صيادو العفادلة ـ البدوي برهوم ـ قائمقام الرقة ـ الحمار البري ـ لهو في غابة الطرفاء ـ الحصان المدهش ـ وصولنا الى الدير .

رقم الصفحة — الموضوع

١٠٣ **الفصل الثامن**
حسين باشا وسلطته الموروثة ــ سياسة العثمانيين في الصحراء فرق تسد ــ وضعنا تحت المراقبة ومنعنا بلباقة من زيارة العنزة ــ الدير افضل سوق للخيول العربية الاصيلة ــ المعلومات الاولية عن شمر وعن بطلهم عبد الكريم ومغامراته وموته ــ الدير في خطر ــ الدركي الخائن ــ سقطت في البئر وانقذت ــ رحلنا الى بغداد.

١٢٣ **الفصل التاسع**
انطلاقة سعيدة ــ انضممنا الى قافلة بغداد ــ ابن الحصان ــ سيدات من الاتراك في الرحلة ــ كيف تقيد الحصان الحرون ــ الصالحية ــ مخيم العقيل ــ مدير البوكمال ــ الذئاب في الليل ــ الخنازير البرية ــ سجل اداء عريف الملاحين ــ بستان النخيل ــ وصلنا الى عنة .

١٣٧ **الفصل العاشر**
غزوة بدوية ــ تحدثنا الى شبح ــ وعد زينل اغا ــ التصميم على الرحيل ــ القائمقام يرافقنا ــ سطم يضيفنا ــ وجبة بدوية ــ اخبار من الوطن .

١٦٣ **الفصل الحادي عشر**
بغداد الحديثة في منطقة متواضعة ــ اسباب زوال مجدها ــ الطاعون ــ مدحت باشا يهدم اسوارها ــ وجهة نظر الدكتور كولفيل بالبدو ــ امير هندي ــ ثروة عاكف باشا ــ جواده الفحل ــ اشترينا الحمير والجمال للهروب من بغداد .

١٨٣ **الفصل الثاني عشر**
ملك اود في بيته الريفي ــ أيدينا حملت بالهدايا ــ بادية الجزيرة العراقية ــ متع الحرية ــ عبورنا للبادية ــ انذارات كاذبة ــ اصطياد الذئب ــ وصولنا الى شمر .

٢١٥ **الفصل الثالث عشر**
مقر فرحان في الترقاط ــ ابناؤه وزوجاته ــ تصرفنا بدبلوماسية ــ بدانا في عبور الجزيرة ــ اسماعيل على حصان من لحم ودم ــ سمير كان في استقبالنا ــ وصفه لنجد وحكامها وخيولها .

٢٣٣ **الفصل الرابع عشر**
مدينة الحضر ــ المتاعب التي عانيناها في الاثار ــ سمير يضعنا على الطريق ــ طوينا بيتنا وانطلقنا نحو الغرب ــ مشاجرة مع اسماعيل فيتركنا ــ بحيرات الملح ــ في مخاضة عبر الطين ــ الرجل العجوز السخيف ــ وأخيرا مع فارس .

رقم الصفحة **الموضــوع**

٢٥٥ **الفصل الخامس عشر**

زعيم من البادية وامه الخاتون عمشة ـ الاولاد المؤدبون ـ طلال ـ فارس في رحلة صيد ـ يعبر النهر سباحة ـ قسم الاخاء ـ رشيد ابن علي وشيخ السموكا ـ اليزيدية ـ طوف في الخابور ـ ابل تسبح ـ وداعا لفارس ـ عدو على فرس في الدير .

٢٨٣ **الفصل السادس عشر**

نواجه المصاعب مع صاحب الموت الشريف ـ يظن بنا من الجواسيس ـ قادرلي باشا ـ مبادؤه السامية ـ تركيا بلاد الحرية ـ وعدنا بدوي من المهيد لياخذنا الى جدعان .

٢٩٥ **الفصل السابع عشر**

في الصحراء ثانية ـ المرشد يخدلنا ـ محمد الطالب ـ نجمع الكما ـ يُلقى القبض علينا ـ في الطريق الى تدمر ـ صيد الثعالب ـ زيارة الى لصوص العمور ـ الوصول الى تدمر .

٣١٥ **الفصل الثامن عشر**

السياسة في البادية ـ الصراع الدامي ـ علي بك الشركسي ـ مؤامرات وخطط مضادة ـ لقاء في المخيم ـ المدير يوبخ من أجل واجباته ـ اخبار عن العنزة .

٣٢٨ **الفصل التاسع عشر**

الخدعة الغريبة والخيارات الاربعة ـ اربعون دقيقة سريعة حاسمة ـ وصل القنصل أخيرا ـ في طريقنا الى الحماد ـ أغنية قبرة البادية ـ غزو حقيقي ـ نبحث عن العنزة ـ جبل الغراب ـ نكتشف الخيام ـ جدعان يتزوج للمرة الخامسة عشرة لكنه غير سعيد ـ نبل البوادي ـ جدول حول سلالات الخيول ـ نكلف بمهمة الى الرولة .

٣٥٥ **الفصل العشرون**

فرحان ابن هديب ـ القمصة وخيولهم ـ محمد الدوخي ـ دعوى قضائية في الصحراء ـ قبيلة من صيادي الغزال ـ فرس بطين ـ الرولة تهاجم السبعة ـ رعب يتلوه انسحاب ـ مشهور بن مرشد أخونا الجديد ـ شح الماء ـ نغادر مخيم العنزة ونضطر للمسير الى بئر سكر .

رقم الصفحة	الموضوع
٣٧٩	**الفصل الحادي والعشرين** السير تحت الشمس المحرقة – ولد علي وأغنامهم – وصلنا الى مخيم الرولة – مائة وخمسون ألف جمل – سطام ابن شعلان في استقبالنا – مقابلات دبلوماسية – زوجة سطام – العطفة – اختبار لمحمد – وداعا أيتها البادية .
٣٩٥	**الفصل الثاني والعشرون** كلمات اخيرة – دفاع عن الجمل – سطام في المدينة – وداعا – جماعة الياهو .
٤٠١	**الفصل الثالث والعشرون** جغرافية شمال الجزيرة العربية – معالم البادية الطبيعية – عجره العبائل – وادي الفرات – القرى في البادية – بعض الاشارات لواضعي الخرائط .
٤١١	**الفصل الرابع والعشرون** تاريخ البادية – غزوات العنزة وشمر – انهيار الحضارة في وادي الفرات – اعادة فتحها من قبل الاتراك – مكانتهم الحالية في الجزيرة العربية – سجل القبائل البدوية – بحث عن السبعة .
٤٣١	**الفصل الخامس والعشرون** السمات الطيبة للبدو الاعراب – قصيرو الاعمار – افكارهم الخاطئة – انسانيتهم – احترامهم للقانون – يتخلفون عن غيرهم في مجال الصدق والاعتراف بالجميل – حبهم الطفولي للمال – كرم الضيافة – نساء البدو .
٤٤٢	**الفصل السادس والعشرون** ديانة البدو لاتتعدى حدود الايمان – لايقيمون الشعائر والاحتفالات – الايمان والقسم – ايمانهم غير واضح بحياة الآخرة – تندر الخرافات بينهم – الفضيلة نظام مطلق – طقوس الزواج .
٤٥٣	**الفصل السابع والعشرون** دستور البدو السياسي – الحرية – المساواة – تعصبهم للسلطة – قوانين الحرب – الظعائن .
٤٦٣	**الفصل الثامن والعشرون** مشروع سكة حديد وادي الفرات – النقل النهري – الادارة التركية – نجاحها الجزئي – الفشل – تطلعات نحو المستقبل .

طبع من هذا الكتاب ١٥٠٠ نسخة – مطبعة الملاح – دمشق

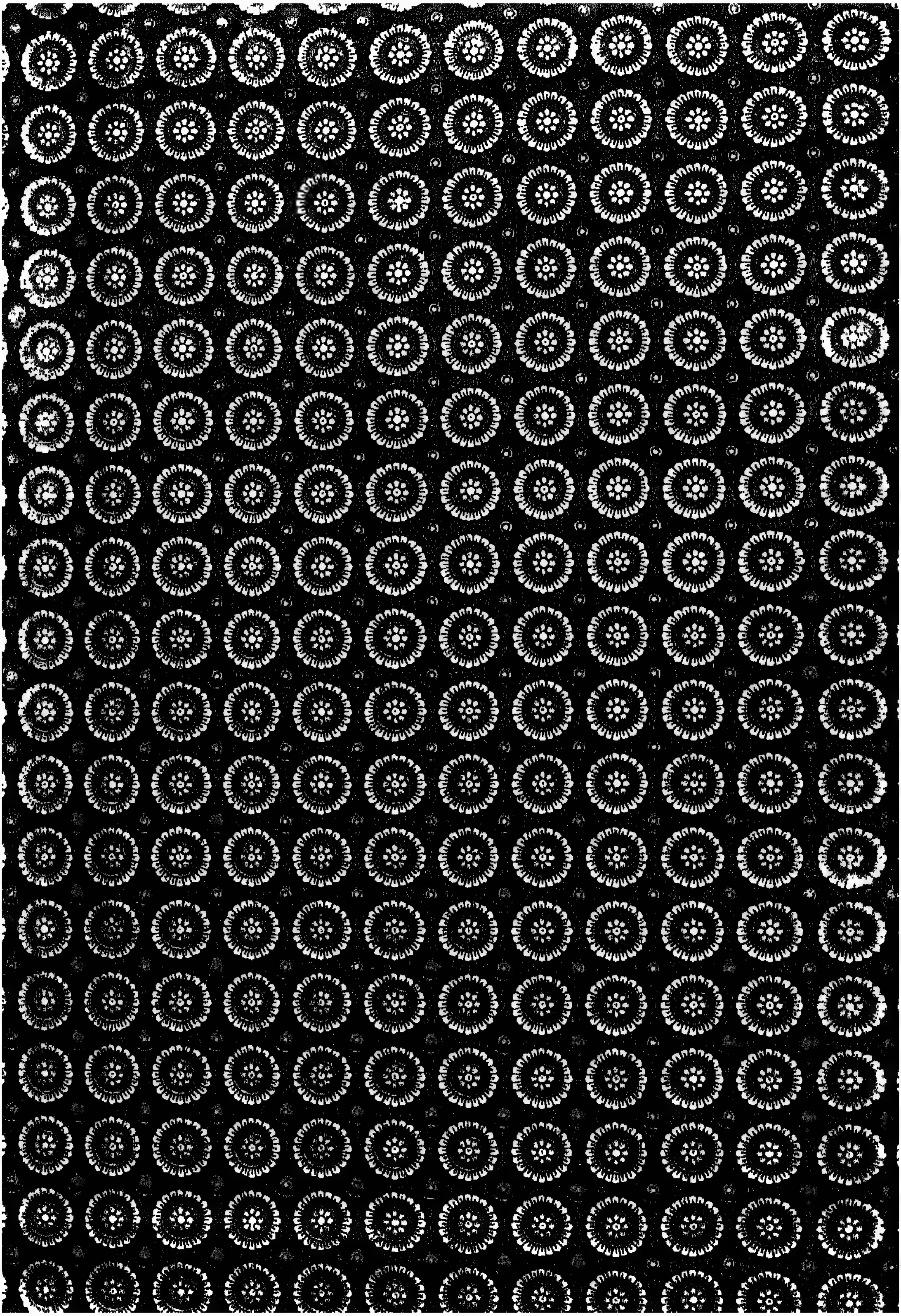

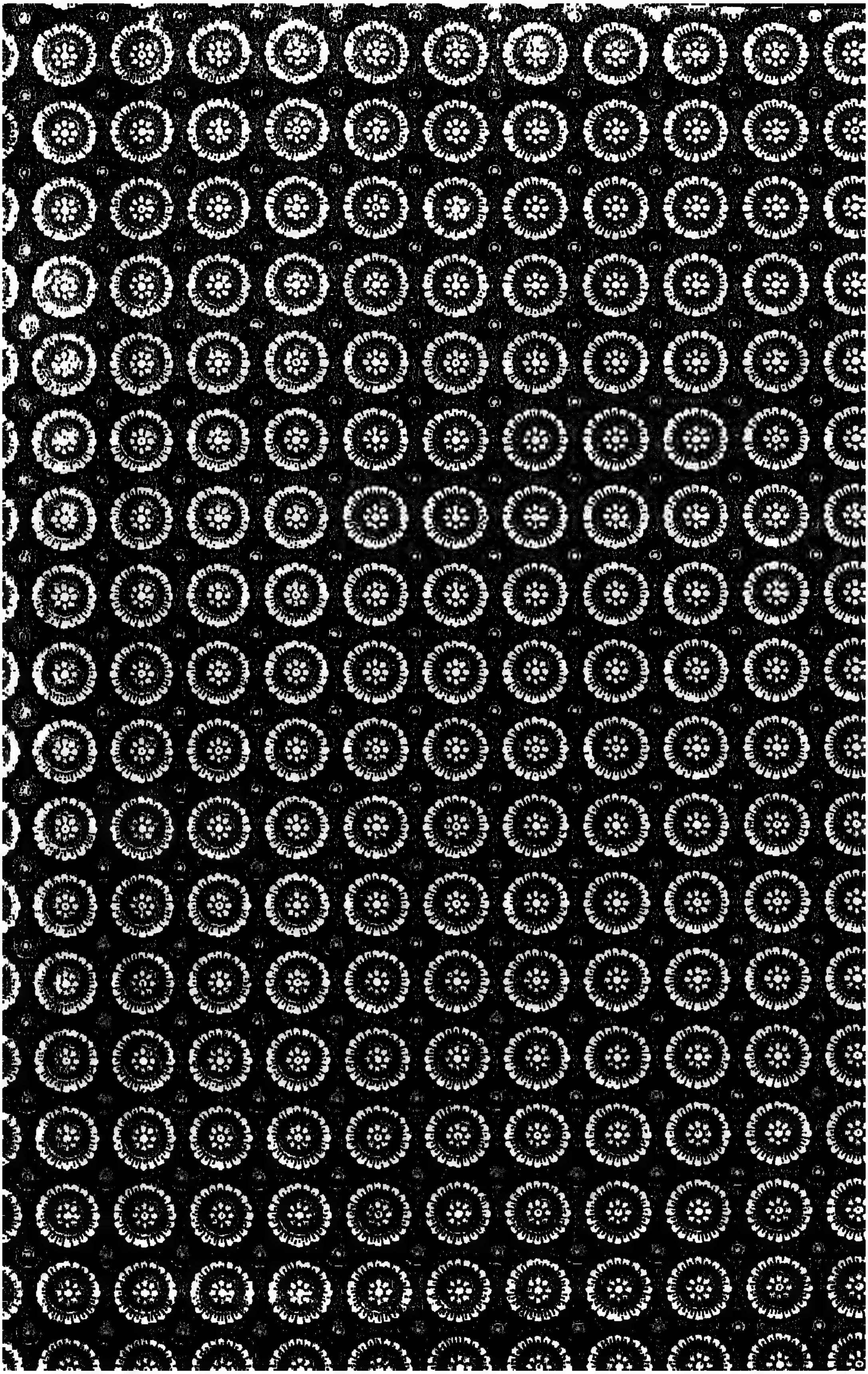

حالة عدم الرضا ، ومن دون أن نكون أصدقاء ، لأنه كان غيورا من الود الذي أحطنا به الشيخ مشهورا ، وغيورا من الهدايا التي قدمناها اليه • فقد ألقى خطابا طلب فيه من السيد « سكين » أن يستحي مما فعل ، بينما كنا قد وعدناه بعباءة تناسب مركزه كشيخ حالما نقدر على شراء واحدة الا أنه لم يكن راضيا • وأنا آسفة لأن السيد « سكين » كان عليه أن يرد له القول : انك وطلباتك لا تعبر عن مستوى يزيد عن مستوى الفلاح العادي •

كان من الممكن لمشهور أن يلتزم جانب عمه ، ولكن بطينا لم يهدأ • وبالتالي وصلت المفاوضات معه الى طريق مسدود ، الا أنني كنت مشغولة بالفكرة الكريهة التي صنعت لنا عدوا في البادية ، وقد يكون الوحيد في كامل الرحلة •

أسرعنا قليلا عن الركب . وابتعدنا لنرتحل مع طلائع جماعة ولد علي الذين كانوا يغذون السير نحو الآبار مع أغنامهم ، التي مضى عليها يومان دون أن تشرب • كان رعاة ولد علي أقسى من رعاة السبعة وينقصهم الادب . ولو كانوا يتوقعون الجبن فينا لعدو علينا • ولكننا كنا نركب بشكل جيد ، وبأيدينا أسلحة . ولم نعد نخشاهم بينما أخذت الارانب البرية تقفز من السهل بعد أن اكتسحته الاغنام والفرسان والجيش الكبير من الابل ، الذي كان يثير الطرائد من مكامنها . وكانت الكلاب تتبع الارانب . كما أن ولفرد قام بمطاردتها واصطاد اثنتين منها على ظهر فرسه هاجر التي كانت منتعشة ثانية . على الرغم من الحرارة وندرة الماء ، ونستمتع بعدو مذهل • كنا نسير طوال اليوم باتجاه السفح حيث يقال بأن البئر هناك . وعندما نفذ صبرنا أسرعنا الخطا لنكون في مقدمة جيش العنزة الذين كانوا يسيرون كالجراد ، حيث غطت مسيرتهم عشرة أميال عرضا قاضمة كل شيء أخضر تجده أمامها •

الاعشاب قليلة في هذه المنطقة على الرغم من مرورنا بأودية تحتوي على أعشاب جيدة ، وبعدها أخبرنا بأننا سنرى برجا مدمرا توجد الآبار قربه . ولهذا اندفعنا حتى أصبحنا وحدنا تقريبا ، ومسيرة أيامنا الماضية قد تكون بحدود الاربعين ميلا •

وصلنا في الساعة الثالثة والنصف الى الظل الجميل للاثار ، الى أول بناء نراه منذ أن تركنا منطقة أرك • ويبدو أنه كان ديرا في يوم من الايام التي كانت فيها تدمر مدينة عامرة ، لأننا رأينا الصليب محفورا فوق العتبة الصخرية العلوية للبوابة ، واكتشفنا حجرات وأساسات الكنيسة • فلا بد وأن تكون منذ ذلك الحين مكانا منعزلا على الرغم من أنها تقود الى الطريق السفلي من تدمر الى دمشق • ولم تخل من آبار جوفية تحتوي مخزونا جيدا من الماء ، لأننا يسكن أن نقتفي آثار الحقول والبساتين القديمة في الوادي ، التي كانت تسقى من هذه الآبار • أما اليوم فهي كلها مهجورة الا من زوج من الحمام الصخري وبعض طيور العوسق • وكان البرج مربع الشكل بني بحجارة منحوتة جيدا على غرار الابنية القديمة في تدمر ، والتي لا تبعد سوى اثني عشر أو خمسة عشر ميلا •

وبالطبع كان محمد يعرف المكان جيدا ، ويدعو البرج بقصر حازم ويدعو الآبار بالسكري وهذه الابار عميقة ، ولهذا أجهدتنا ونحن ننضح الماء منها حتى وصول الجمال التي كانت خلفنا • وبينما كنا ننتظر تحت البرج المتهدم ، ونحن نكاد أن ننام ، سمعنا حداء حربيا للعرب • وعندما نظرنا الى مصدر الصوت شاهدنا فارسا يخب فوق التل خلفنا والرمح بيده ، فارتبكنا لحظة خوفا من أن يكون من الاعداء • لقد جاء وحده وسرعان ما عرفناه من صوته • انه مشهور على ظهر فرسه الرمادية ، جاء ليودع أخاه ، ويتمنى له حظا سعيدا • وكنا مسرورين لرؤيته ثانية ولأنه أبدى شعورا طيبا بتركه قومه ليقوم بزيارتنا ، ولأن القبائل قد توقفت على بعد عدة أميال من البئر • وعندما سألناه عن فرسه قال : انها من سلالة الهدبة السريعة جدا ، وصدقنا ذلك لأن الفرس كانت وسيمة جدا ورشيقة الحركة • تبلغ الفرس الثانية عشرة من عمرها ، على الرغم من ذلك لا يظهر عليها ، وكما قال كانت ترعى باشرافه ولم يفترق عنها أبدا ، وكان يستطيها عندما قتل جدعان ابن شعلان في العام الماضي ، وهنا توسل من ولفرد أن يأخذها هدية فهي كل ما يملك ويستحق الاهداء الا أن ذلك بطبيعة الحال لن يكون • وفي هذه الاثناء وصلت الجمال ؛ وبينما كانت الخيام

تنعب نشبت مشاحنة مخيفة بين الخدم ، وكان المتنازعان الرئيسان غانم وفرحان اذ وصل بينهما الامر الى درجة الضرب . وقبل أن تتدخل اندفع مشهور وفصلهما عن بعض دافعا غانما الى الوراء ، وهو يسحب مديته في منظر بتسم . وعندما نظرنا في سبب القضية اتضح أن فرحات قد مل من عبء العمل كلـه في قيادة الجمال ، وقد أسخطه أخيرا ركوب غانم على ظهر الفرس الكستنائية ، بينما كنا نغيب عن الانظار لمطاردة الغزال على الرغم من آلام الظهر التي تعاني منها . وبالطبع انحاز الخدم المسيحيون ضد غانم ؛ الا أننا لم نأبه للامر ، بينما طلب ولفرد من فرحان أن يقسم على صحة ما قال ؛ وعندها اعترف غانم بما فعل ، فأخبره ولفرد أن يغادر المخيم فانصرف غير بعيد في غضب وجلس ساعة أو أكثر على قمة البرج ؛ ولكنه نزل بعدها وتوسل الي أن أشفع له . وتكلم مشهور لصالحه . وبما أننا حقا كنا نحب الولد وافق ولفرد على أن يسامحه شريطة موافقة فرحان ، وأن لا يعود لمثلها . وفرحان رجل طيب القلب وافق في الحال وأعطى غانما وعدا بالطريقة المعتادة : على رأسي . وهكذا انتهت القضية .

أنا مسرورة لأنها المشاجرة الوحيدة التي حصلت في الرحلة .

قدمنا لمشهور كل ما نستطيع من كرم الضيافة، اذ تناول معنا طعام العشاء. ولكنه لن يبقى هذه الليلة معنا ، لأنه من الخطورة بالنسبة له أن يبقى بعيدا عن قومه بسبب ضغينة الدم التي بينه وبين ابن شعلان . وعندما هم بالعودة أعطيته مدية ذات قبضة فضية على سبيل الاحتفاظ بها كهدية ، وأخبرته بأنها تعود الى جدي وقبله كانت لجدي الاكبر منه ؛ فقدرها كثيرا ثم امتطى فرسه وعاد يخب راجعا من حيث أتى . انه فتى شجاع دافىء القلب . واذا لم يدركه قدره في الحروب وضغائن الدم فانه سيكون رجلا ذا شأن في يوم ما .

سحبنا الماء من البئر . فكان مذاقه في البداية كمذاق البيض الناسد والكبريت ، الا أنه يتحسن عندما يلامس الجو ، ويبدو أن كل الماء كذلك .

ودعنا قبيلة السبعة ، وأدرنا رؤوسنا ــ كما تقول العرب ــ باتجاه الوطن. عندها أعلن ولفرد بأن اللحظة قد حانت لنقرأ رسائلنا ، لذلك غادرت وأنا وجلة مرتعشة بسبب هذا لأننا كنا بانقطاع كامل عن أخبار الوطن منذ العشرين من تشرين الثاني أي منذ حوالي خمسة أشهر •

* * *

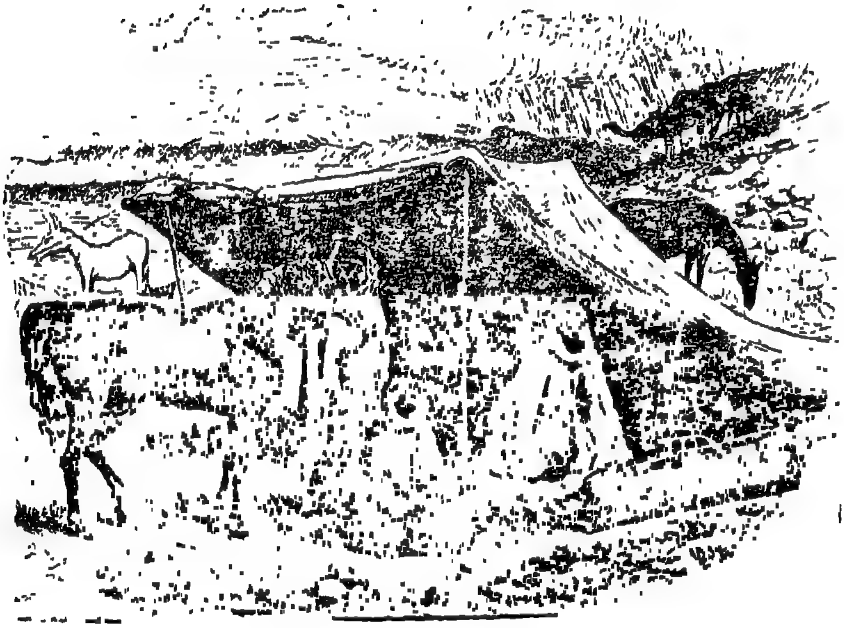

خيمتنا في سفوح جبل الحرمون

الفصل الحادي والعشرين

تحترق الارض .. وكل الحصى تحت الاقـدام !
وكـل حي صامد بقوة رغم الجراح .
والرمال البيضاء تمور حتى لم نعد نسمع فوقها وقع
الاقدام ... اقدام الابل التي تضرب الارض بصمت
وكانما تطأ الهواء بدلا من الارض .
وحتى ظلال الحيوانات اختفت وتراجعت نحو
الخلف ظهر هذا اليوم .. النار حولنا ...
اسفل منا بينما لهيب الشمس يصلينا من
فوق الرؤوس .

السير تحت الشمس المحرقة ــ ولد علي وأغنامهم ــ وصلنا الى مخيم الرولة ــ مائة وخمسون ألف جمل ــ سطام ابن شعلان في استقبالنا ــ مقابلات دبلوماسية ــ زوجة سطام ــ العطفة ــ اختبار لمحمد ــ وداعا أيتها البادية .

في الحادي عشر من نيسان كانت كل الاخبار سارة والحمد لله . ويمكننا الآن متابعة الرحلة بسرور حتى النهاية، وكلنا أمل وشوق للوصول الى الوطن .

غادرنا بئر السكر هذا الصباح في اللحظة التي بدأت فيها قطعان ولد علي بالوصول . يا للمخلوقات المسكينة التي كانت تعاني من شح الماء ثلاثة أيام متواصلة ، وقد مشت بصوفها التشتوي الكثيف خمسين ميلا تحت الشمس المحرقة . ولم نتوقف طويلا لنتحدث مع الرعاة، ولكننا شققنا طريقنا باتجاه الجنوب الغربي الى دمشق ، وكل شخص صادفناه يؤكد بأننا سنلاقي الرولة لا محالة في الطريق ، أو على الاقل جماعة من الصلبة الذين سيخبروننا عن مكان الرولة . ولم يكن محمد يملك معرفة أكيدة للمنطقة أكثر من عدة أميال وكذلك العبد الاسود الذي كلفه مشهور في خيمة بطين بحمايتنا كان يعرف بعضا من الطريق .

أخذنا طريقا في واد بين سلسلتين بارزتين ، وعند الساعة التاسعة مررنا

بخان مهدم على الطريق القديم لتدمر ، أطلق عليه محمد اسم خان حلب ، وكانت الارض مغطاة بنبات قرمزي من شقائق النعمان والبابونج الابيض والاصفر وأزهار السوسن ، وأزهار نجمية وردية أخرى تزاحمت وكأنها أزهار نمت في حديقة .

وأخيرا توقفنا لقضاء الليل في مسيل مائي جاف غطته الاعشاب الكثيفة ، وتصدح فيه طيور السماني . ويمكنني سماع صوت وقواق يجثم على شجرة بطم في مكان غير بعيد . والبطم(١) أول نوع نباتي نراه في البادية يماثل أشجار الدردار ، وهو معروف وشائع على طول الوديان الجافة في البوادي ، ويطلق عليه السكان اسم البطم في هذه المنطقة .

جاء المساء بموجة حر ثقيلة جدا ، بينما بدا غانم يغني على ربابته أخبار حرب الشعلان بعد أن قطعنا في مسيرة هذا اليوم حوالي ثمانين ميلا . وبعد أن نزلنا هذه الارض تسلق محمد قمم الجبال على يميننا ، وعاد بأخبار يقول فيها: انه رأى نيران معسكر خلفنا .

في الثاني عشر من نيسان طالعنا صباح حار آخر بشكل رهيب ، الا أن رياح الشمال الغربي هبت عند الظهر لتلطف حرارة الشمس ، وكان ذلك من حسن حظنا لأنه يتوجب علينا أن ننتظر ساعتين عند البئر دونما ظل نحتمي به .

لحق بنا رجلان يمتطيان جملا عربيا هذا الصباح ، أرسلهما مشهور لكي يدلانا على الطريق ، وهناك بعض الرولة كانوا في مضارب السبعة والفدعان يلتمسون الرضى لزوجة شيخهم التي آثرت العودة الى بيت والدها جدعان . وكم كنت أعجب من هؤلاء الرجال ومن درجة التسامح الفردي بين البدو حتى في زمن الحرب !.. ان هؤلاء الرجال كانوا يقيمون عدة أسابيع في خيمة

---

(١) نبات البطم كان يغطي مساحات كبيرة من الجبال التدمرية ، وكان ينفع بخشبه وعصير تمره المشابه لزيت الزيتون . كان الاعراب واهل سلمية يحتطبونه بشكل جائر ، وفتكت به مناشير عمال شركة نفط العراق عام ١٩٣٠ حتى لم يعد يذكر في المنطقة .

جدعان في اللحظة نفسها التي كان فيها سيدهم ابن شعلان يتقدم ضدهم ••• وعليّ أن أقول : ان البدو أحرار في حالة السلم والحرب ويبدو أن الرجال قد عادوا دون أن يحققوا شيئا ، وأظن أن دعوتهم بهذه الطريقة كانت بحجة المحافظة على السرية ، على الرغم من أن الاستراتيجية البدوية كما هو الحال في السياسة البدوية لا توجد فيها أية احتمالات للسرية • فكل فرد في القبيلة له الحق بمعرفة كل ما يحدث وسماع الدعاية لكل ما يجري ، وباعتبار أنه لا جدوى من محاولة اخفاء الحقيقة فلا يوجد خوف من وجود الجواسيس . ولم تكتشف أية محاولة من هذا النوع سابقا •

كان العبد الاسود مريضا جدا ويستلقي في حالة متراخية على ظهر جمله. ورأسه يتدلى على كتف الجمل يلفحه وهج الشمس بشكل كامل ، وهذه هي الراحة التامة التي يتوقع العرب الحصول عليها عندما يصادفهم المرض على ظهور مطاياهم ، اذ ينامون في هذه الوضعية دون أن يسقطوا الى الارض • وعند البئر كذلك لحقت بنا جماعة من ولد علي تسوق أمامها مائة أو أكثر من الاغنام والحملان لكي تباع في دمشق بمناسبة قدوم العيد •• انني لا أعتقد بأن الكثير منها سيصل حيا الى هناك ، لأن مؤشر الحرارة أخذ يرتفع بشدة • وهم يجبرون أنفسهم على المسير في وقت أخذت الحملان الجيدة تموت ؛ فأعطونا حملا سررنا بأخذه لأن المؤن نقصت في رحالنا بشكل واضح• وعندما يرى الرعاة أن الحمل لا يمكن له أن يسير معهم مسافة أطول يقطعون رأسه ليصبح لحمه حلال الاكل ، بينما يحرم فيما اذا مات دون تذكية •

كنا سنجد البئر بسهولة لو لم يكن الرولة معنا ، لأنها تقع في مكان خفي لم يستخدم هذا العام ، كما أن الطرق الموصلة اليها معدومة • كانت البئر بعمق ستين قدما قسناها بحبل كان معنا الا أن ماءها عذب حلو ، وتسمى ببئر « البوصيري » • شربت منها الاغنام والخيول حتى ارتوت ، وحتى فرسي التي عرفت فيها الاعتدال في مشربها لم ترض بأقل من أربع قرب •

أصر رعاة ولد علي على مرافقتنا طمعا بالمرور عبر ديار الرولة تحت

حمايتنا، الا أن محاولتهم بالمرور كانت بالنسبة لي لغزا محيرا، لأنهم يصطحبون بالاضافة الى الاغنام خمسة عشر جملا وفرسا جميلة المنظر معها مهرها ، ويبدو أنها من غنائم الحرب المحللة عندهم •

الثالث عشر من نيسان لم تخف درجات الحرارة ، والاغنام تسير ، وألسنتها تتدلى خارجا اذ لم تعد الحيوانات المسكينة تتحمل درجات الحرارة• وكان أصحابها قد جزوها طمعا بانقاذها وعندما انطلقنا مررنا بتلين عاليين : كوكل الى اليمين والرماح الى اليسار ، ولهذين التلين قصة شعبية عند البدو تقول : يوجد رجل محارب قديم يشتهر برمي الرمح حتى لقب بالرماح عاش على هذه التلة ، ويملك زوجة على الهضبة المقابلة ، وزوجة أخرى على هضبة ثالثة ، وكان اسم الزوجة الاولى كحلة • لأنها كانت تكتحل بالكحل والثانية عادة ، وكانت عادة أحب زوجة اليه ، وتتشاجر مع كحلة حتى ضاق رماح بهما ذرعا . وفي ساعة غضب جعل رمحه يخترق الزوجتين دفعة واحدة ، وهنا توقف الرولة بغباء ، وقال راويتهم : انه نسي بقية القصة •

قمنا اليوم بمسيرة ناشطة قاطعين ثلاثة أميال ونصف الميل في الساعة ، وقد ضللنا رجل من الرولة بتأكيداته أنه يعرف أصدقاء له في المنطقة • وفي مكان قريب من هنا وعند الساعة الثانية وجد ولفرد حفرة في الصخر الكلسي تحتوي على بضع قرب من الماء شربته الخيول ، ومن ثم وصلنا الى جماعة من الناس تملأ القرب من حفرة كبيرة مماثلة على بعد ميل آخر ، وهكذا مضت على مسيرتنا ثماني ساعات ، ولا بد من أن نكون قد قطعنا ثلاثين ميلا • وعلى الرغم من أن الرولة حقا الآن على مقربة منا الا أننا توقفنا في واد جميل مليء بالعشب ، لنرسل غانما مع رجلين على ظهر ذلول ، لكي يعلن وصولنا في خيمة ابن شعلان بناء على نصيحة القنصل صونا لكرامتنا • وقد سررت لتوقفنا في هذا المكان لأن الجمال والخيول سوف تنعم بوجبة عشاء كافية لذيذة ، ولأن مخيم البدو اذا ما أمضى ليلتين في مكان واحد ، فانه يأكل كل شيء حتى تصبح الارض رفعة جرداء ، ولهذا سيعاني الضيوف غير المتوقعين من نقص الاغذية

لمطاياهم •• قتلنا حريشا في الخيمة بطول ستة انشات ، يدعوها غانم بأم أربع وأربعين نظرا لأرجلها المتعددة •

وصل الينا اثنا عشر أو أكثر من فرسان الرولة قادمين من مضاربهم القريبة عند أعلى تلة منخفضة ، وكانوا في سرور لنجاح غزوهم ؛ لأن ابن شعلان عاد البارحة وهم يقتسمون الغنائم هذا اليوم ••• قدمنا لهم القهوة كواجب من واجبات الضيافة ، ومن سيظنون رعاة ولد علي ؟ كبير ضيوفنا الجدد رجل يدعى « أبو جديلة »(1) سأل عما يكون هؤلاء ؟ وفيما اذا كانت الاغنام لنا ؟!• فقلنا : انهم من رفاق الدرب الذين لحقوا بنا ؛ والاغنام ليست لنا وليس لنا أن تتدخل ، ولهذا توقعنا حصول غارة سريعة ؛ لأن الرولة هم في حالة حرب ولهم كل الحق بأخذها غنيمة • لكن أبا جديلة ضحك فقط ، وقال : لقد اكتفينا وشبعنا جميعا • وهم هنا بمأمن من أن يتحرش بهم أحد •

عاد غانم ليرد الكلمات التي قالها سطام ابن شعلان عندما سمع بقدومنا من السبعة : هل أحضروا زوجتي معهم ؟ وعلى كل حال أرسل رسالة شفوية ليرحب بنا ، ويعتذر عن عدم قدومه لرؤيتنا بسبب التعب ؛ وخيمته لا تبعد عنا أكثر من ثمانية أميال •

يوم الاحد في الرابع عشر من نيسان شاهدنا أجمل منظر طبيعي يمكن أن يشاهد في البادية انه مخيم الرولة الذي وصلنا اليه فجأة ، بعد أن عبرنا سلسلة منخفضة في أرض مرتفعة وأشرفنا منها على سهل صيقل المترامي الاطراف والذي انتشرت فيه على مد البصر خيام لا تعد ولا تحصى ، وفيها الرجال والخيول والابل ، وعلى بعد عشرة أميال امتدت بحيرة صيقل التي كانت بيضاء لامعة تحت الشمس • الا أن المسافة التي بيننا وبينها قد شغلت ؛ وكان هناك بعد متساو لكل أجزاء المخيم شرقا وغربا عن مكان التجمع وقد قدرنا عدد الخيام بعشرين ألف خيمة ، والجمال بمائة وخمسين ألفا ، وشعرت

---

(1) ابو جديلة يملك افضل سلالة من الخيل المعنقية ، حتى انها تفضل على سلالة ابن سبيل •

برهبة وخوف لهذا البحر الهائج من البشر ، كما لو كنت أشاهد البحر أول مرة ، لأننا لم نكن قد شاهدنا كل هذا الحشد من الخيام من قبل •

وربما كان السبعة وأحلافهم أكثر عددا ، ولكن ليس لديهم ربع ما في مخيم الرولة من الجمال التي لم نر مثلها في أي مكان آخر ، وهذا ما أعطانا فكرة كبيرة عن الحجم الحقيقي لقبيلة الرولة مجتمعة ، وأخذنا نكتشف ذلك ونحن نرتحل بخطاً عادية ، وقد أمضينا ساعتين قبل أن نصل الى خيمة سطام التي كانت تقوم وسط المخيم •

لم تكن هناك أغنام باستثناء ما شاهدناه منها على المنحدرات والتلال ، وقد صعقنا للعدد القليل من الخيول بينها • ويبدو أن الجمال هي كل شيء عندهم ، وأخذنا نعد القطعان التي مررنا بها قطيعا بعد قطيع •• مائة •• خمسمائة وحتى الالف ، وكانت الخيام أصغر من خيام السبعة باستثناء خيمة الشيخ التي كانت رائعة وتقوم على تسعة أعمدة ، وربما تطاولت الى مائة قدم من طرف الى طرف آخر • وأما عن الراحة التي يجدها المرء فيها فينقصها بعض الشيء كغيرها من الخيام ، وكل ما تشاهده فيها من أثاث قطعة من « السجاد » وبضعة سروج أو قتب الجمال ، بالاضافة الى وعائين عاليين للقهوة ، ومحماس للقهوة بطول ياردتين يرتكز على عجلات ، وربما تجد في الخيمة مائة رجل في حالة جلوس • استقبلنا رجل في الثلاثين من عمره ، ووجهه يميل الى اللون الاسمر ، نقط بآثار الجدري ويضع على رأسه منديلا ورديا • وحالما ترجلنا كان من الصعوبة أن نتعرف عليه فقد كان سطام ابن شعلان شيخ الرولة •

ان عائلة ابن شعلان على الرغم من أنها لا تعد من ذات الاصول البعيدة تملك أكبر ارث عائلي في البادية • ويحق لسطام بحكم مولده أن يتباهى بحكم شعب يبلغ تعداده عشرين ألف نسمة على الاقل ، وبامكانه أن يقود خمسة آلاف رجل في ساحة المعركة • وكيف يمكن لعائلة أن تكسب مركزا وهي ليست قادرة على اكتشاف الماضي الا أنهم لا زالوا يحتفظون به الآن منذ عدة أجيال ، وحتى اليوم لا زالت المشيخة متوارثة بينهم • علما أنها لم تدم طويلا عند آل الطيار وآل الجندال •

لم نجد مثل هذا عند قبائل العنزة الاخرى ، لأن كل مجموعة يرأسها شيخ منفصل . ومركز جدعان بينهم ما هو الا من قبيل النفوذ الشخصي فقط . ولم نجد مثيلا لعائلة الشعلان الا عائلة الجربا في الجزيرة ، الا أن الرولة من حيث القوة والثروة تفوق التمريين كثيرا ، ومع هذا كله لم أجد لسطام سطوة كبيرة بين قومه . ومن السهولة أن تراه ضعيفا في اتخاذ القرارات ، وانما هو مجرد ألعوبة بين أيديهم ، حتى انه لم يكن القائد العسكري أو العقيد ، وهو لن يفشل في هذا المجال لو كانت لديه الصفات الضرورية للقيادة . كان عقيد الرولة رجلا عجوزا من المعجل ـ فرع من القبيلة ـ اسمه حمود ؛ وهو نفسه الذي قاد الغزو على السبعة في ذلك اليوم وليس الشيخ سطام ، على الرغم من أن سطاما كان ضمن الجماعة .

كان استقبالنا في خيمة سطام مؤدبا لطيفا ، الا انه لم يكن حميما بصورة خاصة ، لأن سطاما كان يتذمر من التعب والارهاق ، لأن حملة الغزو قد أنهكته ، فتركنا وحدنا طيلة اليوم . وعند الظهر جاء الشيخ حمود ـ عقيد القوم ـ لزيارتنا وانتهزنا الفرصة لفتح باب المفاوضات معه في موضوع مهمتنا الدبلوماسية التي كلفنا بها جدعان ، وهو ما يهمنا كثيرا، ولدينا بعض التعليمات والشروط التي حملها جدعان لعبد الرحمن الحلبي ـ دكتور الشريعة ـ الذي كان يرافقنا ويملك صلاحية مطلقة في القضية على أن ترتب الامور على الشكل التالي :

١ ـ الاسراع بعقد الصلح .
٢ ـ كل الخسائر في كلا الطرفين تعتبر منتهية .
٣ ـ يجب على ابن شعلان أن يسحب ادعاءه بمراعي حمص وحماه .
٤ ـ يستقبل السبعة الرولة ضيوفا في أعالي البادية لأنها تتسع لهم جميعا .

اقترحنا شروطا لطيفة جدا على سطام وعلى العقيد في ظهر هذا اليوم ، ودعمناها بمناقشات وشروح مناسبة . أخبرت الشيخ سطاما : ان رجلا مثله في هذه المكانة العظيمة عليه أن يضرب لقومه مثالا في الحكمة ، وألا تجرفه

شهوة المجد المجردة التي تجعل كثيرا من الناس العاديين حمقى لا فائدة منهم ، وعليه أن يعرف أن حربا كهذه بلا هدف بين قبيلتين من العنزة ستكون ماحقة للطرفين ، وأن الابل التي غنمها اليوم سوف يخسرها غدا ، لأن الحرب كر وفر ، ولن ينتفع فعلا من هذا النزاع سوى الاتراك أعداء الجميع ، وعليه أن يدرك الامور بحكمة خيرا له من أن يكون ألعوبة بأيدي الباشوات •

وافق سطام في البداية على كل ما قلناه ، معترفا بأن الحكومة التركية منذ البداية كانت هي الملامة على تفجير هذا النزاع ، الا أنه أصر على أن الحرب يجب أن تستمر ، لأن قومه يرغبون بها ولا يستطيع السيطرة عليهم ، بينما العقيد العجوز كان يميل الى السلم لأنه طاعن في السن ومن النوع المجرب الذي شهد الحروب الكثيرة ، ويعرف المنافع القليلة والامجاد الضئيلة التي تأتي بها الحرب الا أنه من عادته أن لا يقرر مثل هذه الامور في القبيلة ، ولكن يقودهم فقط عندما يختارون القتال • أما بالنسبة للباشوات فمن المستحيل التعامل معهم بدون تقديم الهدايا • وباعتبار أن القبيلة ترغب بالقيام بالمبادلات التجارية والمنافع مع المدن ، فلا يمكن تحقيق ذلك بدون الدفع المجزي • الليدي : ماذا لو اتحدت قبائل العنزة ؟ عندها لن يكون للشيوخ الحق في ارسال الهدايا للباشوات ، وسطام بدلا من أن يرسل الخيول الى حماه فانه سوف يتلقى المنح الحكومية وأثواب الشرف • ونزاعات العنزة أفقدتها السيطرة على المدن التي اعتادت أن تدفع لهم الجزية • الا أن الاتراك يستأثرون بها بطريقتهم الخاصة وجنبوا أنفسهم القتال لأن الرولة تمارسه بالنيابة عنهم •

سطام : لا يفهم قومي مثل هذه الاشياء ، ويرون الربح الوفير في بقائهم أصدقاء للحكومة وتنفيذ كل ما يقوله الباشا لهم •

الليدي : هكذا اذا شنوا الحرب على اخوانكم ! وستندم على ذلك في يوم من الايام عندما يطردكم الاتراك جميعا الى نجد من حيث أتيتم •

سطام : لا أستطيع فعل الا ما يرغبه قومي • فهم يريدون سهول حماه مراعي الابل التي ازداد عددها والحمد لله وتضاعفت في السنوات الاخيرة . والحماد لا يتسع لكل القبائل •

الليدي : السبعة تقبل استقبالكم ضيوفا في أعالي البادية ، وهناك منع للجميع .

سطام : نعم . ولكن الاتراك لا يرغبون في أن نعقد صلحا .

كانت تلك قصتنا مع سطام . وقد بدا فيها ضعيفا في قيادة قومه ، ومع ذلك فقد وافق العقيد على أن يتدارس القضية مع الرؤساء الاخرين للقبيلة . وجلسوا فعلا على شكل حلقة على الارض على بعد مائة ياردة . مجتمعين لمناقشة المقترحات .

استقبلنا بالاضافة الى العقيد وسطام عددا لا بأس به من الزوار في خيمتنا وكل أحاديثهم كانت تدور حول الغزو الذي يعتبرونه ناجحا جدا . فقد غابوا خمسة أيام فقط وساروا ثمانين ميلا في اليوم الواحد ، ورحلة العودة كانت بطيئة لأنهم كانوا يسوقون الجمال المأسورة ، ونيرانهم بالطبع هي النيران التي كان محمد يراها من فوق تلة البوصيري .

كنا في دهشة من أن نسمع بأن الرولة وهي في أوج قوتها لا يمكنها أن تجند أكثر من ألف فارس في حملة من هذا النوع ، ولكنهم فلسفوا القضية بمفاهيم أخرى : فهم كانوا يديرون القتال بطريقة حديثة وفعالة . فبدلا من الخيول كان معظم فرسانهم يركبون الابل ، ويجلس كل اثنين ظهرا لظهر على كل ذلول ، وبأيديهم الاسلحة النارية . وهذا النوع من المشاة المحمولة يدعى « السقمانية » . ويمكن لهم تجنيد أربعة آلاف أو خمسة آلاف محارب بهذه الطريقة ، والقليل منهم رافق الغزو كنوع من فرق الاستطلاع ، ومنهم الرجال العشرة الذين صادفناهم يجثون في الوادي في اليوم الذي وصلنا فيه الى جدعان ، كانوا دون أدنى شك جماعة منهم ، أرسلوا للتجسس والحصول على الاخبار وتحديد نقاط الضعف عند السبعة .

كل الجلاس اليوم ينتشرون في السهل ، ولم يحدث مثل هذا منذ عشرين عاما ، كلهم هنا باستثناء خمسمائة خيمة بامرة طلال ابن عم سطام بن شعلان الذي تشاجر مع الشيخ لأسباب عائلية تتعلق بالزوجات ، والذي تخلف عنهم

قرب جبل شمر هذا العام . ومهما قيل يصعب علينا تحديد العدد الحقيقي لخيام الرولة ؛ لأن بعضهم يقولون : انها خمسة آلاف ، وبعضهم الآخر يقول : انها عشرون ألفا . وعلى هذا الاساس يبدو ليست لديهم فكرة عن الاحصاء وكثيرا ما كانوا يبالغون . الا أن ولفرد قال : ان الرقم العشرين ألفا هو العدد التقريبي لهم . والخمسين ألفا بعد المائة يبدو أنه العدد المنصف لجمالهم .

ان الالف جمل التي أسرت هذا الاسبوع أخذت تقسم بين الذين اشتركوا في الغزو ، ويمكن تمييزها من الاغلال التي وضعت في الاقدام الامامية لكي لا تشرد الى أهاليها من جديد .. وشاهدنا في المخيم ابلا سوداء كثيرة من ابل نجد التي كانت مهزولة وأصغر حجما ، وتعطي حليبا أقل من الحليب العادي ولا يفضلها البدو كثيرا . وصل الينا بين الوافدين ابن سطام الصغير برفقة مربيته . انه منصور الصغير ، وهو في عمر الاربع سنوات ولد جميل جدا بخدود ريانة وردية وبمزاج ودي شجاع ، اذ لم نجد فيه الخجل الذي نجده عند الاطفال الاخرين ، حيث مشى عبر الخيمة وحده كي يقبلني .

عاد حمود مع عبد الرحمن لكي ينقلا الينا أخبار مجلس الحرب الذي نشك في نتائجه السلمية على الرغم من عدم وضوح أي شيء حتى الآن .

يبدو أن الشيخ سطاما كان قد استلم رسالة من جودت باشا الوالي الجديد لدمشق(١) ونودي على عبد الرحمن ليقرأها .. كانت الرسالة جافة ؛ تأمر الرولة بالابتعاد عن الشمال هذا العام ، وانتهت بكلمات تقول : اذا كان لديك ما تقوله لي حول هذه النقطة فاني على استعداد لأن أراك في دمشق ؛ وسأصغي اليك برحابة صدر .

اعتبر سطام وكل شخص غيره هذا الكلام مأخذا على الباشا وكلاما شاذا لا يتوقع صدوره من مثله . وهنا سرت أقاويل : بأن الباشا الجديد جاء جائعا ويريد حصته من العطايا لذلك يستعد سطام للذهاب الى دمشق يوم غد محملا

---

(١) جودت باشا (١٨١٣ — ١٨٩٤) : سياسي عثماني من ولاية الطونة ، تقلد عدة مناصب حكومية ووصل الى مرتبة وزير . له مؤلف في احوال الدولة العثمانية يسمى تاريخ جودت .

بالهدايا . وهو أكثر تصميما للاستمرار في لعبته مع الاتراك ، ولهذا رأينا أنه من العبث أن نحاول ونقنع سطاما بالخطر التشخصي الذي يتهدد ابن شعلان هناك ، ولأن الشيوخ وأصحاب المقام العالي البارزين فقط هم الذين في منأى عن الخطر في غالب الاحيان . اجتمعنا مع سطام أخيرا وجربنا كل ما تبقى لدينا من نصائح ، فأصغى لها بأدب بالغ . والتمس بتواضع أن نعذره لأنه لا يستطيع أن يفعل شيئا نرغبه ويخالف رأي القبيلة ؛ وقال : انه لم يتشاجر مع جدعان . ومع ذلك فقد تركته زوجته ، وأن السبعة قد عانت من الحرب أكثر من معاناة قومه في الحرب ، ولكن عليه أن ينتظر ويرى أي طريق يحب الرولة سلوكه . فهم اليوم يكلفوه بهذه الرحلة الشاقة الى دمشق لأنهم لا يستطيعون البقاء في أماكنهم الحالية ، لأن العشب سينفذ كله . وعليهم أن يعبروا التلال غدا باتجاه جيرود[1] . بينما سيذهب هو معنا الى المدينة .

كان سطام حزينا للطريقة التي يلزمه بها قومه ، ولأنه يضحي باهتماماته الشخصية لارضاء قومه ، وعليه أن يصبح فقيرا بينما هم يزدادون غنى ، وعليه أن يجد الخيول والجمال التي تشبع نهم « العصملية » ، لأن الرولة ترغب أن تتاجر مع سكان المدن والفلاحين بحرية ؛ وعليه أن ينهي المهمة حالا .

ليس لدي احترام كبير لسطام . ولكن لا يسكنني الا أن أشفق عليه . لأنه مجرد انسان ضعيف أمام رغبات قومه . تناولنا هذا المساء عشاء أنفق عليه بسخاء في وقت كان يدور فيه رقص وغناء في الجوار على شرف وليمة ختان .

في الخامس عشر من نيسان . بينما كانت الخيام تهدم والجمال تحمل . تحدثت لمدة نصف ساعة مع جوزة ــ زوجة سطام الاولى ــ التي كانت تتشاجر مع ابنه جدعان . وباعتبار أن كل شخص كان مشغولا باستثنائنا تكلمنا بحرية دون أن يقاطعنا أحد من المتطفلين الذين يحيطون بزوار خيمة النساء .

كانت جوزة جميلة ورشيقة بقسمات ناعمة ، وكانت لطيفة جدا ؛ اذ بدت كما لو كانت بمزاج خاص يميزها من بين النساء ، وكانت بارعة وحاذقة في

---

[1] بحيرة شمال شرق دمشق .

الحديث أكثر من كثير من نساء العرب ، وتتقن فن المجاملة والاسترسال بالحديث أكثر منهن ، لأن من عادتهن أن يصلن معي الى نهاية مسدودة عندما كن يسألن عن عدد أولادي ، وكم تبعد بلادي عن هذه الديار • أما جوزة فقد أبدت احتساما بما قلته عن رحلاتي ، وسألت عن الناس الذين تعرفت عليهم في البادية ، وكانت فضولية بسؤالها عن نساء شمر ، وهل هن من الجميلات كما يقول الناس ؟ وما هي امكانات لبساهن ، وهل هن نظيفات وأنيقات ؟

ان الشيخ سطاما هو ابن عمها الاول ، ولكنها تحكسه بالنار والحديد ، وبوجودها لا تطيق أية امرأة أخرى البقاء طويلا في خيمته ، ولقد تخلصت من اثنتين أعرفهما • ويبدو أنها مصممة على الاحتفاظ ببيتها كأم منصور والسيدة الاولى • كان الطفل معها وقد جعل نفسه محبوبا لأنه توسل لأمه كي أبقى معهم . فأعطيته صفارة صغيرة جدلت خيطها وعلقته في عنقه ، وفرح جدا عندما علمته كيف ينفخ بها •• لم يكن منصور مثل بقية أطفال العرب الذين كانوا يتشبثون بكل شيء ينالونه ويطالبون بالسكر ، ولكنه كان مؤدبا وبتربية حسنة عالية ، الا أنه كان وسخا لأن أمهات الاطفال هنا يدعن أطفالهن بهذا الشكل خشية أن تصيبهم العين الشريرة •

هدمت الخيمة فوق رؤوسنا وكان علينا النهوض ، لذلك قلت لهم : الوداع ، وودعت جوزة التي وعدت بأن الطفل لن ينساني • كانت العُطفة(١) آخر شيء حساه قوم ابن شعلان معهم ، وهي هودج ضخم يستخدمه الشعلان عندما يتوقعون حدوث معركة وأشبه بقفص ضخم من الخيزران يغطيه ريش النعام ، وربما يعود تاريخه الى تاريخ الرولة في نجد وقصة قدومهم الاولى من هناك ، لأن النعام ليس له وجود شمال جبل شمر كما أظن •

---

(١) هودج من الخيزران يغطى بريش النعام ويشد على جمل ، وفيه تجلس بنت عقيد القوم أو فتاة جميلة نشيطة طلقة اللسان تنشد وتزغرد للمحاربين وتحرضهم على القتال ، وتسمى هذه الفتاة (المعمارية) وكانت آخر القبائل تمسكا العطفة الرولة في بادية التام .

تحمل العطفة(١) على ذلول وفيها فتاة وظيفتها الغناء للمحاربين وشحد هممهم ، وهذه الفتاة يجب أن تكون رابطة الجأش طويلة النفس ، لأن المعركة تحتدم حولها في حالات الكر والفر . والرولة تعتقد اعتقادا خرافيا مفاده أنهم سيهلكون فيما لو خسروا العطفة ولهذا فهم يستميتون في الدفاع عنها . كما أن العدو لديه رغبة مماثلة في أسر ساكنة العطفة . كانت لكل قبيلة من القبائل الكبيرة عطفة واحدة في الايام الماضية ، الا أن عادة اصطحاب العطفة في الحرب أخذت تندثر من بين قبائل البدو ، وربما بسبب ندرة ريش النعام وصعوبة تجديدها . الا أن الرولة لا زالت تحتفظ بها . وأعتقد بأن قوم ابن هذال لا يزالون يصطحبونها ، وفي هذا اليوم حملت العطفة فارغة على ظهر ناقة فارهة وجميلة . أرسلنا الخيل والحمير من أجل الماء الى التلال التي تنهض شمال السهل . والتي تدعى جبل الرواق حيث يوجد نبع ماء عذب يدعى بئر شدحه ولم نعد بعد ، على الرغم من أن خيام الرولة جميعها قد هدمت وبدأت بالمسير .

أبقى سطام خيمته منتصبة على سبيل الادب ، ولكنه لا يستطيع الانتظار لمدة أطول ، وجاء ليودعنا ، وعلينا أن نراه ثانية اليوم ليلا أو في يوم غد . ولكن عليه أن يواكب قبيلته حتى التلال أولا ومن ثم ينضم الينا في الطريق ليذهب معنا الى دمشق . اني أشاهده الآن يركب مبتعدا مع بعض رجاله وأربعة خيول وناقة مع صغيرها أخذت هدية للباشا . ويبدو أن الخيول لم تكن ذات قيمة ملحوظة . والآن ذهب جميعهم .

يصعب على المشاهد رؤية السهل يخلو تدريجيا من ساكنيه . اذ لا نزال نراقبهم ينسابون على شكل جماعات من الشعب وأعالي التلال . وكيف يمكن لكل هذا الحشد في المخيم أن يرحل ويخلف صمتا مطبقا ؟ ولنصبح وحدنا في البادية بين المراعي المسحوقة ، ولا أثر يذكر لأناس كانوا يعيشون في هذا المكان ، لأن العرب لا يخلفون شيئا خلفهم ولا حتى قصاصات الورق التي

---

(١) علمنا من بعض المصادر ان من يخسر العطفة ويوقعها بيد العدو ، لا يمكنه ان يتخذ عطفه بدلها ، ما لم يستردها ، او يأخذ عطفة من الاعداء ويغنمها . وكثيرا ما تكثر الضحايا حولها وتتجندل الابطال حتى النصر او الموت .

يجدها المرء في أماكن المتنزهين بعد انتهاء النزهة . كل هذا باستثناء جماين ربما كانا من الجمال التي غنمت مؤخرا ، تركت لأنها كانت تعرج بشدة ، وبقيت لأي شخص تال يريد أن يستهلكها . وهنا تلهف غانم الى سوقها وبيعها في دمشق . الا أن ولفرد لم يسمح له بذلك . مساء لم ننطلق حتى الساعة العاشرة تقريبا ، وارتحلنا لمدة خمس ساعات فقط ، نصفها على الاقل عبر ما كان يسمى مخيم الرولة ليلة البارحة ، ولهذا فان المساحة الكلية التي كانت القبيلة تشغلها لا يمكن أن يكون عرضها أقل من اثني عشر ميلا ، ولم نكن نعرف هذا الا من خلال حركات الجمال التي لم تجد ما تأكله حتى جاوزنا تلك المسافة . ومن ثم تركناها ترعى كما تحب لأنها لم تأكل ما يكفيها منذ أربع وعشرين ساعة .

أصبحنا عند سفح جبل الرواق . فظهرت علينا غيمة بيضاء تدرجت فوق الافق أمامنا مباشرة ، وسرعان ما أخذت شكل جبل غطي رأسه بالثلج . انه جبل الحرمون المغطى بالثلوج . وهو المنظر الاول من الارض الموعودة . ومنها علمنا بأن دمشق لا بد وأن تكون أمامنا مباشرة وليست بعيدة ، ثم توقفنا في ظل خان مهدم كان يمثل العلامة الاولى لاقتراب الحضارة ، وعنده شاهدنا مرتع العشب الكثيف فقضينا فيه ظهرا رائعا شاهدنا من خلال جوه الشاعري آخر ما يمكن أن يذكرنا بالبدو .. انها ليلتنا الاخيرة في البادية ، وعلينا أن نستمتع بمعظم فترات الهناء فيها .

كنا على مقربة من الروابي البركانيه الغربية . وربما كانت تختلف عن العينات التي شاهدناها في تلال اللجاة . وعلى أحدها اصطاد ولفرد أرنبا بريا، وعلينا أن نقيم وليمة هذه الليلة احتفالا بترقية محمد الى رتبة الاخوة التي قررنا منحه اياها لاخلاصه وخدماته التي لا تقدر بثمن ، وتناقشنا طويلا فيما اذا كان جديرا بهذا الشرف لأن لقب الاخوة لا يستخف به اطلاقا ، أو أن يمنح لأي انسان الا للرجال من الطراز المعين. وبدا لي محمد في بداية الأمر خارج طبقة الأشخاص البارزين ، وعلى كل حال حان وقت التكريم . وكان على شيوخ

البادية الكبار أن يقسموا على التآخي مع شيوخ المدينة ، ومحمد هو الابن الاكبر والوريث لمشيخة تدمر ، وكلها يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار ، يضاف الى ذلك انحداره من سلالة بني لام والطالبيين قد يرفعه فوق عامة الناس وجموع فلاحي القرى . وكاختبار نهائي قررنا اثبات فيما اذا كان جديرا بالتكريم عن طريق اغرائه بالمال عملا بمشورة السيد « سكين » ، وبهذا سيكون أمام امتحان صعب في الواقع بالنسبة لبدوي ومواطن مثله في جزيرة العرب . ولكنه نجح نجاحا باهرا وخرج سالما من هذا الامتحان .

لقد خيرناه بين أمرين : اما أن يُرسل الى تدمر بمبلغ محترم من المجيديات مكافأة لخدماته أو أن يختار اخوة وصداقة البك . فأجاب محمد بتعبير رائع مؤكدا بأن البك لو ملأ منديلي بالقطع البيضاء فاني سأعتبرها لاشيء أمام شرف الاخوة عندها سويت القضية وحلف اليمين بحضورنا . وسيجلس محمد الليلة ولاول مرة ليأكل معنا في خيمتنا ، وعندما حلف اليمين أضاف لنص القسم عبارة : حتى آخر يوم من عمري . وتأثرنا تأثيرا بالغا لوقار المناسبة . حصل هذا في وقت لم يظهر فيه سطام بعد ، وعلينا أن لا نتوقع مقابلته حتى نصل دمشق .

في السادس عشر من نيسان أصبح الجو عاصفا ، ولكن لا يهم فنحن في نهاية رحلتنا تماما . وفي الليل شاهدت حول القمر قوس قزح جميل . فالقمر يشع وحوله هالة قبيل هطول المطر الغزير ، وكان القوس مرئيا ، ولكن الالوان لم تكن تميزه .

مررنا حالا بعد الانطلاق بمعسكر متطرف صغير للرولة ، ولكن دون أن يحط رحاله . فانضم الينا اثنان من الفرسان التابعين للمعسكر وركبوا معنا ميلا أو ميلين . ولكننا لم نستطع الحصول منهم على معلومات مفيدة لأن الصغير منهم كان خجولا والاكبر كان معاقا عن الكلام الشيء الذي جعل من المتعذر علينا فهم ما يقول ، ثم افترقنا بعد أن عبرا التلال الى اليمين لكي ينضما الى الجماعة الكبيرة للرولة في جيرود . أما نحن فتابعنا المسير باتجاه مستقيم الى جبل الحرمون أو ما يسمونه جبل الشيخ .

وصلنا عند الساعة العاشرة الى أول الحقول المزروعة والى بعض الاثار الاغريقية الرائعة ، وعلى بعد منها شاهدنا نبعا(١) وافرا من الماء العذب الذي لم نشاهد مثله منذ أسابيع • ويبدو أن النبع غير طبيعي فكيف يمكن لمثل هذا الماء الوفير أن يتدفق من الارض ؟• وبعد ذلك وصلنا الى قرية دمر النقطة المتقدمة للحضارة باتجاه البادية • كان المكان مزدهرا ومحاطا بالجنائن وبساتين الذرة؛ وهناك شاهدنا سكان المدن من ذوي الوجوه الشاحبة ، وهم يلبسون العمائم ويركبون الحمير بدلا من الجمال ، وكانوا يردون على تحياتنا كلما مررنا بهم بلثغة متكلفة عند السوريين قائلين : مرحبا• أصبحنا ثانية تحت سيطرة القانون العثماني • انه المكان المتوسط بين الحرية المطلقة في البادية والقيود الاوربية • وأخيرا قابلنا رجلا يلبس ثيابا افرنجية ويضع الخواتم في أصابعه ويتكلم الفرنسية • فأخبرنا أنه يعمل مترجما لقنصلية أجنبية ولم يكن ممن يجلب النظر اليهم ، لأنه كان حاسر الرأس أصلع وبثياب هزيلة • وفي اليوم التالي انطلقنا راكبين باتجاه دمشق •

* * *

---

(١) نبع الفيجة شمال شرق دمشق .

الفصل الثاني والعشرون

« كان شكلهم غريبا مشوها ... اثار في شيئا من الاضطراب
لذلك استلقيت خلف شجرة كـي اراقبهم بشكل افضل »
من رحلة الى هوينامز ــ سويفت(١)

كلمات أخيرة ــ دفاع عن الجمل ــ سطام في المدينة ــ وداعا ــ جماعة الياهو .

انها الكلمات القليلة التي أنهي بها قصة الرحلة ... مضى علينا أسبوع في دمشق ننتظر وصول النقود التي سننفقها للوصول الى الوطن . لأننا قد استهلكنا كل ما نملك واعتمدنا على بيع الجمال كي نعوض المبلغ المطلوب . اذ قام فرحان ومحمد بترتيب عمليات البيع بشكل رائع ، ووجدنا في غضون أيام ربحا صافيا في أيدينا بلغ خمسة عشر شلنا عن كل دابة اشتريناها من بغداد . وبعنا فرسنا طرفاء بخسارة طفيفة بينما تركنا الخيول الثلاثة الاخرى مع القنصل لكي يشحنها فيما بعد الى انكلترا . أما الحمار الابيض فقد بيع بالمبلغ الذي اشتريناه به ، والستة عشر جنيها التي دفعت كانت مناسبة لمثله . اذ لم تبد عليه علائم التعب حتى نهاية الرحلة على الرغم من أنه كان يحمل ما يوازي ثمانية عشر حجرا على ظهره ، ولم يعثر خلال المسيرة كلها .

لقد ذرفنا الدموع عندما فارقنا الجمال كتلك الدموع التي يذرفها الناس عندما يفارقون أعز ما يملكونه . وهذه الحيوانات المخلصة قد قامت بكل ما طلب منها دون تذمر ، حيث لم أقل لها أية كلمة . ومما يثير شجوني تذكري كم كانت هذه الحيوانات مطيعة ولطيفة ، بينما نقرأ ما كتبه بعض الرحالة عن نزعاتها الشريرة تعصبا لغيرها من المطايا فأحد الكتاب مثلا كان عليه أن يكون منصفا عندما كتب صفحة أو صفحتين عن الجزيرة العربية ، وذكر في

---

(١) سويفت جوناثان « ١٦٦٧ ــ ١٧٤٥ » . كاتب انكليزي . من اشهر آثاره : رحلات غاليفر عام ١٧٢٦ .

مقالته ذما لقلب مشاعر الجمل ، بينما المجرب الحقيقي لهذا المخلوق لا يجد مثل هذا القول ، وألصقت تهم قاسية به على الرغم من أن الرفسات النادرة لا يمكن أن تتوقعها صادرة عن الجمل . ومهما كانت هفوات الجمل فلا يمكن عده من الحيوانات ذات المزاج السيء ولعل هدير صوته سيكون مرعبا لأي شخص في أول وهلة ، باستثناء ابن الشارع من أحياء « كوكني » الذين يعتبرون صوته كخوار البقر . والرغاء هو طبيعة صوته الا أنه لا يعتبر مخيفا الى هذا الحد ... والحقيقة ان الجمل يستخدم صوته على سبيل الانذار ، عندما يُحمل فوق طاقته ، أو عندما يجهد في العمل فانه يتوسل بواسطة الصوت طالبا الرحمة . واذا ما ضجر المسافر من رغائه فعليه أن ينظر تحت قتبه قبل امتطائه فلعله يجد سببا لتذمراته العالية التي يصدرها هذا الحيوان المسكين . وبشكل عام يرغو الجمل غير المروض بسبب الخوف ، ويرغو الجمل عندما يجرحه السرج . فكم من مرة تنبهت على صوت جملي وهو يتوسل بادارة وجهه الواجم ليوكز ساعدي ، فأجد عندها بأن السرج « القتب » يحتاج الى حملةحشو مرة ثانية . وفي أكثر من مرة يحين الوقت للترجل اذ لم أكن راغبة بتعريض نفسي لخطر السقوط . فهل هذا السلوك يعد من قبيل المزاج السيء ؟ أم أنه الحاجة الى اشعار الاخرين بما يحدث ؟ وكم أحببت الخيل ! الا انني أعتبرها أقل مرتبة من الجمل . ومن يشك في هذا القول عليه أن يصطحب الجياد والجمال في رحلة ويرى بعينيه تصرف كل منها . فالجواد ان لم يكبحه راكبه فسيبدأ يومه برفسات مضحكة في الهواء وينهيه بعدو متثاقل وئيد . ويتعثر ويتهالك في نهاية المطاف . واذا ما ركب فانه يركب بحذر قد يدوم اليوم كله ، ويجوع الجواد في الليل والجوع أكبر ظاهرة على المسافر أن يلاحظها في مطيته ، ولهذا يرخى له العنان لكي يأكل ، بالاضافة الى أننا لا نجد منافسا له في الصهيل والصياح الا بعض الانواع من الحيات « بسيفالوس »(١) : اذ بولع بالصهيل والمماحكة . فاذا ما قدم له العشب وعرض لموقف قتال فانه سيترك العشب اللذيذ لأن القتال والروح العدوانية عنده أشد رغبة ، واذ لم

---

(١) بسيفالوس : نوع من الحيات الخبيثة تسمى أم العيون يكثر من الفحيح .

يتدخل صاحبه في الوقت المناسب فلن يكون صالحا في رحلة اليوم الآخر • ومن المخاطرة أن يترك دون تكبيل أو ربط من أقدامه الى وتد كبير • وفي الصباح الباكر ستجده إن لم ينفلت رباطه وقد تلوى في رسنه بشكل يصعب تخليصه منه • وكم من مرة تراه يتضور جوعا لأنه لا يستطيع الوصول الى العشب • واذا ما غطاه صاحبه بدثار غليظ ليبقي جسمه دافئا ، فربما ينزعه وهو يحاول التدحرج على الارض فترى الدثار قد تدلى من حزام السرج • وعندما يمد صاحبه عباءته ويكوم فوقها الذرة أمامه يدفن الحصان فمه ويملؤه ثم يستدير لبعض خاصرته ويبعثر نصف طعامه على الارض ، وفي لحظات أخرى ينبش بحافره الكومة ليخلطها بالوحل تحت أقدامه •بينما الجمل الذي يوصف بالغباء وسوء الطبع يبقى مقتصدا لقوته على الرغم من أنه يسير طوال اليوم، ويحافظ على خطوة المتزن وكأنه بائع متجول درب ميلا بعد ميل وساعة بعد ساعة • وما ان تنتهي الرحلة حتى يمشي بعدها لتناول طعامه ••• انه يعرف قيمة الوقت ولا يضيع أية لحظة ، ويحرص على أن يبقى في المحيط الذي تنتشر فيه الجمال ، وكثيرا ما يصغي الى نداء سيده • وعند الغسق يتوقف ليدير رأسه وهو يرصد نيران المخيم ، وعندما يراها مشتعلة يعرف أنه قد حان وقت المبيت فيشق طريقه ببطء الى المضارب ليركع بارادته لكي يتلقى نصيبه من الفول أو كومة من بذور القطن ، ثم يجتر ما مضغ حتى الصباح • فأي من هذه الحيوانات يبدي احساسا عظيما بالمسؤولية خلال اليوم ؟ وأي منهما يكون في مزاج حسن ؟ ومهما قلت ، فكفى لأنني قد فقدت ابلي •

بعد هذه التوديعات الصامتة كان علينا أن نقوم بتوديعات أكثر رزانة••• حنا ، فرحان ، غانم ، محمد ، القنصل ، فكل بدوره ودرجته ونحن نعتصر النفوس من الالم •

كان غانم أول من انصرف لأنه كان في دمشق بدون مأوى ، وعوكس هناك في أول يوم اذ جرده الدرك من سلاحه الذي كان بمثابة عصاة حديدية يعتز بحملها ، وهو ما أثار اشمئزاز الفتى ، وانتهز أقرب فرصة ليودعنا بعد أن حظي بصحبة الشيخ الشرعي لقبيلته لكي يقوم بأداء الاغاني تمجيدا لأخبار

حرب الرولة • وهناك استعار اسم بندر بدلا من اسمه الحقيقي ، لأنه يعتقد أنه سيجد فرصة كافية لكي يصبح عظيما في نظر الاخرين •

ارتدى غانم ثيابا جميلة وعباءة ومنديلا من عائدات هدايانا له ، وأخذ يتبختر حول المدينة •• انه كما هو على حاله المخلوق الخالي السائح المتمتع، فاختفى أخيرا مع سيده ولم نعد نراه بعد اليوم •

كان حنا مسرورا جدا بأواني وقدور الطبخ بالاضافة الى استلامه راتبا مضاعفا عن كل الاشهر التي قضاها في خدمتنا، وبكى في الايام القليلة التي تبقت من الرحلة وأسال الدموع الغزيرة في يوم رحيلنا • أما فرحان فكان أقل تعبيرا عن عواطفه ومع ذلك كان مخلصا في كل شيء ، وكان الوحيد ــ بين خدمنا ــ الذي لم يطلب سوى أجرته ، ولهذا أخذ كل ما يستحق وما زاد اعتبره هبة من السماء ، حتى انه لم يعد نقوده وأكد بأنه على استعداد لأن يتبعنا حتى نهاية العالم ••• وكنت أصدقه •

رفض محمد أي راتب ، ولكنه كوفيء ببندقيته وببعض النثريات الصغيرة التي لم يفكر في طلبها،وحتى نهاية الرحلة بقي مثالا للفتى الذكي المرح وكعهدنا به أصبح أخا للبك ، وأبدى استعدادا لمشاركتنا المصير حتى نهاية العالم ، ووعد أن يذهب معنا في شتاء العام القادم الى الجوف لنساعده على اختيار زوجة له من قومه بني لام هناك على أن تكون فتاة من أصل نبيل جديرة بالزواج من سايل الطالبيين • أما عبد الرحمن على الرغم من أنه لم يكن من خدمنا الا أنه خدمنا بطرق عديدة خلال الاسبوعين الاخيرين ، فتلقى هدية عامل والمال عنده ــ كما علمته التجربة ــ نعمة ضرورية أكثر من المجد والتفاخر ، وقد ضحك بهدوء من تطلعات محمد « الرومانسية » ولم نكن نرى من مبرر لسحب احترامنا منه ، لأنه من علماء حلب وابن تاجر من تجار الخيل المعروفين • جاء سطام لزيارتنا أكثر من مرة في الحديقة التي خيمنا فيها ، وقد بدا المسكين مسرورا لأن يجلس على عتبة أو باب الخيمة ، لأنه كان يشعر أننا بدو مثله • وفي كل مرة نراه يزداد شحوبا واكتئابا لأن البدو يهزلون بسرعة في جو المدينة• وفجأة رجع الى البادية دون أن نعرف نتائج زيارته الى الوالي ، لأنه كان مراقبا ومصحوبا بموظف من موظفي الحكومة ، ولهذا كان متحفظا من الخوض في

أي حديث . لقد عملنا واجبنا بشأن الصلح ، ولكن لم نكن نرغب بالضغط عليه أكثر من طاقته ، وعلمنا بأنه عاد دون خيوله الى القبيلة ، وأن قضية مسيرة الرولة الى الشمال قد سويت بالتراضي ، ثم وصلتنا أخبار متأخرة تفيد بأن سطاما أصبح مرة أخرى في مراعي السبعة في حمص وحماة تدعمه الحكومة التركية ، ولهذا خشينا أن تكون مهمتنا الدبلوماسية قد أخفقت ، ولا ندري فيما اذا كانت السبعة سوف تستكين لخسارتها المنطقة ، أم أن القضية سوف تعقبها غارات ومعارك جديدة !

حتى الآن لا نعرف شيئا ، وان كنت أود أن أضيف ملحقا تفصيليا عن آخر الاخبار في البادية . أما عن عودتنا الى الوطن فليس من الضروري ذكر شيء من تفاصيلها . فما ان وصلنا الى دمشق حتى شعرنا بأن حنيننا اليه قد توقف وأن ما تبقى من أيام العودة كان تأخيرا مزعجا .

لقد تغلبنا على مشاعر لقائنا لاول بأهل بلدنا قدر المستطاع ، وأظهرنا مقدارا من البشاشة في وجوهنا ، الا أننا قد أصبنا بصدمة لأننا لم نكن نعد أنفسنا للتحول الكبير من شتاء قضيناه بين العرب وما فعله ذلك في أذواقنا وآرائنا وأحكامنا المسبقة على الامور الى حياة بيروت حيث قابلنا أول موجة من الحياة الاوربية . لقد وجدنا الفندق مهجورا فتناولنا عشاءنا بسلام على طاولة بدلا من الارض وبدأنا نشرب الماء مع الكؤوس ونأكل بالشوكات والسكاكين بدلا من الايدي والاصابع ، وكل هذا حتى الآن لم يثر دهشتنا ، وبينما كنا نجلس على أريكة في نهاية صالة الطعام نحتسي القهوة بوقار وهدوء الآسيويين علت في المكان ضجة وأصوات ضحك مرتفع ، ثم فتح الباب بعنف واندفع الى الارض رهط من الرجال والنساء الصاخبين ، وهم يرتدون المعاطف « والبناطيل » والتنورات القصيرة وال « جاكيتات » كل حسب جنسه ، ولكن برؤوس عارية حاسرة بشكل غريب ، وقدرت عددهم باثني عشر شخصا بوجوه متقدة ومثارة كما لو أنهم كانوا يشربون الخمر فمروا أمامنا الى الطرف العلوي من الصالة دونما توقف أو تحية ، وهناك دون تكلف رموا بأنفسهم على الكراسي . كانت الالبسة والاصوات والايماءات ومواقف الرجال والنسوة صاعقة بالنسبة لنا لا لأنها غريبة أو مثيرة للسخرية ، بل لأنها كانت غير محتشمة

ولأنها كانت غير مهذبة ولا لائقة وكأننا نشاهدها لاول مرة •

تبهرجت النساء بين المجموعة بشكل غير لائق ، وكل فتاة تدلي شعرها الغزير الاشقر مرتخيا على ظهرها ، وحلق الرجال الذقون بشدة ولبس بعضهم النظارات وارتموا بطريقة مزرية على الكراسي وبدؤوا يقايضون مجموعة حقيرة من الباعة المتجولين اليهود الذين لحقوا بهم وبينما كانوا يعرضون سلعهم كانوا يرمقون الغرباء غير المبجلين بنظرات احتقار واضحة • جرت المحادثات بين الفريقين بطريقة مخجلة أتوقف عن ذكرها ••• باللغة الانكليزية مرة وفي مرات أخرى بلغات أوربية، ورافقها اهانات وجهت الى الباعة ممزوجة بمداهنات وتملق كانت أكثر خزيا وحقارة • وكل المواضيع التي تحدثوا عنها كانت عن الاسلحة الشرقية المزيفة وعن حلي الفيروز المزيف وعن مخاريط الصنوبر في لبنان •• نادى ولفرد على ساقٍ واستفسر منه عن ماهية هؤلاء الناس وما هو سبب دخولهم الى هذا المكان ؟ لأننا كنا نعتقد أنهم من الطباخين السياح • وعادات هؤلاء مشهورة وربما كانوا يتناولون عشاءهم في الخارج ! أجاب الرجل : أوه ••• لا هؤلاء المسافرين هم من أثرياء الانكليز ذوي الاهمية وصلوا ليلة البارحة على ظهر يخت من مالطة •• أجل كانوا رجالا نبلاء من أبناء بلدنا • وكنت مسرورة لأن محمداً لم يشاهدهم وهم على هذه الشاكلة •

انتهت الرحلة ونحن مرة ثانية في انكلترا حيث لم يعد هناك سجل ملحوظ لمغامراتنا الشتوية • أما عن أصدقائنا في البادية فلم نعد نشاهد غير مسدس مشهور الذي علق فوق رف الموقد في الصالون ، وستة من الخيول العربية ترعى في الحديقة خارج المنزل بصحبة شريفة ومهر كميت عند أقدامها ، بينما كانت هاجر تنعم بالعدو والقفز فوق الارض الانكليزية • وعلى الطاولة استلقى الرأس الحجري الذي أعطانا اياه محمد في تدمر بين السياط والمظلات • انه النواة لما جمعناه من لقيات أثرية مع مجموعة من الرسائل وضعت لتعلن خبر يوم مشهود : اتحاد جدعان مع فارس • انتهى كل شيء باستثناء الفصول الاخيرة المثيرة التي اقترح علي ولفرد أن أنهي بها الكتاب ، اذ تضمنت معلومات جمعت خلال رحلتنا • وباعتقادي أنها لن تكون بدون فائدة على الرغم من أن ولفرد يقول : انها ستكون باهتة •

الفصل الثالث والعشرون

قسم كبير من الارض كان قد استوطن وعمر اكثر مما يعرفه الجغرافيون عنه

● السير توماس براون

جغرافية شمال الجزيرة العربية ـ معالم البادية الطبيعية ـ هجرة القبائل ـ وادي الفرات ـ القرى في البادية ـ بعض الاشارات لواضعي الخرائط .

يحد الجزيرة العربية التي حددت على خرائطنا خط في الشمال يبدأ من رأس الخليج العربي وينتهي بخليج العقبة . وذروتها وضعها الجغرافيون عند خط العرض « ٣٤° » الى الجنوب بعدة أميال عن مدينة تدمر القديمة ، وهذا التقسيم يمتد عبر التاريخ الى أيام الامبراطورية الرومانية ، وهو يمثل بشكل دقيق حدود السلطة الثابتة نحو الجنوب باتجاه الجزيرة العربية . وخط الفرات في ذلك الزمن كان محروسا كطريق عسكري عام يصل النهر بالتلال الواقعة فوق دمشق . وبهذا الشكل تكون القبائل في الجزيرة العربية مغلقة وبعيدة عن المراعي في الجزيرة السورية والبادية العليا .

وضمن هذه الحدود انتظمت حياة مستقرة وآمنة ضد الطامعين وسيطر القانون العام للامبراطورية ، ولكن بعد أن مضت قرون عديدة على فقدان الفرات أهميته في أن يكون الحدود الحقيقية للجزيرة العربية ، أو أن يكون الطريق العام المؤدي عبر حاجز تدمر الى القبائل هناك . فقد حان الوقت لكي يزول الخط الوهمي الذي حدده الجغرافيون القدماء من خرائطنا . لأن الجزيرة العربية الشمالية تضم في الوقت الراهن كل المقاطعة الواقعة ما بين سورية وبلاد فارس ، وتمتد شمالا حتى خط العرض «٣٧°» خط أورفا وماردين وعلى كل حال فالجزيرة والعراق والسهول الواقعة شمال تدمر هي بطبيعة الحال جزء من

الجزيرة العربية حيث تشكل مع الحماد وحدة متجانسة فريدة تتفق سماتها الطبيعية مع العرق الذي يستوطنها • فقبائل شمر والعنزة والمنتفك هم عرب أقحاح كأقاربهم في نجد ، وقرويو الفرات والجوف هم كأولئك الذين في كل اليمن والحجاز • ومن المحتمل فعلا أن تكون القبائل الكبيرة المالكة للجمال في البوادي الشمالية تمثل الحضارة القديمة للجزيرة العربية أكثر مما يمثله السكان المسلمون في الجنوب : ويرتبطون كثيرا وبشكل تقريبي بالفكرة والطريقة لمؤسسي التاريخ البدائي والتي يدعي الكل بالتحدر منها ، وعلى هذا يمكن القول بأن الجزيرة العربية ليس لها حدود أخرى غير حدود البادية •

ان السمات الطبيعية للبادية هي التي تخص السهل الواسع أو سلسلة السهول والنجود ذات التربة الفقيرة ضعيفة الري حيث لازراعة فيها غير مروية وسطحها كان في يوم من الايام مهد بحر داخلي (١) لان التربة السطحية لاتزال مركبة من الحصى واللحقيات الرملية التي تغطي طبقة سفلية من الحوار والصخور التجمعية • ويؤسفنا أن نقول بأن المنطقة بدون جبال أو جداول أو بحيرات ماء عذب لان النهرين العظيمين اللذين يقطعان الزاوية الشمالية لا يؤثران بالمنطقة التي يعبرانها : فهما يعبران السهل كغرباء يسرون دونما تفاعل مع البادية التي يجريان فوقها • والسلسلة المعتبرة الوحيدة من الهضاب التي هي تربط دمشق بالموصل وذلك في اسماء متتالية كجبل الرواق وجبل العسور وجبل عبد العزيز وجبل سنجار ، إذ تشكل خطا متصلا تبدأ من الضفة اليمنى للفرات وهذا الخط يتوضع فوق مستوى السهل شمالا وجنوبا وتتوزع الخضرة فوق التلال كما تتناثر مراعي الاغنام بشكل دائم وفي أسفل منها لانجد سوى مراعي الجمال •

انني استغرب كيف أن واضعي الخرائط الحديثة كالالمان يقلقهم تحسين النماذج القديمة من الخرائط ، وقد تخلوا بشكل واضح عن الوضع الطبيعي

---

(١) كانت جزيرة العرب وبادية الشام مغطاة بمياه البحر ، وتكشف عنهما في عصر الباليوجين من الحقب الثالث الجيولوجي ... اي منذ خمسين مليون سنة تقريبا .

لهذه السلسلة من التلال والتي كان الجغرافيون القدماء حريصين على ابرازها وهي مبادلة غير موفقة تجد فيها المساحات الفارغة القديمة من البادية مليئة بعلامات جديدة ، فاما أن تكون خيالية بشكل كامل أو بعيدة كل البعد عن التناسب الحقيقي الذي يمثل قيمتها على الارض ، ولا نجد شيئا أكثر اثارة لمسافر يريد شق طريقه عبر البادية بمساعدة احدى تلك الخرائط الالمانية من وجود عدد من التلال الرائعة والوديان المعلمة عليها ، والهضاب والمجاري المائية ، ولم يكن هذا لعرض مفيد الا لتبدو الخريطة مقبولة لعيني صانعها . وكم من مرة تتبعت فيها واحدة أو اثنتين من تلك التحسينات استناداً الى مصادرها بدقة .

وهكذا في عام ١٨٧٢ عبر ضابط فارسي يدعى « تيلمان » الحماد من بغداد متوجها الى دمشق وباعتباره ضابطا فطنا دون كل ما رآه أو شاهده في طريقه ، ولاحظ من بين الاشياء الاخرى نطاقا معينا من التلال ـ الحافة المتهدمة للنجد أو الارض المرتفعة ـ وعندما سأل مرشده العقيلي أجاب : انها البرية أو البادية ، ويعني هذا أنه لم ير شيئا يمكن التعرف عليه . وفي الطبعة الثانية لاطلس « كيبريت » يظهر جبل البرية كسلسلة جبال ، وفي خريطة اخرى يعلم جبل الرواق بقمة واحدة ، وفي ثالثة نجد تدمر تنتصب في واد ، وفي حقيقة الامر يمكن القول : انه باستثناء منطقة الفرات التي مسحها الكولونيل شيسزني منذ أربعين سنة لايوجد جزء من الجزيرة العربية الشمالية فحصته يد خبير حتى اليوم ، وصنّاع الخرائط يحسنون صنعا عندما يقلدون « ستاندفورد » والذي ـ نتيجة لعجزه عن الحصول على معلومات يعتمد عليها الرحالة المعاصرون ـ يتمسك بشجاعة بالتقاليد القديمة ، فخريطته تبدو جرداء ولكنها صحيحة دقيقة ، وهي الوحيدة التي وجدناها مستعملة .

ولكي اتابع البحث أقول : ان السمات الطبيعية للبادية هي تلك السهل المغطى بالشجيرات ذات الرائحة العطرة ، والتي توقفت عن النمو ؛ ولكنها تعيش بغزارة كالخزامي البري الجيد النوعية ، ومن الملاحظ أن هذه الشجيرات كثيرة التنوع ، الا أنها لاتكون متساوية في قيمتها للمرعى ؛ فبعضها

تكون مفيده للجمال وأخرى مفيدة للاغنام ، وقليل منها يعتبر عديم الفائده وعلى التربة الغنية بعد هطول الامطار نجد الاعشاب وأنواعا من النباتات الزهرية واذا ما شبهت الاجزاء الشمالية من الجزيرة وصحارى سورية العليا بشيء فاني اشبهها بمنحدرات « ويلتشاير » الكبيرة المكسوة بالعشب وخصوصا عندما تنظر اليها في أيام الربيع ، والتشابه سيكون سطحيا لان هذه لم تحرث ابدا ولانه لاتوجد مروج دائمة في أي جزء من البادية مطلقا . في السهول العليا يجتمع البدو في الربيع لجز الصوف من قطعان الغنم ، ولعقد الصفقات التجارية مع سكان المدن . وفي هذه الاماكن يمكن ايجاد المراعي الكافية حتى في أيام الحر الشديد فعندما يجف العشب ويصبح أبيض في حزيران تظهر أوراق جديدة على الخزامى البري وعلى الشجيرات التي من فصيلتها ؛ وعندما تهطل أمطار الخريف الاولى يعود اللون الاخضر الزاهي ولا يحتاج الى مزيد من الماء . أما في فصول القحط الكبيرة يصبح واديا دجلة والفرات مرتعا لكل السكان الذين تجد جمالهم الكلأ في المراتع الكبيرة للطرفاء التي تحاذي الانهار . وعند أول موجة للصقيع تتحرك العنزة جنوبا ، وما ان يحل كانون الاول حتى يختفي كل جمل من شمال السلاسل والهضاب والسبب المباشر لايعود كله الى البرد . لان الجمال تتحمل الطقس القاسي . بل في كون الشجيرات تفقد أوراقها ولا تصلح بعدها غذاء للاغنام ، كما أن المراعي لم تعد مناسبة . فيتحولون جنوبا الى المناطق ذات الشجيرات الدائمة الخضرة . أما القبائل التي لاتربي طوال العام سوى الاغنام فلا تغادر المنطقة ، بينما البدو الذين يملكون الابل فهم في ترحال دائم ؛ فالعنزة تذهب جنوبا في الشتاء حتى تصل على بعد مسيرة أيام من جبل شمر عند الخط الذي يصنفه الجغرافيون بخط العرض « ٢٨° » ، فهم يتجولون في نطاق واسع قدره عشر درجات ، وفي بعض السنوات يرتحلون بصورة استثنائية مسافة الفي ميل ما بين شهري تشرين الثاني وأيار .

تتوالد الجمال في شباط وأوائل آذار عندما تكون العنزة في أقصى حدود النجعة الجنوبية ولذلك فان الحيوانات الحلوبة ستجد الفرصة مواتية

للتغذي على الشجيرات العصيرية الريانة . ومنها : الغرقد(١) أو كما يكتبها بالغريف « الغـارة » وهي النبات المفضلة والتي تكون شجيرة شوكية تنمو بارتفاع خمسة أقدام ؛ ولها ساق يميل الى الحمرة ؛ وأوراقها خضراء لحمية . وتذكر المرء بنبات القرانيا الصغيرة عندما تنمو بهذه الطريقة . ومع ذلك تعود القبائل للتحرك ثانية نحو النسان بعد أن يبدأ موسم التوالد . وهي تسير من ثمانية الى عشرة أميال في اليوم محافظة على خطوات ثابتة تمر بأماكن نمو العشب والبابونج النباتات الاخرى التي تحبها الابل ، ومعدل السير لايتجاوز الميلين في الساعة على مقدار ما يستطيع الجمل الصغير أن يسير به .

في هذا الوقت من العام عندما يكون الفصل في شروطه الفضلى نجد الحماد منطقة من أجمل مناطق العالم فهو عبارة عن سهل واسع متموج بالعشب والازهار ، فالمنثور بلونه الارجواني يغطي التربة الخصبة ويضفي على المنطقة لونه الجميل . والجمال تفضله على غيره في المرعى ، أما التجاويف والمنخفضات فتملأ بعشب المروج الكثيف وبالشعير البري والجاودار البري والشوفان . وتتطاير من بين وريقاتها طيور السماني «الفري» بينما يتناثر هنا وهناك «الغرنوق» الازرق « البختري » وهو ما يسمى بابرة الراعي يتخلل البابونج . بينما نجد على التربة الفقيرة الازهار التي ليست أقل شحوبا كالخزامي والقطيفة والازهار النجمية وأزهار السوسن وبعض أزهار المنثور القرمزي . ومن أجمل الازهار هنا الانواع التي نجد ما يماثلها في حديقتنا لاننا لانشك بأن الصليبيين كانوا قد جلبوا لنا كثيرا من أزهار البادية التي نعتبرها اليوم من الأزهار الانكليزية المنشأ . ويحق لي أن أقارن ما أجده هنا بأزهار حدائقنا .

ان رعاة قطعان الابل يتحركون ببطء طوال الربيع . بينما تكاد الخيول أن تموت جوعا خلال ثمانية أشهر من العام . ولكن الأمهار تسمن على أعشاب الربيع الغضة التي تنمو بين المنثور . والتي عادة ماتكون جافة وطيبة وحلوة كالسكر .

---

(١) NITRARIA RETUSA من النباتات الصحراوية المطلة على سواحل البحار في الوطن العربي ولكن المقصود هو نبات العوسج الذي يطلق عليه البدو أسم « العرقد » وبين النباتين بون شاسع .

لاترافق رحلة البدو نحو الجنوب أية أغنام ، فأغنام العنزة على سبيل المثال تترك خلفهم في السهول العليا عند الولدة أو العقيدات أو القبائل الرافدة الاخرى يرعونها حتى يعود أصحابها ، لان الاغنام تحتاج الى سقاية مستمرة بينما يكون الماء شحيحا في آبار الحماد . وحالما يبدأ موسم التوالد يتوفر الحليب في المخيمات . بينما يقل الماء حتى بالنسبة للخيول . والتي قد تبقى اياما بدون ماء باستثناء مايقدم لها من لبن ؛ ومع ذلك توجد آبار اخرى في بعض الاماكن مع برك للماء تجمع ماء المطر . لكنها قد تجف أو يتوفر فيها الماء حسب الفصل . والقبائل تعرف أماكنها بدقة . وما ان ينتصف شهر نيسان حتى تبدأ الشمس بابراز عضلاتها فيجف العشب وينضب الماء من البرك ، وتسقط بذور النباتات ، ويختفي كل ذلك النعيم ، وعندها تعبر القبائل التلال لترجع الى قطعانها في الشمال ، وتدخل في مبادلات تجارية مع سكان المدن حيث يبدأ جز الصوف في أيار ، وتجد المهار والجمال وهي بعمر الثلاث سنوات أسواقا لها ، ثم تبدأ مواسم جديدة وهكذا .... تكون طبيعة الحياة في البادية .

وبقي علينا أن نصف النهرين العظيمين الذين يقطعان البادية ويعطيان سمات غربية للجزيرة العربية حيث يتوفر الماء الجاري والاشجار . وكلا الواديين يتشابهان وينطبق عليهما الوصف نفسه . ووصفنا لوادي الفرات يغنينا عن وصف نظيره . يظهر الفرات عند حافة البادية بهيئة نهر ناضج تكون منذ القدم . وهو نهر كبير يماثل نهر الدانوب في بلغراد ، ويجري بسرعة أربعة أميال ونصف الميل في الساعة ، ومياهه هائجة ولكنها حلوة وصافية صفاء مياه النيل . وهو والنيل يخصبان التربة عند الري بخاصية تفوق خاصية معظم الانهار في العالم ؛ لانهما يتركان مخزونا من الطمي والتراب الغني بالمواد العضوية حيثما مرا .

كان الفرات في الازمنة الغابرة وحتى خلال الخمسمائة سنة الاخيرة مقاطعة زراعية غنية ، اذ يدعم سكانه الذين يعيشون على ضفافه سكان المدن التجارية الغنية والمتعددة . وخلال قرنين من الزمان يمكن أن نقول بأنه

لا يوجـد أي محراث أحدث أخدودا على شطآنـه . والحقول قد هجرت وتحولت الى مراع للبدو ، بينما الاراضي المنخفضة التي هي معرضة للغمر السنوي قد أصبحت أدغالا من أشجار الطرفاء . وعندما ينساب النهر بعيدا نحو الجنوب يغير من مظهره ويصبح واديه ضيقا ، فتحل بساتين النخيل مكان أشجار الطرفاء ، بينما تحيط البادية احاطة تامة بمياه النهر . وهناك تكثر القرى بعد أن قلت أهميتها القديمة ، الا أنها كانت تشغل الاماكن نفسها التي كانت تشغلها أيام نزول الانجيل على سيدنا عيسى ونزول الكتب المقدسة . فبيت هـي المدينة التي سكنهـا أيوب عليـه السلام ، وجباب هي موطن الحثيين والعبرانيين . وهناك قرى أخرى يمكن التعرف عليها بسهولة ، وفيها آثـار عظيمة من آثار الماضي .

ويبدو أن النهر قد شق طريقه في بعض المناطق بقوة وعنف حافرا لنفسه واديا يصل عمقه الى مائتين أو ثلاثمائة قدم تحت مستوى السهل ، وله صلة طبيعية به تشبهها قليلا بصلة سكة حديد تعبر مقاطعة زراعية في انكلترا . فهو لايستقبل الروافد من المناطق المجاورة ولا يقدم أي شيء من واديه للري . وطريقة استمرار الحياة فيه تختلف عن طريقة الحياة في البادية . لانه يحمل معه وعلى جانبيه نباتاته الخضراء وطيوره وحيواناته الخاصة . فاذا مازحف الغزال اليه ليشرب من مياهـه في الصيف فانه يفعل ذلك في الليـل ثم يترك الوادي حالا . ويطير القطا فوقه ولكن نادرا ما يتوقف . وحجل البادية هـو الطائر الصغير الوحيد الذي يستوطن أجرافه في كلا الجانبين . بينما نجد أن الاسود والذئاب وبنات آوى نادرا ما تغادره ، وبينما تعيش الخنازير البرية قريبة جدا ضمن أشجار الطرفاء . ومن الملاحظ أن طيوره هي طيور آسيا الصغرى وأوربا نفسها . فالحجل والدراج والعقعق والبط والاوز وطيور الشنقب ودجاج الارض ، فكل هذه الطيور نجدها قرب هذا النهر . ولكننا لانجد هذه الطيور في المناطق المتاخمة أبعد من ميل واحد .

وأخيرا لابد من مقارنة لمعرفة الاختلافات العادية في الاعمـال المتنوعة والفعاليات عند رجال الوادي وسكان البادية . فالاخيرون نادرا ماينزلون الى

النهر باستثناء فصول القحط المدمرة ، أو عندما يعتزمون عبوره بقصد شن الغزو على الشاطىء المقابل ، ولان المراعي في السهول العليا أفضل ، ومناسبة لهم كثيرا لرعي الجمال من الوادي الغني بالنبات . وخلال قسم كبير من السنة يعتبر النهر غير موجود بالنسبة لهم على الرغم من أنهم يخيمون في مناطق قريبه منه . ويعتبر النهر عندها في متناول آيديهم . فهناك مثلا مئات العنزة لم يكونوا قد شاهدوا الفرات قط في كل حياتهم . ومن جهة اخرى نجد قبائل الفلاحين مع قطعانهم من الحيوانات ذات الفرون وحقولهم الزراعية تلتصق بالوادي بشدة ، وحتى تلك المدن في البادية البحتة كالدير وعنة يتحدث آهلها بخوف وهمس عن « الچول » أو البراري والبادية .

يعتبر الكولونيل تيسزني المهندس الذي مسح الفرات بدقة ، اذ لا يحتاج المسافر الا مراجعة بسيطة للاسماء والاماكن حتى يجد طريقه . وهذه اذا ما أعطيت بشكل صحيح نجد بعضها قد غير كلية بسبب الاحتلال التركي للوادي وظهور مناطق بأهميات جديدة ، وأماكن ذات آهمية عسكرية تحتاج الى تبيت جديد على الخربطة . ولكني وجدت مسح دجلة أقل جودة من مسح الفرات . الا أن الكولونيل شيسزني لا يعتبر مسؤولا عن ذلك ، بينما خريطته عن البادية تعتبر عديمة الفائدة . فهو — على سبيل المثال — يضع تدمر جنوب موقعها الحالي بخمسين ميلا . ويضع الحضر غرب موقعها الحالي بثلاثين ميلا مبتعدا بذلك عن الحقيقة .

اذا ما استثينا سلسلة المدن والقرى على النهرين في الجزيرة العربية الشمالية لايوجد مايحق لنا أن نسميه مدينة . عدا بعض القرى التي تقوم في الواحات . وهذه القرى تكون عادة في الجنوب محاطة ببساتين النخيل ، بينما في الشمال تكون محاطة بالحدائق والحقول المفتوحة ، وفيها محاصيل الذرة وغيرها التي تعتمد مبدأ الري في غالبيتها . وآكثر وصف لهذه المناطق ينطبق على الوصف الذي وصفه «بالغريف» لمنطقة الجوف المزدهرة نسبيا، بينما عندما تتجه الى الشمال فلا نجد شيئا مما ذكر ، حتى نصل الى سلسلة التلال التي تقسم السهول العلوية عن السفلية . وعلى سفوح تلك التلال تتبعثر القرى

البائسة القليلة ، اذ تشكل كل واحدة منها موقع نبع هزيل ، وحوله أرض لاتزيد مساحتها عن الخمسين أو المائة فدان ، وغالبا ما تكون مروية • وكل قرية تكون عادة محاطة بسور طيني تخترقه بوابة وحيدة ، بينما البيوت في الداخل مبنية بالطين وعلى نفس الطراز ، اذ تكون منخفضة وذات سطح منبسط • وكل قرية تضم من البشر مايقارب المائتين الى خمسمائة نسمة ؛ وهي من أكثر المناطق تعاسة يمكن تصورها في العالم ، لان المناطق الصحراوية المجاورة لها تكون جرداء وخالية من الكلأ بسبب الرعي الجائر . ولانها قد وطئت واجتثت أعشابها دونما رحمة ولعدة أجيال •

وأهم تلك القرى : القريتان وتدمر غرب الفرات ، وقرى سنجار شرق الفرات • لقد علمت أماكنها على خريطتي التي صنعها « ستا نفورد » لانني وجدت جغرافيتها دقيقة نوعا ما •

ان البادية العليا مع التلال تضم « دزينة » من التلال والاماكن الصغيرة وعلى الاخص في منطقة سنجار ، ونجد في النهرين التنوع ذاته من حيث المظهر بين قرى الشمال وقرى الجنوب ، فالاخيرة تحاط باشجار النخيل الكثيرة . بينما الأولى تبدو بائسة ، ويعود السبب الى أن البدوي لا يعرف زراعة التمر . والارض التي تشغلها بساتين النخيل لاتصلح للرعي ولهذا فهو يتركها لمالكيها بينما تكون الحقول المفتوحة للقمح والشعير دوما مصدر اغراء مستمر لقطعان ماشيتهم • وهكذا نجد مدينة عنة وقرى النخيل تعاني من خسارة التجارة . بينما دمرت مدن الفرات الاعلى بشكل كامل •

اننا نجد شمال خط العرض « ٣٤° » أن وادي الفرات لايمكنه أن يفخر بست من القرى التي تعيش بين الموت والحياة ، وكأن الامر في السنوات الاخيرة لايتعدى محاولات جرت للقيام بزراعات محدودة تحت الحماية التركية • والدير هي القرية الوحيدة الباقية من تاريخ الاحتلال التركي عام ١٨٦٢ • ويعود الفضل لاستمرار وجودها الى بساتين وحقول الذرة التي تقوم فوق جزر يحميها النهر • أما بالنسبة الى البصرة والقرى التي تقوم على النهر جنوب بغداد فلا يمكنني أن أقول شيئا لانني لم أقم بزيارتها . انما

أقول : انها مشهورة بسبب المدن المقدسة ككربلاء ومشهد علي ، وتزدهر نوعا بالنسبة لغيرها .

بينما الضفة اليمنى لشط العرب التي تسكنها قبيلة المنتفك قد وصفت لي كأفضل منطقة مزروعة في كل الوادي ، وهناك القليل من الواحات الصغيرة غربي الفرات مثل : كبيس والشدادي التي يمكن أن نعتبرها من الاسواق المهمة بالنسبة للبدو .

ومن خلال رحلتي أخشى أن نكون قد قدمنا الشيء القليل من المعلومات الجغرافية بالنسبة للرصيد العام من المعلومات . فالمدن الاغريقية القديمة مثل : الحضر تعتبر معروفة قليلا بالنسبة للاوربيين ، لانها وصفت من قبل السيد « ليارد » وعلى الاقل من قبل رحالة انكليزي آخر .

وأعتقد أن طريقنا عبر الجزيرة يعتبر من الطرق الجديدة ، وأن بحيرتي سنيسلة وأم الذيابة سوف تدون الآن لاول مرة على الخريطة ، كما تأكدت بأنه لايوجد فرع للخابور اسمه سنجار ولا أي فرع آخر اطلاقا ، لذلك يجب أن يزال اسمه من الخريطة ، لان المياه المتحدرة من سنجار الى الجنوب تنتهي كلها بالسبخات والبحيرات المالحية . أما في الحماد فقبل تثبيت موقع جبل الغراب الذي رأيته على خريطة « كيبرت » يبعد سبعين ميلا جنوب غرب موقعه الحقيقي ، علينا أن نؤكد على وجود سلسلة من البرك ذات المياه العذبة التي تغذيها الامطار في كل شتاء ، والتي تقع بين الغوطة قرب دمشق والفرات . ولم تحدد في هذه المنطقة أي شيء ذي قيمة حتى الآن ؟! فالطريق بين تدمر ودمشق أيضا معروفة ، ولكنها تحتاج الى بعض الملاحظات واعادة النظر فجبل الرواق لايسلك قمة منفصلة كما يفهم البعض ، الا أن الاسم أطلق على السلسلة الجنوبية القصوى لسلسلة الرئيسية من التلال ، وان سهل صيقل على بحيرة واسعة من الماء العذب وأخيرا حددت مواضع عدة ينابيع ، وبعض الآبار لكي يستفيد منها المسافرون في المستقبل . وبهذا العمل البسيط أعتقد أنه لا أحد بيننا سيسمح لنفسه أن يطالب بمدالية أو وسام R. G. S. .(1)

---

(1) انه نوع من الاوسمة البريطانية الخاصة بالمكتشفين والجغرافيين .

الفصل الرابع والعشرون

تاريخ البادية ــ غزوات العنزة وشمر ــ انهيار الحضارة في وادي الفرات ــ اعادة فتحها من قبل الاتراك ــ مكانتهم الحالية في الجزيرة العربية ــ سجل القبائل البدوية ــ بحث عن السبعة .

ان تاريخ الحديث للجزيرة العربية الشمالية يمكن اعتباره بداية لفتح تلك المنطقة من قبل بدو شمر الذين جاؤوا من نجد بقيادة فارس منذ مائتي عام تقريبا وحتى ذلك الوقت نجد الامبراطورية العثمانية قد ورثت تقاليد أسلافها من الرومان والاغريق والمسلمين والتتار ، بمحافظتها على حدودها الجنوبية عند خط الفرات والطريق العام العسكري الذي يصل بغداد بدمشق وضمن هذه الحدود نجد ساكني البادية من رعايا السلطان ، وينطبق عليهم القانون العام للدولة العثمانية .

كانت الجزيرة والبادية السورية العليا قد سكنت في ذلك الوقت من قبل قبائل رعوية مختلفة ، بعضها عربية جاءت مع موجات الفتوحات الاولى تحت لواء الخليفة عمر ، وبعضها من القبائل الكردية التي اندفعت الى الأمام نتيجة للغزوات المعاكسة من الشمال في القرنين الثالث عشر والرابع عشر . وقبيلة أخرى مختلطة الاصل ألا وهي قبيلة الموالي التي تدين بوجودها وفقا للاحداث الجارية الغريبة التي تذكرها كتب التراث :

ففي أيام الخلافة في دمشق أرسل ولد الخليفة في سفارة الى بلاط قسطنطين الثاني في القسطنطينية (١) فلفت انتباه الامبراطورة « تيودورا » التي أكرمته بعطفها ، حتى انها عندما غادر بلاطها قررت أن تمنحه منصبا مستقلا في بلاده ، اذ حملته بالهدايا وأعطته عددا كبيرا من العبيد الذكور

---

(١) رددنا على هذه الفرضية من قبل في الجزء الاول .

والاناث ، ليؤسس بهم قبيلة عربية لم تكن معروفة من قبل هي قبيلة الموالي أو المماليك • وكدليل على صحة هذه القصة نجد البدو من ذوي العروق الصافية يزدرون عامة الموالي ، بينما يحترمون شيوخ الموالي ويعظمونهم مضيفين عليهم لقب بك • وهذا الشيء لم يكن معروفا في البادية من قبل(١) •

يشغل هؤلاء الموالي الضفة اليمنى لنهر الفرات • ويبدو أن قبيلة طي التي هي من أصل عربي نبيل في السهول العليا من الجزيرة تخضع لهم مع الولدة والعقيدات والجبور والحديديين ومن يأتي منهم ، اذ لايزالون يعيشون ظروف القهر على طول واديي الفرات والدجلة •

يعتبر واديا الفرات والدجلة من المناطق التي لازالت تعتمد على الزراعة والتي تمر عبرهما التجارة مع الهند على الرغم من التدمير الجزئي الذي تعرضت له من قبل التتار وفتوحات بني عثمان •

يعتبر « بنيامين التطيلي »(٢) مصدرنا الوحيد بالنسبة لوضع العشائر في العصور الوسطى ، اذ يصف ديارهم بأنها كانت مزدهرة وعديدة • فقلعة جعبر والرحبة كانتا وحدهما على الفرات في زمنه تضمان السكان العرب بالاضافة الى الآخرين ، وفيهما أربعة آلاف من اليهود ، بينما كانت تدمر تضم ألفين فقط والحضر خمسة عشر ألفا و«عكبرا»على دجلة تضم عشرة آلاف(٣)•

ان معظم هذه المدن قد اندثر بشكل كامل الآن• وماذا كان وضعها في القرون الخمسة الماضية ؟•• لانعرفه لعدم وجود سجل يخبرنا بدقة • ويبدو أن تحولها النهائي تم بفتح شمر لها في منتصف القرن السابع عشر ، أي منذ مائتي عام على وجه الدقة •

---

(١) يطلق نيبور اسم البشر كاسم لعائلة شيوخ الموالي •

(٢) بنيامين التطيلي : رحالة يهودي اندلسي رحل من سرقسطة عام ١١٦٥ فزار فرنسا وأيطاليا وقبرص واليونان وسورية وفلسطين وبلاد ما بين النهرين وبلاد العرب ومصر وايران وعندما عاد كتب أخبار رحلته وتوفي عام ١١٧٣

(٣) عكبرا : مدينة ذكرها الحميري في الروض المعطار شرقي دجلة ، وتبعد عن بغداد سبعة فراسخ على الطريق المؤدي الى الموصل •

كان السلطان محمد الرابع مشغولا بحصار « بلغاريا » ، بينما كانت الحدود الجنوبية للامبراطورية يجتاحها البدو الذين قدموا من نجد واحتلوا الحماد ، لان الحدود لم تكن محمية فاستولوا على تدمر وقطعوا طرق مواصلاتها البرية مع بغداد ودمشق ، واجتازوا التلال الشمالية وهزموا الموالي ــ اكثر القبائل المولعة بالحرب ــ في بوادي سورية العليا ، وأجبروا القبائل على الخضوع ، ومن ثم اجتاحوا وادي الفرات وجعلوا مدنه ترفدهم بدلا من أن ترفد السلطان ويبدو أن آخر صورة للحضارة قد طمست من الضفة اليمنى للنهر ، وسيطر بدلا عنها القانون البدوي حتى بئر الشيخ في الشمال ، ومع ذلك يقول العرب : ان الموالي طوال عشرين عاما استمروا في الحرب من أجل مراعيهم على الرغم من الدمار الشامل الذي لحق بهم ، واستطاعوا بضربة واحدة أن يحققوا مكاسب معينة • فبحجة عقد مجلس للتشاور استدرجوا شيوخ شمر الى مضاربهم ، وبينما كانوا يأكلون غدروا بهم جميعا ، فبقيت تلك الجريمة البشعة تذكر عن الموالي في طول البادية وعرضها ، ومنه قول العرب : بيت الموالي هو بيت العيب ــ أي البيت الذي تم فيه العمل الغادر ــ ومع ذلك لم تنته العشرون سنة الماضية حتى تم النصر لقبيلة شمر عندما قهرت الموالي بقسوة • ولكن ظهر في الساحة غاز جديد قلب موازين الحرب القبلية ، وكان هذا الغازي هو قبيلة العنزة التي جاءت من نجد هي الاخرى ، بعد أن سمعت بالمراعي الخصبة التي اكتسحها أسلافهم• وجاءت العنزة لتزاحم القبائل الاخرى على جمع الغنائم • فانحاز الموالي الى جانب القادمين الجدد ، ودفعوا معهم الشمريين عبر الفرات الى الشرق • وجد الشمريون في الجزيرة أرضا أخصب من الاراضي التي فقدوها ، فتخلوا عن البادية السورية للعنزة، وفيها أخضعوا قبيلة طي وعبروا الدجلة ليشنوا الغارات على الموصل والحدود الفارسية فعوملت مدن دجلة من قبلهم كما عوملت مدن الفرات ، حتى ان بغداد نفسها كانت مهددة • ومن الغريب أن تقف الحكومة العثمانية مكتوفة الايدي أمام هذه الاحداث المروعة ، وتنظر الى ما حدث نظرة اللامبالاة ، اذ لم تقم بأية محاولة للسيطرة على الغزاة • وكل ما فعلوه

اقناع الباشوات في الموصل وبغداد باصلاح أسوار المدن وانتظار الاحداث بصبر وثبات • شلت التجارة مع البادية بشكل كامل ، وهجرت القوافل الطرق المباشرة القديمة ، وأخذت تسلك الطريق الطويل الذي كان يمر خارج البادية مرورا بماردين وأورفا ، وذلك بسبب الخوف والرعب من البدو • وفي هذه الاثناء احتل بنو لام والمنتفك العراق وكل المنطقة الواقعة بين سورية وايران ، باستثناء عدة مدن مهجورة أصبحت جزءا من الجزيرة العربية المستقلة • وهكذا استمرت حالة توزيع القبائل فوق هذه الرقعة حتى في وقتنا الحاضر •

ان حالة القبائل البدوية في بواديها كانت في تغير مستمر ، فتعاقب فصول الخصب وتوالد الجمال بكثرة يجلب لها الثراء العاجل ، يضاف لها حنكة وشجاعة شيخ القبيلة ، لذلك نجد في بعض الاعوام أسهم القبيلة تصعد وتمتلك النفوذ اللازم ، وفي سنة أخرى تهبط لتصعد أسهم الاخرى وهكذا • الا أن نفوذ قبيلتي شمر والعنزة وسيطرتهما على القبائل الاخرى لم يكن موضع مناقشة منذ أن ظهرتا على مسرح الاحداث في الجزيرة والشمال •

كانت العنزة تمتلك الحماد وشمالا حتى حلب • أما شمر فكانت سيدة الجزيرة • أخذت الحرب تندلع بين هاتين القبيلتين منذ زمن بعيد ، فتنشط أحيانا وتهدأ في أحيان أخرى بسبب الهدنة • الا أن الصلح المطلق لم يعقد بينهما أبدا • وغارات شمر على العنزة وغارات الثأر التي تقوم بها العنزة لايمكن أن تعد بسهولة ؛ وتبدأ في كل صيف منذ أن تظهر طيور السنونو في المنطقة في آيار • وكلا القبيلتين لها تاريخ حافل في الصعود والهبوط • فشمر بقيت قوية في أذهان الناس ، ويذكرها المعمرون حتى أنها كانت تهدد بغداد بالحصار • واذا ما أخذنا وصف فتح الله(١) بعين الاعتبار يمكن القول : ان ابن شعلان شيخ الرولة كان يغزو ايران خلال السبعين عاما الماضية • الا أنني لا أملك فكرة كاملة عن معدل هبوط أو صعود أسهمهم ، لأن العنزة ومنذ زمن طويل لم تعد

---

(١) هو فتح الله سيجر أو الصايغ شاب ارمني من حلب كان يرافق السياح وضباط المخابرات أمثال لاسكاريس الفرنسي وغيره .

القبيلة المتحدة ، وتشتتهم هذا أنقذ شمر من الدمار ، وشمر أقل عددا منهم ، الا أن النزاع بينهم لا يزال مستمرا • ويمكن القول : ان عدد الخيول التي تمتلكها الاطراف المتحاربة كان له الحظ الاوفر في احراز النصر • وحسن الطالع في القبيلة كان يترافق مع العدد الضخم من الخيول الاصيلة في مضاربها• ويبدو أن هذا كان متوفرا في القبائل التي تعيش في البادية العليا صاحبة الامتياز الاول في الغزو • وحسب اطلاعي تعتبر قبيلة الفدعان والحسنة حتى وقت قريب من أشهر القبائل ، ان لم تكن من أكثرها عددا وتليها قبيلة العمارات ـ ابن هذال ـ والسبعة وولد علي جاؤوا بعدهم • ثم ظهرت الرولة بعد مدة طويلة لأول مرة في منطقة دمشق في نهاية القرن الماضي ، بينما غادرت منطقة نجد جماعة الطوف(١) والرفدي (٢) في العشرين سنة الماضية •

دونت تلك المعلومات التراثية عن تاريخ الجزيرة العربية الشمالية منذ مائتي عام تقريبا • أما الآن فقد بدأت عهود جديدة • ففي الستين عاما الاخيرة استعادت الحكومة التركية جزءا من الاقاليم الضائعة من الامبراطورية منذ زمن طويل • وكانت ذروة الحركة الاصلاحية والنشاط في عام ١٨٦٢ عندما وجد الباب العالي نفسه وفي حوزته الجيش العظيم والمال الوفير ، وذلك بعد حرب القرم التي انتهت منذ مدة ، عندما قام عمر باشا حاكم حلب وقاد جيشا مجحفلا الى الفرات ، فاحتل قلعة جعبر والدير القريتين المأهولتين على ضفاف الفرات الاعلى •

كانت الدير في ذلك الوقت مأهولة بالفلاحين العرب الذين ينحدر قسم منهم من المؤسسين للمدينة زمن الخلفاء ، وقسم منهم جاء من الموصل وأورفا • وعاشوا في استقلال مطلق عن العنزة تحت ظل الحماية ، ولكنهم استاؤوا من تدخل الاتراك في شؤونهم ودافعوا عن المدينة ببسالة • الا أن عمر باشا كان قد جلب معه المدفعية واحتل الموقع بالقوة ولم يواجه مقاومة تذكر • تمركزت

---

(١) الطوايف : عشيرة صغيرة تقيم في الجولان قرب دمشق وترحل الى انحاء حمص •

(٢) رفيدة الشام قسم من ربيعة ، ورفيدة بن عز بطن من عنز بن وائل •

حامية تركية في الدير وبنت مواقع الحراسة على الطريق بينها وبين حلب ، ثم أصبحت الدير باشوية تحت حكم والي حاب • وأعلن بأن الجزء الاعلى من الفرات يعتبر جزءا من الامبراطورية ، بينما أخذت العنزة تكتفي بسلب القوافل التي تسير على طول الفرات الاسفل ، ودون أدنى جهد أخذت تبسط سيطرتها على المدن •

أخذت السياسة التي اتبعها مدحت باشا تعطي ثمارها كاملة في السنوات الماضية عندما كان حاكما لبغداد ، اذ أكمل أبنية مواقع الحراسة حتى أوصلها الى الرمادي ، و « عنة » بالنسبة لبغداد كالدير بالنسبة لحلب ••• وهكذا استقرت حاميات الحراسة على طول وادي الفرات ، فأخذت القوافل تسير على الطرق بسلام ، كما وضعت عدة مدن على الدجلة تحت حمايتهم • ومنذ ذلك الوقت بذلت جهود كبيرة لتشجيع القبائل الصغيرة على الزراعة؛ فحققت بعض النجاحات جنوبي بغداد ، كما أمنت الحماية لقبيلة الدليم وشمر طوقة و « البومحمد » ، لكي تسقي من ضفاف النهر وتزرعها بالقمح • حتى انني سمعت دون أن أكون شاهد عيان بأن قبيلة المنتفك ــ القبيلة القوية في جنوب العراق ــ قد أصبحت مؤخرا قبيلة فلاحية مجدة • أما فرحان شيخ قبيلة شمر فقد أنعم عليه بلقب باشا وبراتب سنوي قدره ثلاثة آلاف جنيه لقاء تعهده بتحويل قومه البدو بالطريقة ذاتها الى فلاحين مخلصين • وكم من مرة سمعنا فيها أصداء نجاح هذه السياسة ، الا أنه لم تجر أية اختبارات حقيقية • ويبدو أن الامر يرتكز على حقائق وهمية ، لأن فرحان هذا كان قد جمع بالفعل عدة مئات من العرب في الشرقاط ، فبعضهم من شمر ومعظمهم ممن نبذتهم قبيلة الجبور والقبائل المغمورة الاخرى على نهر دجلة ، وبمساعدة هؤلاء تظاهر فرحان منذ عدة سنوات بأنه يزرع الوادي • وكان هذا الادعاء واضحا في اقامة مخيم فرحان في الشرقاط ، الا أنه من خلال كامل رحلتنا كلها بين قبيلة شمر لم نر أي أثر للزراعة المزعومة ، غير أن المشروع كان في بدايته ، ولم يحالفه الا قليل من النجاح من أجل جعل العنزة رعايا مسالمين للباب العالي •

سار أرسلان باشا ــ خلال فترة حكمه في الدير ــ بفرق كبيره من المشاة ضد قسم من السبعة الذين وجدهم يخيمون قرب الفرات ، فطوقهم وأمرهم بأوامر السلطان أن يتخلوا عن حياة البداوة ، ويصبحوا مثالا مخلصا للوجود والاستقرار في الارض من أجل الزراعة . الا أن البدو لم يجدوا موقفا يبعث على القرف ، ويعتبر بمثابة اهانة لهم مثل ما وجدوه في هذا الاقتراح ، فاحتجوا في البداية الا أنهم وجدوا جبالهم يهددها الفناء . وباعتبار أنه لا خيار لهم وافقوا أخيرا تحت حراب الجنود . فتبدوا سلسلة من البيوت الطينية في مناطق مختلفة من الوادي . وفي هذه البيوت كانوا في حالة تذمر لا توصف ، لكنهم تظاهروا بالعيش فيها طالما وجد الجنود بينهم للحراسة . وما ان مضت على هذا الوضع ثلاثة أشهر حتى وجد الباشا أنه يحتاج لرجاله في مكان آخر فسحبهم دون تأخير عندها عاد البدو الى البادية ، وبقيت القرى الطينية فارغة على الوادي بدون سقوف . وبقاء آثارها هو النتيجة الوحيدة لتجربة أرسلان باشا ، ومع ذلك لا زالت الاراء متفائلة بان الباب العالي سينجح في محاولاته ، وبدون شك لو حصل ذلك لكانت فوائده عظيمة في المنطقة ، ويمكن عندها تحقيق بعض السيطرة على شمر والعنزة ، لأن ذلك سيضعهم تحت سلطة القانون . وطالما أنهم لا يملكون مواقع ثابتة فان الحكومة حتى وان كانت مدعمة بأقوى جيوش العالم لن تستطيع فرض الجزية عليهم ولا مراسيم الدولة الاخرى . أما الحملات التي تحصل بين وقت وآخر ، فالبدو يسمعون بها ولا يسمحون لأنفسهم بالمباغتة كما حدث لأرسلان باشا مع السبعة . فهم على علم مسبق بكل ما يجري في المدينة ، وعند سماعهم أخبار أية حملة تتحرك نحوهم يزيلون خيامهم بسرعة ، وما داموا في البادية فان تجد قوة في العالم يمكنها السيطرة عليهم لأنهم يتفرقون في مجموعات صغيرة ، وتتفرق بهم السبل في السهول والمراعي الجافة غير النافعة . ويبدو أن الامر يختلف جدا مع القبائل الصغيرة . فهم بدو فقط عندما يتحركون بخيامهم وأغنامهم الى أميال عديدة أعلى أو أسفل الوادي ، لكنهم لا يبتعدون عن النهر أبدا . وهم يدركون مسبقا فوائد العيش تحت ظل سلطة مستقرة تحققها الحكومة التركية .

ان هذه القبائل تعتبر اليوم في أمان من التحرشات الدورية التي تأتيهم من البادية فبدأ رجالها يحرثون ويبذرون الذرة ، ومع ذلك تعتبر حالة تعلقهم بقطعان الماشية لا توصف ، ولهذا يفضل تركهم في خيامهم على اجبارهم للسكن في البيوت المبنية لأنه لا توجد حياة أتعس من حياة الرعي والعيش في أبنية ثابتة .

ان القبائل ذات الحياة المزدهرة هي التي استقرت ، بينما بقيت تحيا حياة بدوية خالصة وكفت أذاها عن القبائل الاخرى . وحيثما وجدت الانعام والجواميس تكون القبائل التي تملكها مزدهرة فقبيلة الجبور على الدجلة ، والسبخة على الفرات تعتبران مثالين ممتازين من السكان المجدين الشرفاء ، ولكنهم عرق رعوي بحت يعيشون مع ماشيتهم على مدار العام في نفس المنطقة جاعلين من أنفسهم رعايا صالحين كما يريد السلطان ويرغب . والحديديون هم ايضا مثال رائع لما يجب أن يكون عليه البدو الخالصون . اذ لا يربون سوى الاغنام مع جمال معدودة تستعمل في النقل ، ولهم سمعة ممتازة من النزاهة والاخلاق الحميدة في البادية . فمواطنو حلب والموصل يعهدون بأغنامهم اليهم كل شتاء ، وهم قانعون بهذا الترتيب . والحديديون هم أكثر القبائل ازدهارا كنا قد زرناهم ، والولدة الى الغرب يتمتعون بسمعة مماثلة من الشرف الا أن سنين القحط والجفاف الاخيرة وابتزاز حكومة حلب قد أفقرتهم عما قبل . ولكن التشجيع المناسب والضرائب المخففة يمكن أن تبقي البادية الشمالية بسكان الرعي الاثرياء الكثيرين ، وهو الشيء الذي لم ينو فعله أي شخص حتى الآن .

ليس من الخطأ من الناحية الاقتصادية تشجيع الزراعة في كل أرض يمكنها أن تعطي محصولا . ولكن من أجل جني الفائدة كاملة في البادية على مدار العام يجب أن تبقى بعض المراعي كاحتياطي يعتمد عليه في سنين الجفاف وأيام الحر الشديد في الصيف . وأظن أن احتلال المزارعين الاوربيين لمثل هذه المراعي في الجزائر لم يكن اجمالا ذا فائدة للريع الاستعماري . وهدف الحكومة الرشيدة في الجزيرة العربية الشمالية يجب أن لا يحصر في اجبار سكانها من البدو على حياة الاستقرار كالقرويين . ولكن يجب أن يترافق مع

تشجيع القبائل التي تمتهن الحرب بالتخلي عن الحرب • ويمكن تحقيق هذا الهدف باظهار فوائد السلم واعطاء الامان لكل من لا يرغب بالقتال منهم • فالبدو الاغنياء والناس الاخرون دوافعهم قليلة باتجاه السطو على الطرق العامة•

تهيمن الحكومة التركية في الوقت الحاضر وللمرة الثانية على الفرات وعلى جزء كبير من وادي الدجلة مع السهل العراقي الواقع جنوب بغداد ؛ بالاضافة الى حيازتها بعض الواحات المعزولة في البادية نفسها • فقد احتلت تدمر ويديرها اليوم مدير تركي ، وفرضت الضرائب على المدن الصغيرة والقرى في جبل العسور وجبل سنجار . والقوافل المحمية يمكنها أن تمر بأمان من حلب الى بغداد عن طريق الفرات ومن دمشق الى الدير • وباستثناء ما حول هذه الطرق والخطوط لا يزال البدو يتمسكون بطرقهم • وعلى الرغم من أن مرورنا الآمن عبر ديارهم قد أثبت أن السفر عبر الجزيرة لا يعتبر من المستحيلات كما يظنه الكثيرون حتى دون حماية • الا أن جماعات من تجار بغداد ، ذوي السفر الدائم لا يزالون يفضلون الطرق الملتوية الآمنة عبر ديار بكر الى الموصل •

وفي مجال مقارنة شمر بالعنزة من ناحية العدد سمعت من يؤكد بأن النسبة ثابتة ألا وهي ثلاثة الى سبعة • وأعتقد بأن هذه النسبة صحيحة لأن العنزة أكثر من شمر ، على الرغم من أن الارقام الحقيقية عبر معلوماتي بلغت الآلاف وعشرات الآلاف • ويبدو أن التعامل بالارقام يبدو أكثر صعوبة •• ولكن أبقي على التناسب السابق المسموح به حسما للمبالغات • وأعتقد أن اثني عشر ألفا وخمسمائه تسري الى ثلاثين ألف خيمة من العنزة لن يكون بعيدا عن الحقيقة • واذا ما حسبنا معدل أربعة أشخاص في الخيمة الواحدة فتصبح الارقام على الشكل التالي :

خمسون ألفا مقابل مائة وعشرين ألف شخص بشكل شامل • وفيما يلي سجل كامل لقبائل شمر قدمته لي لجنة الاعراب والفلاحين والبدو في الشرقاط، وراجعه لي فارس بنفسه :

شمر الجزيرة :

جميعهم من البدو الاصلاء ويملكون الإبل والخيول ويحملون الرماح ، ويعترفون بسلطة شيخ عام هو من آل الجربا الذين يتحدرون من فارس زعيم القبيلة ، الذي قادهم من بلاد نجد في القرن السابع عشر • شيخ شمر الحالي هو فرحان ابن صفوق على الرغم من أن قسما من القبيلة وربما ربعها قد انشق عن فرحان ويعيش بامرة آخيه فارس ، وشمر الجزيرة هم فرع من شمر في جبل شمر . ولا يزالون يحافظون على علاقات طيبة مع أقربائهم هناك •

يهاجر شمر الجزيرة شمالا وجنوبا حسب الفصل ، ولكنهم لا يبتعدون جنوبا في فصل الشتاء الى أبعد من مدينة « عنة »،ويفرضون الخوة على القبائل الصغيرة في الجزيرة وهم مستقلون عن الحكم التركي •

انظر الجدول

الجربا[1]	رئيسهم فرحان ابن صفوق	خيامهم ٢٠٠٠
الهضبة	رئيسهم محمد ابن جليدان	خيامهم ٥٠٠
العصلان	رئيسهم مطني	خيامهم ٤٠٠
الصايح	رئيسهم مُيزر	خيامهم ٥٠٠
العليان	رئيسهم عرسان ابن دايس	خيامهم ٣٠٠
العبدة	رئيسهم فردي ابن شرهان	خيامهم ١٠٠٠
الشديد	رئيسهم بداي	خيامهم ٣٠٠
القعيط	رئيسهم بدر	خيامهم ٥٠٠
الدغيرات	رئيسهم حيزة ابن هشمي	خيامهم ٥٠٠
الفداغة	رئيسهم هجر ابو وتيد	خيامهم ٧٠٠
العامود	رئيسهم سلطان ابن عرفان	خيامهم ١١٠٠
العفاريت	رئيسهم مراثى ابن شيهان	خيامهم ٥٠٠
المنيع	رئيسهم ابن رشام	خيامهم ٨٠٠
الثابت	رئيسهم جاسم الاحدب	خيامهم ١٠٠٠
اللهيب	رئيسهم حسان الدرويش	خيامهم ٤٠٠
الصديد	رئيسهم ميزر	خيامهم ٤٠٠
الحمير	رئيسهم جلاد الدوبا	خيامهم ٤٠٠
مجموعات اخرى		خيامهم ٧٠٠

المجموع ١٢٠٠٠ خيمة

---

(١) تقسم شمر الى القبائل الكبيرة التالية : الاسلم عبدة، الخرصه، سنجارة. وقد ركزت الليدي على المجموعات الفرعية من شمر ، وجاء التقسيم مشوها : فالعصلان فرقة من الاسلم ، والدغيرات من عبدة ومنهم الشديد. والمنيع من الاسلم ، والحمير من سنجارة ، واللهيب من الصايح، والصديد هم رؤساء الصايح ولهذا جاء اسم ميزر مكررا .

احـلاف شمر :

قبائل ترفد شمر . وتعتبر مستقلة في معظمها عن السلطة التركية :

١ ـــ الزوبع : قبيلة بدوية تملك الابل والخيول وتحمل الرمح ، يسكنون جنوب الجزيرة حتى ملتقى نهر دجلة بالفرات • شيخهم الحالي : زاهر الحمود وخيامهم « ٥٠٠٠ » خيمة •

٢ ـــ الحديديون : قبيلة رعوية غنية مسالمة شريفة،تملك بعض الابل أو الخيول • يعهد اليها فلاحو الموصل وأورفا وحلب بأغنامهم لكي يرعوها أثناء الشتاء • يشغلون أعالي الجزيرة وتلال شمال سنجار • شيخهم من عائلة ابن رونان وخيامهم « ٢٠٠٠ » خيمه •

٣ ـ طي : قبيلة بدوية صافية في البداية ، وكانت قوية في الجزيرة العليا. ومن أحلاف طي في جزيرة العرب • يسلكون الابل والخيول ويحملون الرماح ولكنهم من الاغنياء المسالمين ولديهم قطعان كثيرة من الاغنام • وشيخهم الحالي هو عبد الرحمن ، ويعتبر من عائلة نبيلة جداً • وخيامهم « ١٠٠٠ » خيمة •

٤ ـــ جيس : قبيلة مولعة بالحرب ولكنها ليست ذات أصل عربي خالص (١) • يملكون الجمال والخيول ويحملون الرمح ويشغلون أقصى الشمال الغربي من الجزيرة • وشيخهم عبد الله وخيامهم « ١٠٠٠ » خيمة •

٥ ـــ البوحميد : قبيلة صغيرة شبه بدوية تشغل المنطقة مابين جبل حمرين وجبل سنجار • شيخهم فرحان وخيامهم « ١٠٠٠ » خيمة •

٦ ـــ الجبور : قبيلة فلاحية غنية ومعظمهم غير مسلح يشغلون دجلة فوق تكريت والخابور . حيث يرعون قطعانا ضخمة من الجاموس والمواشي• يضيفون الغرباء . ولكنهم يقبلون النقود عما يقدمونه • خيامهم « ٤٠٠٠ » خيمة •

---

(١) يبدو أن الليدي لا تعلم بأن النسابة في الجزيرة وبعض المصادر تعتبرهم من قبيلة قيس العربية المعروفة التي كانت تعيش حتى قبيل القرن التاسع الهجري على الفرات .

٧ ــ الجواري : قبيلة صغيرة كالجبور خيامهم « ١٠٠٠ » خيمة •

٨ ــ الجغايفة : قبيلة رعوية على وادي الفــرات ، تعيش قرب مدينة رواه • وهم الى حد ما من الفلاحين • خيامهم « ٥٠٠ » خيمة •

٩ ــ البقارة : مثل الجغايفة ، ولكنها تعيش في مكان أبعد والى الشمال خيامهم « ٨٠٠ » خيمة •

السجل التالي : هو لقبائل العنزة حسب الاماكن التي تشغلها في نجعتها الصيفية من الشمال الى الجنوب •

العنزة في شمال جزيرة العرب : جميعهم من البدو الاقحاح ، إذ يملكون الابل والخيول ويحملون الرمح . ويفرضون الخوة على القبائل الصغيرة ، وفي حالة حرب دائمة من الأخرين . ويتوزعون بشكل مندرج من حلب في الشمال وحتى جبل شمر في الجنوب •

١ ــ الفدعان : أكثر القبائل الصحراوية ولعاً بالحرب • وهم قوم يتميزون بالخشونة وينقصهم التمدن ، ابلهم قليلة ويملكون قليلا من الخيول من أجل التوالد ، ويعتمدون على السلب والنهب بشكل اساسي ، وينقسمون الى الفروع التالية : ولكل فرع شيخه المعروف •

ــ المهيد : شيخهم جدعان وعدد خيامهم « ١٠٠٠ » خيمة •

ــ التسيلات : وعدد خيامهم « ١٠٠٠ » خيمة •

ــ العجاجرة : عدد خيامهم « ١٠٠٠ » خيمة •

ــ الخرصة : وشيخهم نايف ابن كعشيش وعــدد خيامهم « ١٠٠٠ » خيمــــة •

ومن الجدير بالذكر أن عائلتين من الفدعان هما عائلة ابن سبيني وعائلة « أبو سنون » تعتبران من العائلات الغنية التي تملك خيولا كثيرة ، الا أنهما لا تشتركان بالحرب مع قبيلتهما • ولكن يدفعون الضريبة للقبيلة •

٢ ــ السبعة : قبيلة غنية بالابل والخيول . وهم يملكون أفضل سلالات الخيل في جزيرة العرب ، ويعتبرون من ذوي الاصول النبيلة ... ويتميزون باللطف وكرم الضيافة والشرف ولا يقاتلون الا دفاعا عن النفس . ينقسمون الى الفرق التاليه :

ــ القمصة : شيخهم بطين ابن مرشد . خيامهم « ١٠٠٠ » خيمة .

ــ الرسالون : .... خيامهم « ٥٠٠ » خيمة .

ــ العبادات : .... خيامهم « ٥٠٠ » خيمة .

ــ الدوام : .... خيامهم « ٥٠٠ » خيمة .

ــ المسكة : شيخهم ابن كردوش خيامهم « ٥٠٠ » خيمة .

ــ الموايجة : شيخهم فرحان ابن هديب خيامهم « ٥٠٠ » خيمة .

ــ العمارات (١) ... خيامهم « ٥٠٠ » خيمة .

ومن الجدير بالذكر أن المصرب مع شيخهم محمد يعتبرون قسما من الرسالين .

٣ ــ ابن هذال : قبيلة قوية كثيرة العدد . ويعتبر شيخهم عبد المحسن الحسيدي هو وقومه من أنبل الاصول البدويه في البادية باستثناء ابن مزيد شيخ الحسنه . والهذال أقوياء وأغنياء ويملكون خيولا كثيرة العدد . وخيامهم « ٤٠٠٠ » خيمة .

٤ ــ الحسنه : كانت فيما مضى القبيلة التى تقود العنزة ، الا أنها تراجعت نتيجة لحالف الروله مع السبعة منذ حوالى ستين عاما . وعائلة شيخهم فارس بن مزيد تعتبر أنبل وأشرف أصل في البادية . وتعيش القبيلة اليوم تحت الحماية التركية قرب دمشق وعدد خيامها ربما « ٥٠٠ » خيمة .

---

(١) العمارات قبيلة مستقلة من العنزة بقيادة آل الهذال . ولكن يبدو انها تقصد العميرة من السبعة .

٥ ــ الرولة أو الجلاس : تعتبر هذه القبيلة أغنى وأقوى قبيلة بين قبائل العنزة • وعلى الرغم من أن القبيلة كلها تعرف باسم الرولة ، الا أن هذا الاسم لاينطبق الا على قسم ضئيل مستقل منهم •

تعتبر عائلة شعلان أهم عائلة بين الرولة على الرغم من أنها ليست عريقة في البادية ومشيخة الجلاس فيها وراثية • تستلك الجلاس في الوقت الحاضر القليل من الخيول لانهم تخلوا جزئيا عن استعمال الرمح واستبدلوه بالاسلحة النارية • يملك الروله « ٥٠٠٠٠ » جمل • ويروى أن القبيلة جاءت من نجد منذ سبعين عاما تقريبا • ولايزالون يحافظون على صلات حسيمة مع جبل‌شمر• حيث لايزالون يعودون اليه في الشتاء • وهم الآن في حالة حرب مع بقية العنزة ، وخيامهم تقدر بـ « ١٢٠٠٠ » خيمة •

٦ ــ ولد علي : قبيلة قديمة اشتركت مع قبائل اخرى بالاسم نفسه في وسط الجزيرة العربية ومع ولد علي في مصر الغربية • لديهم ابل وخيول كثيرة • وحتى وقت قريب كانت قوافل الحج المنطلقة الى مكة تذهب بحماية محمد الدوخي ابن سمير الذي يحتل مكانة رفيعة في البادية • وخيامهم تقدر بـ « ٣٠٠٠ » خيمة •

٧ ــ السرحان : قبيلة في الحماد الادنى ونادرا ما تذهب الى الشمال • واعتقد أن لديهم قليلا من الخيول ، ولكنهم غير معروفين كثيرا في البادية •

٨ ــ ٩ الرفدي : شيخهم رجا • والطوف (١) : شوهدوا فقط في الصحراء الشمالية خلال الاثني عشر سنة الماضية • ويعرفون قليلا في البادية•

احلاف العنزة :

ــ الموالي : قبيلة قوية في السابق ومولعة بالحرب ولا تعتبر من الاصول

---

(١) الطوايف من عشائر الجولان السورية . ولا ندري فيما اذا كانت تقصدهم ام تقصد الطوقان من الموالي ، أم الطوقة من بني صخر ؟.

العربية الخالصة على الرغم من أن عائلة الشيخ تنحدر من سلالة أحد الخلفاء وتملك سمعة واسعة ، وتعتبر من القبائل التي تستخدم السلب والنهب فلا يعتمد عليها ، ولكنها في حلف قديم للفدعان والسبعة . وخيام الموالي تقدر بـ « ١٠٠٠ » خيمة .

ـ الولدة : رعاة شرفاء كالحديديين . لديهم قليل من الخيول الاصيلة ولا يملكون الجمال ، وهم من القبائل المحترمة ، ويحسنون الدفاع عن أنفسهم وخيامهم تقدر بـ « ١٠٠٠ » خيمة .

ـ العفادلة : قبيلة تربي الماشية مثل الجبور ، ولكنها تسكن أدغال الفرات حيث يصنعون لانفسهم الاكواخ من أغصان أشجار الطرفاء . أناس شرفاء ومسالمون ويتسلحون بالرماح القصيرة وبالبنادق ذات الفتيلة لاستعمالها في قتل السباع التي ترتاد أدغال النهر . خيامهم ربما « ٤٠٠ » خيمة .

ـ البوسرايا ، البوخميس ، الدليم : بعضهم من الفلاحين وبعضهم من غير الفلاحين ويرفدون العنزة ، الا أنهم تحت الحماية التركية . وهم قبائل رعوية مسالمة يقطنون الضفة اليمنى من نهر الفرات . والدليم منهم يملكون في بعض الاحيان خيولا جيدة .

القبائل المستقلة في الصحراء العليا والحماد

ـ اللهيب : قبيلة رجالها يقطعون الطرق ما بين حلب وحماة . وهم من الفرسان القساة .

ـ العمور : قبيلة صغيرة من الرعاة اللصوص في جبل العمور .

ـ بنو صخر : يجعلهم بعض المصنفين مع العنزة . ولكن لا أعتقد بذلك . وهم يعيشون جنوب حوران ويستقرون هناك . وهناك من يقترح بأنهم من اليهود(١) في قبيلة عساكر أو عسكر .

---

(١) اعتمدت على مذكرات بنيامين التطيلي .

ـ العدوان : قبيلة تقطع الطرق في شرق الاردن ، ولهم سمعة غير محمودة في البادية وشيخهم : قبلان .

الشرارات : قبيلة كثيرة العدد من البدو الخلص ويقطنون وادي السرحان جنوبا حتى نجد . لا يملكون الخيول بل يكاثرون الابل العربية . وأخبارهم لا تسر .

ـ العليثون : قبيلة صغيرة تحالف الشرارات . شيخ القبيلة محمد أبو نجاد ويقطن العليون في وادي عربة وجوار البتراء ...

ـ الصلبة : قبيلة من أصل هندي تقطن الحماد وتذهب بعيدا حتى نجد. يأتي الصلبة شمالا حتى تدمر في الصيف وهم يطاردون الغزال الذي يعيشون عليه . ولا يملكون الابل بل بضعة قطعان من الاغنام . يكاثرون الحمير ويبيعونها لضواحي المدن من الكويت وحتى حلب ويعتبرون من العشائر الوضيعة ولهم سمعة سيئة بسبب قافلة ضللوها في البادية منذ عشرين عاما ثم سلبوها ولكنهم بشكل عام لا يعتبرون من ذوي الضرر الا أنهم من الهمج الذين لا يشتركون في حروب البادية .

قبائل تحت السيطرة الجزئية لباشوية بغداد

ـ المنتفك : قبيلة قوية كثيرة العدد تجمع بين البداوة والفلاحة . ويقطن المنتفك الضفة اليمنى لوادي الفرات أسفل الحلة . وشيخهم عادة يعينه باشا بغداد . وعلى الرغم من أن هذه القبيلة كانت في سالف عهدها من البدو الاصلاء الا أنها اليوم تزرع سهول الفرات الادنى وقد أصبحت غنية ومزدهرة وشيخهم الحالي يدعى باسم : ناصر . خيامهم « ٨٠٠٠ » خيمة .

ـ بنو لام : قبيلة بدوية خالصة تحولت الى قبيلة فلاحية ، ولكن ليس الى الحد الذي وصل اليه المنتفك . يقطن بنو لام الضفة اليسرى لنهر الدجلة وعبر الحدود حتى ايران ، وخيامهم تقدر بـ « ٤٠٠٠ » خيمة .

- المعدان : قبيلة نصف بدوية كبيرة ، تقطن العراق ووادي الدجلة الجنوبي •
- البومحمد : من قبائل جنوب العراق •
- شمر طوقة : من قبائل جنوب العراق •
- البطة : من قبائل جنوب العراق •

هناك قبائل أخرى صغيرة ، وبعض الاقسام من القبائل حول بغداد • ولكن لم أجد بينها من يستحق الذكر باستثناء الصابئة •

الصابئة قبيلة تعيش اليوم في سوق الشيوخ ـ قرية على شط العرب أسفل الحلة ـ ويبلغ تعدادها كلها « ٣٠٠٠ » شخص • ووفقا لتقاليد الصابئة يرجع تاريخهم الى بدء الخليقة وهو كالتالي :

يقولون : قبل عهد نوح كان العالم كله من الصابئة ، يؤمنون بالله الذي لا يُرى ويتكلمون لغة واحدة • وكان لنوح أربعة أولاد : سام وحام ويسان ويافث • فبدؤوا في مرحلة ما بعد الطوفان يتحدثون بلغات منفصلة • وسام هو الوحيد الذي كان يحافظ على لغة والده ـ لا يعرفون أي شيء عن برج بابل ـ والصابئة هم المتحدرون الحقيقيون من نسل سام ، وحتى يومنا هذا فهم يحافظون على لغتهم القديمة ولم يبدلوها ، وهي اللغة التي يدونها كتابهم• ويصفونها على أنها نوع من السريانية •

استوطن الصابئة مصر في بادىء الامر ، وهم المصريون الذي حكمهم فرعون عندما كان يضطهد بني اسرائيل • والقبيلة الحالية تدعي أنها متحدرة من « أرديوان » أخي فرعون الذي غرق في البحر ، ومن ثم أسسوا مملكة في دمشق دامت مائتي عام بعد وفاة نبيهم يوحنا المعمدان قبل ثلاثمائة وستين

عاما من الهجرة، ثم ارتحلوا الى بغداد حيث ازدهروا حتى أطاح التتار بالخلافة• وفي ذلك الوقت استولى التتار على أربعمائة كنيسة مدمرة ، فنقل تيمورلنك كل كتبهم الى أصفهان حيث يعتقد بأنها لا تزال موجودة هناك • وهم أنفسهم تواروا عن الانظار في العراق وربما حتى في الاحساء ، وتناقصوا الى ثلاثة آلاف نسمة • ولعل ديانة الصابئة هي القضية الاكثر اثارة ، ولهذا سنذكرها في سياق هذه القصة •

يقولون : انهم يعبدون الله الجبار خالق النور والظلام ، والذي لاتدركه الابصار • ونظامهم الديني الرئيس يعتمد على المعمودية ـ كما يقولون ـ شرعة الله في جنة عدن • وآدم نفسه كان معمدا باسم الحياة الاولى والحياة الثانية والحياة الثالثة ، وكلها أسماء الله • ولكن هذا التعميد هجر وأصابه الاهمال ، ولكنه استعيد من قبل نبيهم المبشر يوحنا المعمدان •

لا يعترف الصابئة بنبي آخر ، ولا يبالون بقصص العهد القديم أو الجديد باستثناء قولهم : ان عيسى هو روح القدس ، وقد رفع من الارض ولكنه ليس الله ويؤمنون ببعث الجسد يوم الحساب ولقاء كل انسان بزوجاته في الاخرة • واذا كان الانسان من غير المتزوجين سوف يهبه الله زوجات أخريات• أما في الحياة الدنيا فالمسموح بزواجهن من النساء أربع • ولديهم أسرار مقدسة يخبز خال من الخميرة والخمر يناوله لهم قساوستهم على انفراد وفقا لطقوس سرية معينة ، ويعتقدون بهذا على أنه أنشيء في جنة عدن • أما طقوس التعميد عندهم فيجب أن تتم في ماء جار ، تغسل الخطايا ويؤمن الخلاص من الذنوب• ويعمدون الاطفال وهم بعمر الثلاثين يوما ، وتجدد هذه الشعيرة باستمرار ، والرهبان يعمدون أنفسهم مرة كل أسبوع •

يصوم الصابئة ستة وثلاثين يوما في السنة ، ويمتنعون فيه عن تناول اللحم ، ولهم أعياد أربعة : عيد رأس السنة ، وعيد القديس يوحنا ، وعيد اليوم الخامس بعد الذكرى السنوية لعمادهم ، وعيد آخر يدعى : ديما دبساس ، وهم لا يعرفون مضمون هذه الأعياد .

حصلت على هذه التفاصيل من الدكتور كولفيل في بغداد لأنه يعرف شيخهم . وبشكل عام تعتبر دياناتهم نمطا غير شرعي من المسيحية . ومن المدهش أن نجد امتداد المسيحية في الجزيرة العربية يحصل بهذا الشكل .

* * *

الفصل الخامس والعشرون

ابناء سام اول مولود لنوح
على حالهم والى الابد كالاطفال عند الباب
في جنة عدن ... واي عار جلبوه
وهم يتثاقلون .. بينما سبقهم الى المجد الاخرون
يفخرون جدا بحراثة الارض ولا يبالون بالفقر
يعيشون بنعمة الله دون شكر .. لا يؤدون
حقه ولا يتضرعون اليه ولا يتوسلون اذا ما اشاح
بوجهه عنهم ! يارب ! منك الغيث والضياء
ولك الحكمة الازلية في عالمنا المنسي وانت
على عهدك الذي لم يعرف الفناء .
هل لنا ايضا نحن ابناء يافث ان نعيش الخوف ؟
علينا أن نوقف الانفعالات الفارغة ، وأن نستمر في الحياة .
وكلما تطلعت اليك يا رب ... انحني ولا اجادل .

السمات الطيبة للبدو الاعراب ـ قصيرو الاعمار ـ أفكارهم الخاطئة ـ انسانيتهم ـ احترامهم للقانون ـ يتخلفون عن غيرهم في مجال الصدق والاعتراف بالجميل ـ حبهم الطفولي للمال ـ كرم الضيافة ـ نساء البدو .

يبلغ طول البدوي العربي الاصيل غالبا أكثر من خمسة أقدام وستة انشات ، ولكنه دوما بأطراف طويلة لا تتناسب مع قده ، بينما القماش الذي يخيط منه لباسه يتماشى مع هذه الهيئة وهذا الطول . أما من حيث الشكل والمظهر فيتميز بالخفة والرشاقة ولا أتذكر مثالا يثبت العكس ، الا اذا كان ذلك المثال هو محمد الدوخي شيخ ولد علي الذي كان فعلا يميل الى البدانة! . والسمنة الحقيقية غير المعروفة بين البدو الاقحاح ، واذا ما شاهدوها عند الآخرين فسوف ينظرون اليها بشفقة مزرية على أنها نوع من التشوه الجسدي .

شباب البدو غالبا ما يكونون من ذوي المظهر الحسن والعيون اللامعة وعلى شفاهم ابتسامة جميلة ، وفي أفواههم أسنان ناصعة البياض . ولكن بعد سن الثلاثين تجد في وجوههم العبوس بسبب عادة تقطيب الحاجبين الدائمة لحماية العينين من أشعة الشمس ، وهذا ما يضفي على الوجه تعابير قاسية تتنوع بتنوع شخصياتهم الحقيقية .

ان المران القاسي وندرة الطعام قد أذبلت في الماضي وجناتهم ، بينما قلبت الشمس بشرتهم الى الالوان السمراء الهندية على وجه التقريب . وفي سن الاربعين تشيب لحى البدو ، وفي الخمسين يتحولون الى شيوخ . ونادرا من يصل منهم الى سن الستين ان سبب هذا الفناء المبكر يجب أن يبحث عنه في طريقة عيشهم . فهم ومنذ عهد الطفولة يشبون على التدريب الشاق وشظف العيش، اذ يأكلون مرة واحدة في اليوم من أجل الاقتصاد وينامون على الارض، وكل هذا يؤمن لهم صحة ممتازة ومتعة كبيرة تنسي قدراتهم في الوقت الذي تعتاد فيه أجسامهم على السرعة ثم تعقب هذه الفترة من النشاط فترة خمول معينة لا يقومون فيها بأية اجهادات غير ضرورية لأنه لا توجد أمام الرجال الا أعمال قليلة يجب أن تنجز اذا ما زالت دوافع المغامرة والاثارة . وفي مثل هذه الظروف لا يوجد أي سبب يدفع الفرد لمغادرة خيمته لذلك لا تجد سوى عدد محدود من الرجال خارج الخيام .

ان المكائد السياسية تجعل البدو يتحسبون لخزن المؤن ، وهذه المهنة تأخذ منهم الوقت والعمل العضلي . وكثيرا ما تترك حملات الغزو آثارها في سلوكيات الشباب . واذا ما توقف الغزو تجد أيام البدوي تمضي في كسل وخمول .

يتميز البدوي بردة الفعل السريعة والانفعال . والرجال وهم في سن الاربعين ــ ونخص منهم ذوي المراتب العالية ــ يشتكون من عسر الهضم ومن الروماتيزم مع بعض الامراض التي تسببها حياة الخمول . وعند أول مرض

يتعرض البدوي لموت أكيد لأنه لا توجد لديهم فرص للشفاء . وهم كأحياء البراري يموتون في السهول المفتوحة وحدهم ، لأن الاطباء لا وجود لهم هناك . والبدوي لا يعرف الاعشاب الطبية ، والمريض ملزم مهما كانت حالته المرضية بالتحرك مع القبيلة عندما ترحل ، فيوضع على جمل يتشبث به قدر استطاعته في الحر والبرد وفي الريح والمطر وتحت الشمس ، ورأسه يتدلى نحو الاسفل وربما أخفض من أرجله ، ويمنعه من السقوط مساعدة أبنائه وزوجته التي تمشي بقربه . أما في الخيمة فيستلقي محاطا بأصدقائه الذين يواسونه في محنته ويسامرونه حتى يموت . وحتى الجروح ربما تكون مميتة على الرغم من الحالة الصحية للبدو نتيجة لاحاجة الى الهدوء ونقص المعرفة بأساليب المعالجة .

ان البدو يفضلون أن يموتوا هكذا ، ويواجهون نهايتهم دون خوف . وفي بعض الاسر يكون شرفهم في ألا يموتوا حتف أنفهم . وبشكل عام نجد اعتلال الصحة وضعف القوى في مرحلة الشباب شيئا غير معروف بين البدو . ومن أجل متعة الحياة نجد البدوي يفعل في حياته القصيرة أكثر مما نفعله نحن في كامل حياتنا .

لقد قيل الكثير عن حاسة البصر القوية وعن حاسة السمع عند البدو . ولكنني لا أجد أنهم يفوقون الاخرين بهما ، وعلى العكس من ذلك أجد حسن البصر شائعا بينهم . والبدوي العادي لا يرى ويسمع أكثر من الايطالي أو اليوناني أو الاسباني . وعندما كنا في البادية كانوا يطلبون منا باستمرار أن نبين لهم ماهية الاجسام البعيدة . أما عن قدرتهم على الاهتداء في البادية فربما تكون من باب المبالغة . فالبدو بطبيعة الحال يعرفون المنطقة التي يعيشون فيها جيدا ، وهذه المنطقة غالبا ما تكون كبيرة ولكن اذا ابتعدوا مرة خارج حدودها فستجدهم عاجزين تماما عن السير . والعنزي من البدو لا يماثل سكان أمريكا الجنوبية الذين يشقون طريقهم بمساعدة الريح أو الشمس ، ويحافظ على هذه المعرفة يوما بعد يوم حتى يصل الى غايته ، بينما نجده يرتحل من نقطة علام

الى أخرى . واذا ما خذلته هذه فسوف يعتمد على المعلومات التي يقدمها الرعاة الذين تصادفهم في الطريق وربما من ساكني الخيام . واذا ما كانت المنطقة غير مأهولة فانه يصاب بالهلع . والعيش في البادية يتحدث عنه البدو دوما بخوف، وهو بلهجتهم « الچول » أو البراري . ولم يكن بمقدورهم أن يفهموا كيف أمكننا المغامرة بدون مرشدين في أراض مجهولة ! وهم يعجزون عن السير في طريق مستقيم طوال اليوم لانهم لا يعرفون حساب الحركة التدريجية للشمس من حولهم . والشخص الوحيد الذي قابلناه ويمتلك تلك المقدرة هو رجل شمري طاعن في السن رافقنا في الجزيرة على الرغم من كونه ضعيف البصر .

تسير القبيلة البدوية في هذا الاتجاه وتذهب الى آخر ، وتتخبط في اليمين واليسار نحو غايتها، ولا تسير بخط مستقيم، وكأنهم في غموض ذهني في المسير . لا تبرز القوة العضلية جلية واضحة عند البدو ، الا أنهم من البشر النشيطين الذين يتحملون الصعاب ... يسرعون في المشي وفي الركض ، أما على ظهر الخيل فهم لا يكلون ولا يملون . وهم من الفرسان على كل حال وذلك بالمقاييس العادية ، أما اذا قارناهم بفرسان السباق فلا نجدهم من المتفوقين . وقليل منهم من يتقن الركوب الجيد ، بينما عن أيديهم فمن الصعب علي أن أحكم لأنهم يستخدمون الرسن فقط ، ولا يعرفون المهارة القليلة ، في اظهار فائدة الحصان، ولا يقتصدون في صرف جهده . وطريقتهم الوحيدة بالعدو بالحصان هي ركوبه بالايدي والارجل من البداية وحتى النهاية ، ولكنهم يمتلكون مهارة فائقة في الاستدارة والانعطاف بقوة والاستفادة من الارض في المطاردة أو الهرب . وجدارتهم كمروضي خيل هي في صبرهم الذي لا يعرف الحدود أو التعب ، والغضب مع الحيوان ليس من طبعهم . ولم أرهم أبدا يضربون أو يسيئون معاملة خيولهم ولا بأي شكل . والصبر في الواقع من الميزات الرئيسة التي يتميز بها البدوي . أما عن الشجاعة ــ على الرغم من أنها تحتل المقام العالي ــ

فتعتبر غير ضرورية للبدوي وحتى للشيوخ وأحيانا يقولون لم يمنحني الله الشجاعة في فعل كذا .. لذلك لم أقاتل ، وهم يعترفون كما يعترف الصياد الانكليزي بأنه قد فقد السيطرة على نفسه . وأصحابهم لا يوجهون النقد لمثل هؤلاء الناس ولا يضحكون منهم .

يولع الشباب البدوي بالمغامرة . وينطلقون في حملات السلب من أجل المجد والمكاسب . وغالبا ما يتعرضون لضربات قاسية . وكثير منهم من يحمل الجروح الكثيرة التي تظهر بادية على جسده ، بينما لا تلصق بهم فكرة العار اذا ما هربوا في يوم من الايام حتى وان كان الهاربون يتمتعون بقوة أفضل ؛ والبدوي في جوهره انسان طيب يحب الخير ولا يبطر ، فاذا ما قتل رجلا في الحرب تجده يخفي الحقيقة ولا يجاهر بها ، بينما الجريمة لمجرد الجريمة أو القتل العمد فغير معروفة بين القبائل . وهم لا يتلذذون باراقة الدماء كما تفعل بعض الاجناس البشرية الاخرى .

والصدق عند البدو لا يعتبر في الامور العادية فضيلة ؛ والكذب لا يعتبر عيبا ، وهم يقولون : لكل انسان الحق في أن يخفي ما ينكر به . أما في الامور ذات الاهمية فيؤكد الحدث بقسم يمين . واذا ما تم ذلك يمكن اعتبار الحقيقة التي أقرت مؤكدة ويمكن الاعتماد عليها . وهناك استثناء لهذه القاعدة العامة. فالبدوي لا يكذب اذا ما سئل عن سلالة فرسه ، فقد يرفض أن يجيب ، وربما يقول : لا أعرف ولكنه لن يعطي اسم سلالة أخرى غير السلالة الاصلية التي تنتمي اليها الفرس، وربما يكون السبب بأن الخداع لا يمكن تبريره بين البدو؛ اذ لا توجد أسرار في المعسكر البدوي ؛ وكل شخص يعرف فرس جاره كما يعرف فرسه . وعلى كل حال تعتبر القاعدة المستثناة محدثة ومعترفا بها . وقد لاحظت أمثلة كثيرة أخبرت فيها بصدق عن هذا الموضوع المثير للتشكوك . ان وجد الشاهد أو غاب على حد سواء .

سألت رجلا مسكينا كان قد أحضر فرسه لبيعها : ما هي سلالة الفرس ؟

فأجاب قائلا : شويمة • فقلنا : اذا هي ليست من سلالة شويمة سباح • فقال : لا شويمة قال هذا وهو يعرف بأن السلالة الأولى لو ذكرها لارتفع ثمن الفرس ثلاثة أضعاف • وهذه القاعدة بطبيعة الحال لا تجلب نفعا لتجارة الخيل ، بينما نجد في بعض الاحيان اضطرابا في تحديد عمر ونوعية الملكية بالنسبة للحصان• وقد تعطى خاطئة لعدة أسباب •

أما فيما يتعلق بالشرف والاخلاص فالبدوي على عكس القبائل المولدة• فبين هؤلاء تكون السرقة قاعدة ولا يتحرجون من كلمة الحرامي التي يمكن أن تطلق عليهم • فالقبائل الكردية وشبه الكردية في الجزيرة السورية العليا لا تعتبر السرقة مسألة تمس بالشرف . بينما العربي البحت يعتبر ذلك عارا •

ان الاعمال اللصوصية التافهة تعتبر غير معروفة بين العنزة أو شمر ، وخلال كامل رحلتنا لم نفقد بهذه الطريقة أكثر من شلنغ واحد ، بينما تعتبر أعمال اللصوصية على الطرق العامة مسموحا بها ، وأكثر من ذلك تعتبر حقا مكتسبا لهم • وعلى المسافرين الذين يمرون دون مواكبة مناسبة من احدى القبائل أو بتعريف منها ، فعليهم أن يتوقعوا خسارة حيواناتهم وبضائعهم وثيابهم وكل ما يملكون • ولا يلحق هذا النوع من السلب أي عار أكثر مما يمكن أن يلحقه السلب واستعباد الغرباء على الحدود الرومانية • وبموجب قوانين البادية تجب مصادرة البضائع المارة مهما كانت شخصية مالكيها •

ان احترام القانون هو في الواقع من معالم الشخصية البدوية • ولكن يجب فهم هذا القانون من زواياهم الخاصة فقط دون الاعتراف بالقانون التركي أو الاوربي • لأن القانونين الاخيرين يحتقرهما البدو كثيرا • والعدالة بمعنى العدالة لا يمكنهم تحقيقها في البادية ، الا أن الفقير هناك لا يجار عليه ولا يصيبه الحيف كرجل فقير • وكل القضايا تقرر وفقا للمعنى الصارم للقانون ومن المستحيل أن تطبق حرفيا لأن القانون غير مدون في هذه الحالة •

تحل كل القضايا التافهة من قبل شيخ العشيرة ، أما أكثر القضايا التي يناقشها قاضي المنطقة فهي مسائل التشرد وتحديد النسب ، بينما القضايا الهامة تحفظ لكي يبت فيها شيخ اعلى وربما يكون غريبا • وفي بعض الاحيان تترك للتحكيم من قبل ثلاثة أو سبعة أو اثني عشر محلفا • وأسوق قضية قررت من قبل محلفين يمكن أن توظف كايضاح ممتاز عن نوعية النزاعات المثارة وطريقة تقريرها :

في فرقة من السبعة تعتبر كل الخيول التي من سلالة المعنقيه التي تؤخذ في الحروب من حق عائلة معينة حسب عرف قديم من اعرافهم . والشيخ هو احد أفراد هذه العائلة • وصادف في احدى الغزوات أن فرسا سعنقيه قد استولى عليها رجل فقير من القبيلة ، في الوقت الذي فقد فيه فرسه الخاصة ؛ فأخذ الشيخ منه الفرس بموجب امتيازه في الحصول على هذه الخيول . وعندما احتج الرجل الفقير وقدمت القضية أمام اثني عشر محلفا للنظر فيها والنطق بحكمها • وبعد المشاورة والمداولة اعترف المحلفون بحق الشيخ فيها ، ومع ذلك أصدروا حكما لصالح المدعي فأعطيت الفرس للرجل الفقير . أما القضيه الغريبة الاخرى فهي الدعوى التي شهدناها في مضارب ولد علي بين جدعان وزوجته والغريب أيضا في مثل هذه المحاكم البدوية أنه لا يوجد موظف من أي نوع لتطبيق القرارات بالقوة ، لأن الرأي العام وحده يجبر الناس على اطاعة القانون • وفي حالات العقوبة القصوى تطرد المعاقب كليا من القبيلة . وفي حالات القتل يترك القانون القضية لعائلة المقتول لتثأر لنفسها ، وأخذ الثأر واجب على كل أقربائه مهما كانت هذه القرابة بعيدة • والقاتل نفسه قد يقتل وهو ما يطلب دوما ، والرجل الكبير من قومه قد يستهدف بالقتل وفق المبدأ الذي يقول : قتلت ابن عمي وسأقتل ابن عمك ، ودم ميت يغمر دم ميت آخر • وتنتهي الضغائن عند هذا الحد • ولكن قد يقتل من القبيلة أكثر من فرد واحد عندما يكون الثأر لرجلين وليس لواحد وتستمر الاحقاد لسنوات قبل أن يتم التعادل •

ان الالتزام بأخذ الثأر شيء مقدس جدا • ويسير الرجال مسافات طويلة لكي يجدوا أعداءهم ، وفي هذا المجال أخبرنا محمد بن طالب بأنه عندما قتل عمه من قبل جماعة معادية في تدمر ؛ قام رجل من بني لام وقطع مسافة طويلة من الجوف الى تدمر لأخذ الثأر •

يمكن أن يوضع حد لاستمرار الضغائن بدفع الدية التي تقدر بخمسين جملا أو مائتين وخمسين جنيها عن كل مغدور ••• هذه هي الحالات الواضحة من الخصومات والنزاعات وحالات اراقة الدم المعروفة في البادية ، وهي حالات نادرة بشكل عام •

ومن الاخلاق الممتازة عند البدو كونهم في حالة حذر دائم من اراقة الدماء ؛ لأن القاتل لا يتوقع انتقام أعدائه فقط . ولكن عليه توقع غضب أقربائه الذين ورطهم معه في هذا الشجار • ونتيجة لهذا القانون البربري الواضح نجد أن اللصوص والخارجين على القانون نادرا ما يتعرضون للقتل خوفا من الثأر • والبدوي معتدل في ممارساته • وقد وجدت ذلك في المثال التالي : منذ سنوات كان شاب فرنسي يدعى « دابو دوانجر » يسافر مع حارسه الزواوي(١) من حلب الى تدمر فسقط في أيدي جماعة كبيرة من الحسكة وكانا مسلحين بشكل جيد • فعندما ركب اليهم العرب ترجل الفرنسي وبدون أي مقدمات فتح النار فقتلت فرس الشيخ برصاصة ولم يمس العرب بسوء ، فشنوا هجوما على الفرنسيين الذين دافعوا عن أنفسهم جيدا ؛ وقتل الزواوي في العراك واستسلم سيده • وعلى الرغم من أن موت الفرس قد أغضب البدو لأنها كانت بقيمة كبيرة ، الا أنهم قد رضوا بتجريد أسيرهم من سلاحه وتركه يذهب بسلام • والقتل في بعض الاحيان لا يثار ؛ وفي بعض المناطق القليلة قد لا تكون فيها العقوبة بسببه قاسية • ونستطيع القول بأن أضعف نقطة في شخصية البدوي هي بلا شك حبه للمال ، وهذا ليس لمجرد الجمع والحرص على لم الثروة . انما هو حب حقيقي للقطع النقدية الفضية البيضاء التي يفضلونها على الذهب. علما أن حب النقود والمال يبدو من الامور العادية في حياة الاجناس البشرية .

---

(١) فرقة مشاة فرنسية كانت تتألف في الاصل من جنود جزائريين يلبسون الملابس المزركشة .

وفوته تتناسب عكسيا مع قيمة العملة ... وهكذا فان الاطفال لديهم حب للفلوس عندما تنتابهم فكرة التملك مفضلين اياها على أي شيء يمكن ان يقدم لهم، على الرغم من أنها عديمة القيمة العملية بالنسبة لهم . وبالطريقة نفسها نجد البدوي الذي يعيش في البادية على مدار السنة ، وهو بغنى عن الحاجيات التي يقدم من أجلها النقود . ولم تتح لهم الفرصة حتى لانفاقها ، نجده يسافر الى مسافات كبيرة معرضا نفسه للهلاك وللمشاكل ويبذل مجهودا كبيرا حتى يحصل على بعض القطع النقدية . ولو كانت سفرته من أجل الاغنام أو الجمال لما كلف نفسه كل هذا العناء . أما بالنسبة للشيخ الذي لن يجهد نفسه في أن يُغرى باقتراحات عملية للحصول على الغنائم فهو غالبا ما يخرج عن وقاره عندما يرى النقود .. ونتيجة لاستغلال نقطة الضعف هذه حقق الاتراك كثيرا من المكاسب والانتصارات الدبلوماسية في البادية . وعلى الرغم من حب البدو للمال نجدهم أقل مهارة في عمليات التجارة ، ودائما عرض شراء ما يمتلكونه يعتبر عندهم من الامور البغيضة التي تصل الى درجة الادانة . وليس لديهم مبدأ صارم في التعامل مع زيادة السعر المطلوب يتناسب مع رغبة المشتري المفروضة في الشراء ، ولهذا نجد أحيانا بأن الجمل أو الحصان الذي يرفضون بيعه في بداية الامر يباع فيما بعد الى شخص آخر بثلث السعر الاصلي ، ومع ذلك فالمهارة التجارية تختلف بشكل ملحوظ من قبيلة لأخرى . فبنو صخر الذين يعدون من البدو الاقحاح يقال بأنهم من التجار المهرة كاليهود أنفسهم . وحتى بين العنزة نجد من هو ماهر بالتجارة الا أن هذه الفكرة لا نجدها دوما محبذة .

ان الرأي العام البدوي يعترف بمباهج الثروة ، الا أنه يحترم دوما الرجل غير المبالي بها . وشيوخ البدو هم أحرار فيما يمتلكونه . ويقتسمون غنائم الحرب مع أتباعهم . وحتى الهدايا التي يمكن أن تقدم من الغرباء .. والشباب أكثر بروزا في هذه الصفة من الشيوخ الكبار . ففارس زعيم قبيلة شمر الذي يمثل أعلى قيم الماضي لا يبقي شيئا لنفسه الا عن طريق الهدايا أو الغنائم . وكل شيء عنده يذهب الى خدمه . وعلى الرغم من حب البدو للمال

الا أنهم لا يقبلونه من الغرباء الذين يعيشون في خيامهم الا تحت ظروف معينة. ولعل فضيلتهم الكبيرة هي في حسن ضيافتهم ، وحسن الضيافة بالنسبة للاوربي لا يزكي النفس مثل العدل والرحمة لأنه فضيلة طبيعية ، أو كما يعتبرها علماء الاديان بالفضيلة فوق الطبيعية وهي أن الامر يتطلب شيئاً أكثر من غريزة الشعور الطيب العادي لكي يبقي المرء بابه مفتوحا على مصراعيه للغرباء وأن يذبح في كل مرة خروفا ، ويشارك الاخرين في رغيف خبزه ، ومع هذا فالبدو لا ينظرون الى هذا الامر من هذه الزاوية . بل ينظرون الى الضيافة على أنها مجرد واجب مفروض بأمر الهي وعمل أولي يدركه كل ذي عقل صحيح . ورفض ايواء الغرباء أو عدم تقديم الطعام لهم لا يعتبر عملا شريرا فقط وانما هو اهانة لله وللانسانية ويعتبر قمة في الانحطاط الخلقي . والذي يتصرف مثل هذا لا يمكنه أن يكسب مرة ثانية احترام أو تسامح جيرانه ، وهذا هو الشعور السائد بين كل القبائل العربية بدوية كانت أو غير بدوية . ولكن شدة الالتزام بكرم الضيافة قد يختلف بين قبيلة وأخرى كالجبور والعقيدات والقبائل الفلاحية الاخرى . وقد يقبل بعض العرب أن يدفع لهم تعويضا عنها ، بينما نجد العمور يسلبون الغرباء الذين يمرون بديارهم أو الذين يستدرجونهم بحجة الضيافة . ويبدو أن فضيلة الضيافة لها معنى أوسع شمولا عند بعض القبائل . فالضيف ان لم يكن من قبيلة معادية فهو آمن من كل التحرشات وحتى ان كان من الاعداء ، فبمجرد أن يترجل ويلمس حبل خيمة واحدة من المخيم فهو آمن . أما الغريب العادي فهو حر بالذهاب الى أي مكان يشاء ؛ وأن يحل ضيفا حيثما رغب ، وعادة يختار أكبر خيمة لأن حجمها يدل على مكانة صاحبها ، وهناك يبقى يأكل وينام حسب رغبته وحدود الضيافة بالنسبة للزمن غير محدود تماما ، ولم يحدد لي أحد مقدار ايامها ولا أظن بأن في خيمة الشيخ عادة لمثل هذا ، ولم أسمع بهذه الحالة ، ولكني أتخيل أنه بعد بضعة أيام نجد صديقا ممن يعتمد عليهم المخيم يلمح للوافد بأنه قد حان وقت الرحيل . وربما يندس بعض الفقراء ليتحدث عن بيت المؤونة الفارغ ، فيحث الرجل على الرحيل . ولكن ذلك مجرد تخمين مني لا دليل عليه .

في الحالات الاعتيادية يبقى الضيف ليلة واحدة ، ثم يغادر حيث لايتوجب أن يؤدي أية تحية أو وداع أو شكر ، وحتى في الخيام الفقيرة نجد أن المال لا يطلب ثمنا للاقامة أو الطعام ، وعندما نسأل في بعض الاحيان عن جدي أو خروف نأكله يعتذر البائع بقوله : لقد جلبته من خيام أخرى • وعندما تقيم طويلا في خيمة الشيخ فمن المألوف أن تعطي كروانا لصانع القهوة أو للطباخ أو لكليهما معا ان وجدا ، وهم من الزنوج طبعا ، كما يمكن أن تقدم قطعة فضية صغيرة لمن يمسك ركاب جوادك عند الركوب • أما للرجال الكبار فيمكن تقديم الهدايا عند الوصول فقط حتى لا يحمل معناها على أنها من قبيل الاجرة• وعباءة وزوجان من الاحذية وكيس من السكر للنساء هي الهدية المعتادة في البادية ، وقد ترافقها حبوب القهوة والتبغ بشكل دائم وتقبل بسهولة • والمسدس يعتبر هدية مناسبة ، ولكن لا يقبلها الرجل الكبير بدون أن يقدم هدية مقابلة • وبالتالي فمن الضروري تقدير رتبة المضيف والضيف بعناية حتى يمكن تجنب الاساءة • ويستقبل الفقير تماما كالغني وان كان على الغني أن يجلب عباءة اذا كانت الزيارة موجهة الى شيخ القبيلة •

ان الهدايا هي دائما من قبيل التشريف وليست من قبيل الاجر . وتعطى عادة للاصدقاء والى من يعتمد الشيخ عليهم • ولا يوجد هناك أي شك على صفاء نية ودوافع الشيخ في هذا المجال • والمسافرون الفقراء غالبا ما يمضون أسابيع في خيمة واحدة وقد يمرون من خيمة الى أخرى • والبدوي على حدة طبعه دائما يحتفي بهم ونادرا ما يسمحون لعواطفهم أن تنساب دون سيطرة • وكثيرا ما يقود الشجار الى تبادل الكلمات وقد يؤدي الى سحب السكين في حالة الغضب الا أن الرصانة تعد من الاسباب المهدئة الرائعة •

لا يشرب البدو مشروبا أقوى من اللبن أو الحليب الحامض المعروف بينهم ، وهم ينظرون الى كل السوائل المخمرة على أنها عار وشيء مشين ، وعلى الافرنجي الذي يأخذ الخمر معه الى البادية أن يتوقع خسارة لكل احترام هناك• والجرائم البشعة لا يمكن أن تجد لها مكانا في قاموس الذنوب البدوية مطلقا • حتى الآن تكلمت عن رجال البدو ، أما عن النساء فان وصفا قصيرا قد

يفي بالغرض عنهن ، فهن أطول أو يماثلهن الرجال في الطول ، ومن المعتاد أن ترى الكبيرة منهن بدينة أو ثقيلة المشية . أما بالنسبة للفتيات فهن من الجميلات اذا ما نظرنا اليهن نظرة تصور ذهنية ، وهن عادة بوجوه صبوحة باشة ، ونشيطات في تأدية كل الاعمال في المخيم ، يحضرن الحطب ويسحبن الماء وينصبن الخيام ويهدمنها ويحلبن النعاج والنوق ، ويقمن بعمليات اعداد اللبن ويطبخن الطعام ، ويعشن بمعزل عن الرجال ، ولكن لا يحجر عليهن أو يوضعن تحت الحصر والمراقبة .

تخرج النساء في الصباح لجمع الحطب ومعهن الجمال أو الحمير . وكل من صادفناهن وجدناهن يعملن في همة عالية وبمعشر حسن ، اذ يختلطن ويزرن خيام بعضهن بعضا ومعهن الاطفال ، ولديهن القدرة على الاختلاط بالاقارب الذكور كل حسب درجة قرابته . الا أن مكانتهن الاجتماعية في حالة يرثى لها ، ولكنهن لا يتذمرن من ذلك .

ولم أجد من يلاطفون الاطفال كالبدو . فابن الشيخ يُعتنى به ويلاطف ويلاعب من قبل الرجال في خيمة الشيخ طوال اليوم . ولا يوبخ الاطفال ولا تساء معاملتهم . والبدو الاصلاء يربون أولادهم بشكل جيد ويحرصون على جعلهم بأخلاق حسنة . وكثيرا ما يترك الاطفال في ثياب متسخة حتى سن الثالثة ، مما يضفي عليهم مناظر قذرة ، ولكنهم يقومون بذلك عمدا عن قصد لكي يحفظوهم بعيدا عن العيون الشريرة ، ثم ينظفون ويعتنى بهم كبقية الكبار فيما بعد .

ان الصفات الفكرية لنساء البادية تعتبر أقل مستوى من الرجال بكثير ، وأفكارهن محدودة جدا ، ويندر أن تجد منهن من يملك القدرة على التأثير على أزواجهن أو من خلالهم على القبيلة . الا أن أكثر من مشاهدة تثبت أن في خيمة الشيخ امرأة واحدة على الاقل بيدها أمر تقرير السياسة العامة في القبيلة .

* * *

الفصل السادس والعشرون

تأمل الشجرة اذا ما قطعت ان تنشأ ثانية ، وفروعها عند ذلك لن تتوقف عن النمو .. ولكن الانسان يموت ويفنى عندما تغادر روحه الجسد ، ولكن مسيرته الى اين ؟

● ايوب

ديانة البدو لا تتعدى حدود الايمان ـ لا يقيمون الشعائر والاحتفالات ـ الايمان والقسم ـ ايمانهم غير واضح بحياة الآخرة ـ تندر الخرافات بينهم ـ الفضيلة نظام مطلق ـ طقوس الزواج .

يعتبر ايمان البدو ايمانا موروثا منذ القدم ، الا أن البدو لا يعترفون بأية عقيدة معينة مهما كانت ، ولا يعرفون وضوح العقائد ولا الخرافات ، الا أنه لن نجد من البشر في هذه الدنيا من لا يهتمون بما وراء الطبيعة . وايمان البدو بالله يعتبر أبسط أنواع الايمان ولا يتعدى كون الله موجوداً وقد يقرن بقوى الطبيعة كالشمس والسماوات الا أن هذه لا تعتبر قاعدة عند البدو .

ان الله هو الله ، جملة يعبر بها البدو ببساطة عن كل ما يعرفونه عن الله . أما عن الكيفية والوجود والحقيقة فلم أجد أية مناقشة عنها بينهم . وأما عن الوحي الالهي فيبدو أنهم لا يعرفون شيئا عنه . والله هو القوة التي يجب أن يخضع لها الجميع ، مصدر الخير والشر في هذه الحياة ، والمسببة للمطر ووجود الشمس وعلة توالد القطعان ، والمسببة لأمراض الماشية ، الا أنهم لا يتضرعون الى الله في صلاة ، ولا يشكون من قسوته عند المرض ولا يعرفون الشكر . كما أنهم لا يسبون الله ، ويتساوى عندهم الحب والخوف منه . واذا ما كانت لهم علاقة مباشرة مع الله فهو شاهدهم الصامت في كل قسم يقسمونه في نزاعاتهم

وحتى في هذه الحالة فهم لا يتوقعون شيئا من لدنه ، ولا المغفرة من خطأ ، أو العقوبة في قسم كاذب ٠

ان الصلاة ــ من الاعمال الجسدية ــ لا يمارسها البدوي البحت ٠ وحتى القبائل التي تأثرت بالديانة الاسلامية نتيجة لاحتكاكها بالمدن تكتم تدينها عن أنظار وأسماع الغرباء ٠ وشمر وحدها من بين كل القبائل النبيلة التي زرناها كانت تملك « الملا » ودوره بينهم لأغراض دينية دون أدنى شك ٠ ووجود الملا سببه قناعات شخصية لشيخهم صفوق وتأثره بالقناعات التركية ٠ وسار على نهجه ولده فارس ذو الاصل النبيل، اذ لازال يمارس صلواته دون انقطاع ٠

ان تلك الاستثناءات الفردية تعقبها ممارسات دينية تؤخذ كمؤشرات على تدني الفضيلة في القبيلة ٠ فالانحطاط بين فلاحي العراق واضح على الرغم من أنهم يتعصبون لاحكامهم الاسلامية الشيعية ٠ أما عن العنزة فلا أتذكر أنني شاهدت مصليا بينهم ٠ وعلى سبيل العادة دون المعنى الديني يكثر البدو من استخدام اسم الله وبشكل عرضي لتأكيد شيء ما ، وعليك أن تسمع منهم طوال اليوم كلمات : ان شاء الله والحمد لله ، ومعنى هذه الكلمات عندهم أقل من معنى الكلمات التي نستخدمها نحن : شكرا لله ٠٠ وان سر الله ٠ وعبارة ما شاء الله ربما تكون مختلطة بشيء من الخرافة في مسناها ، فهي تستخدم مع حديث الاعجاب خشية الحظ السيء ، ولهذا يعتبر الامر من باب قلة الادب أن تذكر جمال فرس دون أن تضيف معها كلمة ما شاء الله ٠ وكم من مرة صحح لنا صاحب الحيوانات التي نذكرها الكلام الذي نقوله بحقها دون ذكر الله ٠

ولعل الاستخدام الرزين الوحيد لاسم الالوهية هو عندما يراد تأكيد القسم ٠ اذ ترفع اليد اليمنى ثم يشهد الله ٠ اذا ما قال البدوي ذلك فيمكن الاعتماد على ما قال ولكن هذا الصدق في القسم لم أجده نتيجة لعوامل خوف ،

بينما نجد القسم الكاذب سائدا بين القبائل الفلاحية الوضعية ، على الرغم من أنها تدين بالاسلام . وقسم البدوي هو في واقع الامر مناشدة للشرف بمقدار ما يملك من معان دينية ، وهو يماثل الوعد القائل : على رأسي : عندما لا يستخدم معه اسم الله .

ان قسم الاخوة له سمة دينية حقيقية عند الذين يفسمونه وعندما يذكر فيه اسم الله . ويدخل هذا في جوهر الميثاق الذي أبرمه ابراهيم مع أبيمليخ(١) في بئر السبع ، وهذا القسم يلزم الذين يقسمون به أن يتصرفوا تصرف الاخوة وفي كل الظروف ، والعون والمساعدة يجب تقديمها حتى في حالة الشجار الفردي .

واذا تم عقد الاخوة بين شيخين فسوف يتبادلان العون في حالة الحرب . مع التزام كل من الشيخين بعدم القيام بعمل عدواني ضد قوم الشيخ الآخر المتآخي معه وعندما تؤخذ ابله مع غنائم قوم معادين يأتي الاخ ليناشد الغزاة استعادة الجمال بحكم الاخوة في الحال ، وأكثر من ذلك اذا كان الاخوة من قبائل متحاربة فهم لا يشتركون ضد بعضهم في صدام مباشر ، بل يترك الامر لمحاربين غيرهم . ان قسم الاخوة لا يستخف به أبدا ، أو أن يؤخذ على غير محمل الجد حتى ان كلماته تتلى بصوت هادىء خاشع وقور ، ولا يخامرها وهم أو شعور بالتفاهة قبل أو بعد القسم ، ويطلع على القسم شاهدان ، وقد يكتفى بواحد . ولم أسمع عن نقض لمثل هذا القسم ، وقد يجري هذا القسم نتيجة تعاطف حقيقي بين المقسمين لليمين ، وهم من شيوخ القبائل الذين تدفعهم الى ذلك دوافع سياسية وربما دوافع المصلحة . الا أن التآخي يعتبر خطوة أولية نحو السلام على الاقل . ان معظم شيوخ البدو يتآخون مع شيوخ المدن المتناثرة في البوادي الذين هم من دم عربي

---

(١) شخصية من شخصيات القصص الديني الذي كانت تنقله الايدي من كتب الاسفار .

صاف ويعرفون تقاليد الشرف في البادية • وقسم الاخوة في هذه الحالة خدمته عظيمة لكلا الطرفين للبدوي في المدينة وللحضري في البادية ، والاخوة ملزمة في كل شيء ويستثنى من ذلك حالات الزواج ، وأخت هذا الاخ لا تحرم على الآخر وهكذا نجد الايمان عند البدو موجودا بشكله الساري ألا وهو الخضوع للمشيئة الالهية وهو ما يتطابق مع تدين البطارقة القدماء • أما في وقتنا الحاضر فلم يتعد الامر كونه انعكاسا غامضا لاعتقاد قديم يعتمد على العرف أكثر من اعتماده على التصور الفكري عند البدو •

شاهدنا في مضارب شمر رجال اليزيدية الذين وصفهم العرب بعبدة الشيطان وهم يلبسون القمصان التي قصت مربعة عند العنق • وهؤلاء يتميزون بخصوصية تنتهي عند حدود البادية • ان الايمان بالعشيرة يسعد الا أن الحياة الآخرة يبدو انه لا مكان لها في تفكير البدوي • وهم كأيوب ينظرون الى القبر بمثابة أرض الظلام وبالاحرى هي الظلام بذاته ، ولا يأمل البدوي بتحقيق أية رغبات بعدها • ومن الصعب على أوربي اقناع نفسه بأنه ينتهي هكذا ، والذي لا يؤمن لن تجده ييأس لأنه لايؤمن • والبدوي يعرف أنه سيموت ولكنه لايخاف الموت ومع علمه بالهلاك نجده لايرتجف عند رؤية القبر ، وهو لا يفكر بأكثر من التذمر مما نفعل لأنه ليس لنا أجنحة ننجو بها من المصير المحتوم • أما عن تصور البدوي لعموم الكون فليس هناك مكان عنده للجنة أو النار ؛ والكلمات التي دونتها في مقدمة هذا الفصل تعبر تعبيرا دقيقا عن التفكير البدوي هذا اذا ما كان يفكر بالموت فعلا ، ولكنه في واقع الامر نادرا ما يشغل باله في مثل هذه الامور لأن طريقة حياته تمنعه من ممارسة مثل هذا التفكير •

نعاني نحن في الغرب من مرض التفكير نتيجة لزيادة اهتماماتنا وبسبب البطالة بمقدار يتناسب مع الذكاء • أما البدوي في شبابه فليس لديه وقت يمضيه في البطالة أو الخمول ، فهو في نشاط دائم •• ومعظم حياته يقضيها في الهواء

الطلق مما يكسبه الصحة ، والحمية من الاطعمة الزائدة والتمارين اليومية القاسية لا يؤديان بذهنه الى التفكير الخطير أو الكآبة السوداء ، والعقد التي تقود الى أفعال منعكسة لا ارادية نتيجة للعوامل الخفية ، وهو ما لمسناه في أنفسنا خلال هذه الرحلة ، اذ كانت عقولنا مشغولة اليوم كله بالاشياء التي تنتظرنا . ولم نعد نفكر الا قليلا بالماضي أو المستقبل ؛ ولكن جل تفكيرنا ينصب على تدبير وجبة العشاء . وعندما كنا نمضي ساعة بعد ساعة ونحن على ظهور الجياد نراقب الافق الذي يستدير حولنا أو عندما كنا نراقب تقدم الشمس عبر ظلال أعناق الابل ، أمام كل هذا نعترف أننا لم نستطع المضي في التفكير ؛ فآمالنا كانت تنحصر بالبئر التي علينا أن نصلها في المساء . ومخاوفنا تكمن في السلسلة المنخفضة من التلال خشية أن تخفي عدوا كان بانتظارنا . ان متعة اللحظة التي نعيشها ومتعة العيش لمجرد العيش كانت قد امتصت كل خيالنا ؛ لأن الحاضر الذي نعيشه أغلق علينا أبواب الماضي والمستقبل وحتى في لحظات الخطر لم يكن لدينا وقت للتفكير بالموت ... هذه هي الحالة عند البدو في أيام الشباب ، أما في الشيخوخة وعندما تخذلهم القوة والظروف الصحية فلن نجدهم بظروف أفضل . والبدوي يمكن أن يتم كامل أيامه من المهد الى اللحد دون أن يكون وحده لأن حياته من حياة المجتمع الذي يعيش فيه . ففي الخيمة الخارجية عندما يكون غنيا لن تمر ساعة من النهار أو يوم من السنة دون أن ترى مجموعة من الاصدقاء أو الاتباع عنده في الخيمة ، بينما في الخيمة الداخلية يمكث الاطفال والنساء والعبيد والاقارب بشكل دائم . أما اذا كان البدوي فقيرا فسوف يجلس اليوم كله في خيام الاخرين . ولن تجد البدوي يركب وحده ولو لبضعة أميال حتى وان كان على ظهر فرسه ؛ وسيخامره شعور بالخوف ان كان بدون أصحابه ولو كان من أشجع الرجال .

سبب آخر في تقديري يجعلنا نحن في أوربا نقدر ونخاف الموت ألا وهو مواجهتنا له روحيا بين وقت وآخر . أما في البادية فلا يتعرض أحد لمثل هذه

المقابلة لأنه عند أول اصابة خطيرة بالمرض يهلك الفرد • والبدو يعرفون انهم سيموتون لأنهم يرون الاخرين يموتون من حولهم ، ولكن لا يعرفون ماذا سيكون بين فكي الاسد • وهكذا مع الخوف من الموت تتوقف الحاجة الى التفكير بحياة أخرى ؛ والموت لا يسيطر على مخيلتهم ، ولا يفكرون في ماوراء حالة القبر أبدا • أما عن الخرافات فهي نادرة في البادية ، ولا واحدة منها يمكن أن تستحق التضحية بمنفعة حقيقية •

يمكن أن تجد عند البدو آراء مسبقة عن الالوان والعلامات في الخيول ؛ فيعتبرون بعضها جالبا للحظ وبعضها الآخر جالبا للنحس • ولم أجد بينهم من يرفض حيوانا جيدا لأسباب وهمية أو خيالية • ولا تجد عند البدو أياما للنحس أو أياما لحسن الطالع • وهم لا يتطيرون لطير في الجو ولا لحيوان في السهل، ولا يحلمون ولا يرون المنامات والاشباح ، ولكنهم يلبسون أطفالهم اللون الاسود ويبقونهم في حالة اتساخ خشية العين الشريرة، ولكن أفسر ذلك بالعادة المتبعة التي تكون دون معنى •

وهتافاتهم هي كذلك معتدلة خرافية ، ولم أجدهم يستخدمونها في حالات التشاجر(١) ولا يبالون كثيرا لمثل هذه الاشياء مثلما يبالون لما تجلبه من منافع مادية • أما بالنسبة لأخلاقية البدو فهم يختلفون فيها عنا كما يختلفون في طريقة التدين فنحن نلتزم بأخلاقية تنبع من تشريعات الهية معينة ، أما بالنسبة لهم فان هذه الاخلاقية تكون نتيجة لممارسات طبيعية للامور ؛ وهم لا يناشدون الضمير أو الذات الالهية لتبيان الحق من الباطل ، ولكن يلجؤون الى العرف والعادة ، ويعتبرونه حقا لأنه أقر على أنه حق وكذلك الباطل ، ويقولون :

---

(١) كان غانم ــ رفيق الدرب ــ يضع تميمة على ذراعه جلبها من جبل شمر لتحميه من الرصاص ، وكان يخجل من أن يدعها مرئية .

انهم يبرون بالقسم لأنهم من البدو . والاتراك يحنثون بأيمانهم لأنهم من الاتراك ، ولا يعدون ذلك عيبا .

ينظر البدو الى الخمر واللحوم المحرمة بالطريقة نفسها ، وهم يقولون : ان الصلبة يأكلون القنفذ ونحن لا نأكله . والخوض في مثل هذه القضايا لا يعتبر مجرد قضية احصائية .

نجد عند البدو – فيما يتعلق بالحق والباطل – بعض المبادىء الصارمة التي تكون واضحة بشكل عام. وتلقى دعما أدبيا من قبل الراي العام البدوي. فليس من أحد في البادية يعجب أو يوافق على الاثم والعدوان حتى ولو كان ناجحا ، ويبقى العار ملتصقا بصاحبه على الرغم من قوته وثروته . أما الشجاعة والكرم وحسن الضيافة والعدل فتعتبر من الفضائل التي يجب أن تحترم في البادية ، بينما الكذب والسرقة في ظروف معينة لا تحتمل العقاب في القانون البدوي العام ، بينما الجرائم الاخرى التي قد تتسامح معها في حالة الانحلال لا يمكن أن تغتفر عندهم بسهولة . فنقص الثقة والخيانة التي هي عامة في أوربا الحديثة تدان عندنا قليلا . بينما تعتبر عند البدو من الامور المخزية الفاضحة : وربما لا تصدق الاذن الانكليزية أن البدوي البسيط تعهد أموال ثمينة للاصدقاء ولا يسيء استعمالها ! نسكان حلب والموصل يعهدون في كل شتاء بآلاف الاغنام الى قبيلتي الولدة والحديديين ، ثم تعود بفائدة مربحة الى أصحابها في الربيع .

ان النظام البدوي لا يعرف الملكية الجماعية لا في الخيل ولا في غيرها . ودرجة النزاهة قد تختلف من شخص لآخر ، ولا يمكن اعتبارها قاعدة عامة . وفي كل القبائل قد ترى الارامل والايتام يحصلون على ملكيات هامة من الابل والاغنام دون أن يكونوا في خطر معين ، أو في خوف من أن يجار عليهم من الاقرباء . والعقيل في البادية يضرب بهم المثل في النزاهة والثقة . ولن تجد

رجلا منهم لا يحمل مقداراً كبير من المال والامانات . وقد نجد بعض المحتالين الاوغاد في البادية الا أن صفة انعدام الامانة لا نراها سائدة كما في أوربا الحديثة على شكل قاعدة عامة ، ونستثني من ذلك الحالات النادرة من اللصوصية . فاللصوص غالبا ما يجتمعون بشكل عصابات صغيرة منفصلة عن البقية ، وربما كان أفراد هذه العصابات ممن طردوا من قبائلهم ، ومن مثل هؤلاء علينا أن لا نتوقع أي خير . أما الاشخاص المعروفون بعدم الأمانة في القبائل الكبيرة فلا يمكن مسامحتهم أو تحمل وجودهم ، وبالطريقة نفسها فان الظلم من جانب هؤلاء بالقوة يعتبر شيئا مستحيلا ، والرأي العام سيواجه ذلك فورا . وكل شيخ يحاول تجاهل القانون البدوي سيجد نفسه وبسرعة معزولا وحيدا وقد تفرق الناس من حوله .

وكثيرا ما نجد مرونة كبيرة يسمح بها القانون البدوي في أمور الطلاق والزواج والفجور وذلك في المعنى الفني لمقدار الاساءة للقوانين . ويبدو أن هذه الظاهرة تعتبر أقل شيوعا مما هي عليه الحالة في الامم الاوربية . وبطبيعة الحال يصعب على مسافر مثلنا أو على عابر سبيل غريب أن يحصل بسهولة على معلومات تتعلق بهذه المواضيع ، ولكن من كل الذين سمعت منهم أقول : ان الخيانة الزوجية غير معروفة في البادية ، ولهذه الحالة أسباب عديدة : فأولها أن كل شخص في خيمة البدوي رجلا كان أو امرأة عليه أن يعيش بشكل دائم وبوضوح . ومن الصعب أن تحاك المؤامرات أو ان تنفذ بسهولة . والنساء لا يحق لهن محادثة أي رجل سوى الاقرباء ، ولا يستطعن مثل هذا دون مشاهدة عشرين شاهدا على الاقل ، وكثيرا ما تغتاظ الاخوات والحموات وحتى الخدم من أي امرأة صممت على خرق قانون الزواج ، وأسهل عقوبة تتبع مثل هذا الخرق هي الطلاق بطبيعة الحال وأدنى شك في أي سبب حقيقي سيكون مبررا كافيا لطرد المرأة الى والديها دون أية صيغة أخرى أكثر من قول زوجها لها أمام الشهود : أنت طالق ، كما أنها تملك الحق بمفارقة زوجها دونما

سبب ولا يمكن أن تبرر الخيانة الزوجية على أساس التعاسة وعدم السعادة البيتية • ويتظاهر الرجال الكبار من البدو بعدم الاكتراث بالجنس اللطيف • وهو فوق ما يحسون به لأن دلك لا يتلازم مع السمعة الحسنة ؛ ولا ثمة تشجيع يذكر للاعمال الناجحة في هذا المجال ؛ كما أن الاهتمام الزائد بالنساء ينظر العرب اليه دوما بازدراء ، ويوصف صاحبه بالمخنث أو التركي •

سألت محمد الطالب الذي أمضى شهرا وهو يغيب عن بيته وأهله ؛ فيما اذا كان غير متلهف للعودة الى زوجته وأولاده • فأجاب بحرج كما لو أن مشاعره قد جرحت بشحنة من الضعف وقال : لماذا علي أن لا أرغب بذلك ؟ وأنا الذي غادرت البيت بصعوبة •

ان الدعارة العلنية غير معروفة في البادية • ويبدو أن البدو الفقراء نادرا ما يتزوجون أكثر من زوجة واحدة على الرغم من عدم وجود القيود التي تمنعهم من ذلك ، ولا حتى الاغنياء يرغبون بزواج آخر طالما أنهم ينعمون بالسعادة في زواجهم الاول • والمرأة التي ترضي زوجها وتلد له البنين هي آمنة نوعا ما من مزاحمة امرأة ثانية لها في خيمة زوجها • والسبب الشائع للخلاف بين الزوجين هو فشل الزوجة في انجاب الذرية ؛ لأن نقص الورثة من الذكور لا يعتبر حظا سيئا فقط ولكنه يعتبر بمثابة العار عند البدو • وقد ينتظر الزوج سنتين أو ثلاث سنوات حتى يزمع اقامة عقد زواج جديد وربما يعيد الزوجة الاولى الى أهلها • ولكن غالبا ما تبقى الزوجتان معا في بيت الزوجية ، وهو ما يحدث شجارا حادا بين الزوجتين المتنافستين • وربما تترك المرأة زوجها لأنها لا تستطيع العيش مع ضرتها الكبيرة لأن الزوجة الاولى تبقى عادة تحتفظ بسكانتها كربة للبيت الذي تديره بنفسها ، وكثيرا ما تسيء استعمال هذا الحق مسببة كثيرا من الخلافات • ومن الطبيعي أن تطفو الخلافات الزوجية على السطح عندما تتعدد الزوجات ويعشن مع بعضهن في بيت واحد •

ان مثل هذه الامور تعتبر كريهة بالنسبة للاوربيين • ولكن العرف والعادة يجعلان النساء العربيات يقبلن بهذا الواقع ولا يعتبرن العيش مع أكثر من زوجة عملا يحط من قدرهن • ويبدو أن الشجارات في مثل هذه البيوت لاتكون عميقة الجذور أكثر من الشجار الذي يحدث بين أفراد البيت الانكليزي •

وأخيرا ان نساء البادية لهن حقوقهن التي يجب أن تحترم ، وهن لا يتذمرن اذا ما أسيئت معاملتهن ، الا أنهن لا يحلمن بأن يحصلن على معاملة متساوية مع أزواجهن واخوانهن •• ان نساء البادية سعيدات ومجدات •

* * *

الفصل السابع والعشرون

دستور البدو السياسي ـ الحرية ـ المساواة ـ تعصبهم للسلطة ـ قوانين الحرب ـ الظعائن .

يعتبر النظام السياسي عند البدو بمنتهى الغرابة ، لأنه يعطي مثالا راقيا لأفضل أنواع الديمقراطية في العالم ؛ وربما ديمقراطية البدو هي الوحيدة التي تتحقق فيها الشعارات التالية : الحرية . المساواة . الاخوة .

الحرية عند البدو هي أساس النظام كله . ولا نقصد الحرية القومية فحسب . ولكن الحرية الفردية كذلك التي لا تقيدها أية ضوابط كضوابط الولاء للملك أو الدولة ، والبدوي لا يدين بشيء لا يقرره على نفسه ، وهو يستقل بالعمل الحر الشخصي وبالاهتمامات الخاصة . فاذا ما استاء البدوي من شيء يمكنه أن ينعزل عن المجتمع الذي ينتمي اليه في أي وقت دون أن يسأل ؛ أو يخاف من عقاب . ومكانة البدوي في مجتمعه تذكرنا بأنه عضو في ناد أكثر من كونه من مجتمع أو رعية . ولكن طالما أنه من قبيلة فعليه أن ينصاع لأحكامها وضوابطها ، وعليه أن يشارك في كل المداولات التي تجري من أجلها . واذا ما رأى آراءه مهملة فله الحق أن يتحرر من سلطتها اذا كانت تحول دون استقلاليته . ولن تجد بدويا في البادية يتذمر أو يشتكي من الظلم لأن مواجهة ذلك وعلاج الظلم تبقى معطياتها دوما بين يديه .

ان الحس الجماعي يطغى على الحس الفردي في القبيله ، والاقلية اذا كانت لا تفضل الخضوع للاغلبية عليها أن تنسحب من الهيكل العام للقبيلة لتعيش وحدها دون أن تجلب على نفسها عداوة الدولة أو أن تعرض نفسها لاتهامات

الخيانه . وحتى الفرد الوحيد يمكنه أن ينعزل عن المجموعة دون أن يسأله أحد ، وله الحرية في نصب خيمته حيث يريد . وفي أيام السلم من النادر أن تجد أكثر من خمسين أو مائة عائلة بدوية تعيش مع بعضها في علاقات يومية ؛ أما في أيام الحرب فالخوف يجمع أفراد القبيلة قرب بعض خشية هجوم الاعداء . وشعورهم بالخوف أكبر من شعورهم بالواجب . فالرولة على سبيل المثال كانوا يجمعون عندما زرناهم في سهل صيقل حتى بلغ تعداد خيامهم اثني عشر ألف خيمة لأن الحرب كانت على الابواب . وأخبرونا بأن خمسمائة خيمة بقيت منهم في نجد عندما زحفت القبيلة نحو الشمال ، وذلك بسبب الخلاف بين شيخهم وابن شعلان الشيخ الاعلى للقبيلة ؛ ومع ذلك لم يتحدثوا عن ذلك بمرارة على الرغم من أن تخلف تلك المجموعة الهامة قد أضعفهم في مواجهة المخاطر ، ولم يناقشوا الاقلية في حقها أن تفعل ما تشاء .

ان الفرد هو الاساس . وعليه يعتمد حكم الدارس للنظام السياسي في البادية . واذا ما قارنا رجل البادية بالرجل الانكليزي المتباهي بحريته نجد كل بدوي يشعر في خيمته وكأنه في قلعة حصينة ، حيث يكون حرا فيها ويفعل ما يشاء دون تدخل أو ممانعة من جاره ، بينما يتمتع بميزة اضافية عن الانكليزي: كونه يستطيع هدم خيمته ثانية حيث يشاء ، ونجده كذلك في حل من كل سيطرة سواء أكانت من جامعي الضرائب أو من رجال الشرطة ، اذ لا يترتب عليه دفع أي مبلغ . وحتى خدماته نجده غير ملزم بها بمعنى الالزام لجيرانه زمن الحرب . غير أن الامور تجري لمصلحته اذا ما تنازل قليلا عن هذه الاستقلاليه المطلقة . فهو في هذا التنازل يحمي نفسه لأنه لا يستطيع أن يعيش وحده بشكل عملي دون أن يتوقع سلب رجال القبائل الغازية له والذين سيكون حقا طبيعيا في سلبه . عندها عليه أن يعيش مع قبيلته ــ باستثناء بعض الامثلة النادرة ــ ويشاركهم في الدفاع العام عن القبيلة ويشرع رمحه عند الحاجة لشد أزر المدافعين وقد يشارك مع أصحابه في أعمال الحرب والنهب التي تحتاج الى جهد جماعي . كما أنه يخضع للقوانين العامة وللانظمة الضرورية

في المجتمع البدوي • وعلى الرغم من فقره فليس لديه شعور بأنه سهل الانقياد لقوانين يضعها الاخرون لا من أجله بل من أجل مصالحهم •

ان النظام القبلي أشبه بنظام حكومي بسيط ، لأن القبيلة أو قسما منها على الاقل يقع تحت حكم اسمي لشيخ اختير باقتراع أصحابه • ولم نجد من مؤهلات مطلوبة محددة بالنسبة للناخب أو المنتخب ، ومع ذلك نجد الحكم المسبق الشائع هو في مصلحة القوة العليا التي توكل لعائلات معينة يختار الشيخ من بينها • والشيخ يجب أن يكون من أصحاب الثروة حتى يتمكن من تحمل أعباء الضيافة • والقيادة الموروثة يبدو أنها من الامور المسلم بها في البادية لأن ابن الشيخ الراحل أو أخاه أو عمه هو الرجل المرشح لخلافته ، ولا يتطلب الامر سوى الذكاء والجدارة غير العادية للقيادة حتى يتمكن الرجل الجديد من مزاولة مهام منصبه • ان السلطة الحقيقية زهيدة بين يدي الشيخ على الرغم من أن آلاف الرجال يطيعونه رسميا، وهو حقيقة لا يمثل الا الارادة المشتركة للقبيلة ، لأنه في الامور السياسية عليه أن يجاري الرأي العام أكثر مما عليه أن يقوده • ان الشيخ الذكي جدا أو الشجاع سيجد نفسه بعد مدة مزودا بقوة داعمة حقيقية لا لمركزه ولكن لشخصيته • ويبدو أن مثل هذا الرجل يبقى بشكل عام هو المفضل بينما يكون الشيخ الضعيف مجرد ممثل أو رمز للقبيلة •

على شيخ القبيلة مجموعة من الواجبات يقابلها القليل من المنافع • وعلى عاتقه تقع مسؤولية حل قضايا النزاع الصغيرة والشجار بين الزوج وزوجته ونزاعات ملكية الجمل أو الشاة ، وعليه يقع عبء توجيه العمل السياسي للقبيلة وتوقيع الرسائل التي تكتب باسم القبيلة ، ويقوم بنسخها كاتب عام غالبا ما يكون من أبناء المدينة ، وعليه أن يستقبل الغرباء ، وفوق كل هذا عليه أن يبقى بيته مفتوحا أمام قومه في كل وقت •

والشيخ يدعى لوقف الشجار بموجب سلطته التي تسمح له بتوبيخ معكري صفو الامن • ومن مهامه الاساسية قيادة القبيلة من مكان الى آخر محددا مكان خيمته الخاصة التي تتوزع حولها خيام القبيلة •

تخصص للشيخ بعض الخصوصيات الاضافية من الغنائم الحربية لأن بيته يعتبر مكان التشريف العام الذي تعقد فيه الاجتماعات ومجالس الحرب، ومع ذلك هو لا يستطيع فرض ابة ضريبة بسوجب سلطته؛ ولا أن يقرر أيـة قضية ذات اهتمام كبير، كما أنه مجرد من الحرس أو الشرطة لكي يفرض سلطته. وكثيرا ما يطاع في الامور التافهة لأن الرأي العام الى جانبه، أما في غير ذلك فالبدو لا يعيرونه اهتماما كبيرا، ومع ذلك نجد احترام الشيخ ظاهرة ملموسة لدى معظم القبائل لأنهم هم الذين قاموا باختياره. فالرجال ينهضون وقوفا له عندما يدخل الى خيامهم؛ ويظهرون له نوعا من الاجـلال المألوف بسبب سيره على نهج آبائه. وقلما يسيء الشيخ استخدام هذا المنصب. وأجواء السلطة المطلقة لا يعرفها البدو، ويعتبر شيوخهم هذا الامر ممروعا منه. لا يعتبر البدو التظاهر باللباس الحسن أو التباهي بالسلاح من صفات الذين تربوا تربية حسنة أو من صفات ذوي الاصل النبيل. والشخص الوحيـد الذي شاهدناه يتظاهر بذلك هو تركي بن جدعان بن مهيد الذي كان يلبس قميصا مدرعـا.

يمكن تمييز شيوخ القبيلة من السيف الذي يحملونه، أو من سلاح دمشقي قديم يوضع في غمد مهلهل غالبا ما يكون الشيخ قد ورثه من أسلافه القدماء. ولكن السمو الحقيقي الوحيد الذي يظهرونه هو في أخلاقهم العالية وفي التربية الحسنة والاصل النبيل، ولا تتوفر غالبا الا في البادية. وهناك عائلات معينة تحترم الى درجة التعصب. وعندما تجد فردا منها بمكانـة كبيرة فسوف يكون نفوذه كبيرا؛ وعندها سيمتلك قوة معنوية حقيقية. ونذكر ان هذه الرتبة كانت لعبد الكريم وسليمان بن مرشد وفيصل ابـن شعلان الا أنه في وقتنا الحاضر لا تجد من يصل الى مراتبهم.

ومن حيث المبدأ يعتبر كل أفراد القبيلة في درجة واحدة من التساوي. فأفقر راع يتكلم مع شيخه كما لو كان يتكلم الى قريبه. وقد يناديه باسمه الاول فقط. ويبدو أن هذه المساواة قد هذبتها التغيرات الكبيرة لموالدهم. والثروة نفسها ليس لها تأثير كبير في كسب إحترام الاخرين، ولكن النبـل

والتحدر من سلالة الابطال المشهورين أو من العائلات ذات التربية الحسنة والمتوارثة كلها يمكن أن تؤخذ بعين الاعتبار ، ولهذا فالعنزي أو الشمري هو أسمى من الجبوري أو من بدو الحديديين ، وابن جندال وابن الحميدي هما أسمى من العنزي العادي ، وابن مزيد ــ شيخ الحسنة ــ على الرغم من كونه فقيرا فله الخيار دون شيوخ البادية باختيار أصهاره ، ويمكنه أن يطلب مهرا لبناته مقداره خمسون جملا •

وفيما يلي سجل للعائلات المحترمة في البادية تسلسل حسب مرتبتها :

ــ ابن مزيد شيخ الحسنة •
ــ ابن جندل شيخ(١) الرولة •
ــ ابن الطيار شيخ الرولة •
ــ ابن الحميدي شيخ الهذال •
ــ ابن سمير شيخ ولد علي •

ويروى أن هذه العائلات الخمس كانت تذبح الشياه للضيوف طوال الوقت • ويلي هؤلاء :

ــ ابن صفوق من الجربا •
ــ شيوخ قبيلة طي •
ــ ابن هديب شيخ الموايجة •
ــ روس المهيد •
ــ ابن مرشد شيخ القمصة •
ــ شيخ الموالي

بالاضافة الى آخرين لا يتسع المجال لذكرهم • أما ابن شعلان شيخ الرولة الحالي وجدعان بن مهيد فيمكن اعتبارهما من الشيوخ الحديثي العهد بالنعمة. وتلك ما هي إلا بعض الفروق الاجتماعية • أما من الناحية السياسية وأمام القانون فكل الافراد متساوون سواء أكانوا من الاصل النبيل أم من غير النبيل

---

(١) ابن جندل من السوالمة ، وابن الطيار من ولد علي وليس من الرولة .

وفقراء كانوا أم أغنياء ، وتستثنى من ذلك بعض الاسر التي سمح لها أن تحصل على بعض الامتيازات في توزيع غنائم الحرب • وعندما تنتقل من القاعدة الى القمة في القبيلة نجد أن السيادة تملكها كل القبيلة ، وكل قبيلة في الواقع تعتبر بمثابة أمة منفصلة لها حقوق اقرار السلم أو اعلان الحرب ولها استقلالها السياسي الكامل ، فالرولة وحدها على سبيل المثال تملك القوة الكافية لأن تكون وحدها في الميدان ، وكذلك شمر الا أن معظم القبائل تجتمع بموجب روابط الدم القديمة لتشكل وحدة متكاملة حتى تتمكن من حماية نفسها مشتركة ، ولهذا نجد السبعة يتألفون من سبع قبائل مستقلة ، وكل قبيلة لها شيخ خاص وترتبط مع البقية بروابط الدم ، وكل واحدة تكون على قدم المساواة مع القبيلة المجاورة • وهم لا يعترفون بسلطة مدنية عامة الا أنهم ساروا مع بعض منذ زمن غير محدد ، وفي زمن الحرب يقاتلون تحت قيادة موحدة • والشيء ذاته ينطبق على عشائر الفدعان الاربع ، بينما لا تزال تربط بين هذه القبائل بما فيها الرولة أواصر القربى العامة التي تجمعهم في قبيلة العنزة الكبيرة • ولم يمض وقت كبير على بقاء العنزة موحدة وتقاتل تحت راية واحدة •

تتفرع قبيلة شمر الى عشرين فرعا مختلفا ، ويرأس كل فرع شيخ ، الا أنهم يعترفون بشيخ عام هو ابن صفوق من آل الجربا ، كما يعترف الجلاس من الرولة بابن شعلان شيخا أعلى لهم •

في زمن الحرب تبقى سلطة الشيخ في مجال القضايا المدنيه ، أما في المجال العسكري فيحل محله قائد عسكري تختاره القبيلة نتيجة لمؤهلاته القتالية . فيصبح قائدهم الذي يأمر الجميع فيطيعونه كلهم بما فيهم شيخ القبيلة ،ويدعى هذا الضابط بالعقيد ، ويعهد اليه بكل العمليات والخطط العسكرية وقيادة الغزوات والحملات والانسحابات ، وربما يكون الشيخ نفسه هو القائد ، ولكن القاعدة لا تكون عامة • فسطام بن شعلان هو ليس العقيد على الرغم من أنه شيخ أقوى قبيلة في البادية • والسبعة في هذه الايام يفتقرون الى رجل

تتمثل فيه الموهبة العسكرية ، ولهذا أجبرو على القبول بجدعان قائدا لهم على الرغم من أنه دخيل على القبيلة •

ان الحروب تعتبر من الامور الاعتيادية بين القبائل • والعقيد هو الرجل الهام بينهم وعليه يتوقف ارتفاع شأن القبيلة ، ولهذا فهو يعامل باجلال كبير•• وبعد كل هذا أرى من الضروري أن أقدم تمهيداً عن أسباب وسير العمليات العسكرية في البادية •

ان الحروب البدوية لا تصل الى المراحل الدموية المهلكة ، ولا تصل الى مرحلة اللاعودة على الرغم من أن السلام قد لا يعقد الا بعد عدة سنين من الحرب • وعلى كل حال يعتبر العنزة وشمر نفسيهما العدوين الطبيعيين اللذين لا وجود لسلام مفترض ممكن بينهما • وقد تكون هناك فترات من الهدنة . ولكنها لا تدوم مطلقا غير أن هبوط روح المغامرة عند أحد الفريقين قد يبقي الهدنة قائمة ، ولكن ذلك لا يمنع من حصول غزوات وقيام مجموعات السلب والنهب بدورها عبر حدود الهدنة ، وفي بعض الاحيان قد يتوصل الشيوخ افراديا الى شروط من الهدنة أو التحالف ، حيث وصلتني بعض الاخبار في هذا الصيف تفيد بأن فارسا شيخ شمر الشمال ـ الذي يتعرض لضغوط من أخيه ـ قد عقد حلفا مع جدعان عقيد السبعة • واذا صحت الاخبار فستكون هذه سابقة لا مثيل لها في البادية •

نقوم حرب عابرة أو مؤقتة بين بطون العنزة المختلفة . وأسباب هذه الحروب تبدأ عادة بتحريض من الاتراك الذين يرفعون شعار « فرق تسد » والذي هو شعارهم العملي في رسم سياستهم في البادية ومن السهولة اثارة الشجار بسبب المراعي • فالقبيلة التي تزدهر وتزداد غنى بقطعان الماشية تبدأ تحس في ضيق من تحقيق السلام ، فباشا دمشق أو حمص عندما يسمع بهذا يرسل رسالة مؤدبة الى الشيخ يدعوه لمقابلته في دار الحكومة ، وهناك يتلقى رداء الشرف والمجاملات اللطيفة ، فيذهل الشيخ ـ كما هي الحال مع كل البدو ـ لقوة وثروة الحياة المستقرة ، ثم يسأله الباشا بعدها عن أخبار القبيلة

ويواسيه عن نقص المراعي مقترحا عليه أن يذهب الى سهول ومراع أكثر خصبا تشغلها قبيلة أخرى ، ولكنها تكفي القبيلتين ، عندها يُسر الشيخ وينبع كبرياءه بفكرة حماية الحكومة له التي وعده الباشا بها مباشرة ، ويعود الشيخ محملا بالهدايا الى مضارب قومه ليخبرهم بأنه أصبح صديقا حميما للوالي .

يقبل القوم بفكرة غزو المراعي الجديدة ويرسلون الشيخ مرة ثانية الى الوالي ولكن يصطحب معه هذه المرة فرسا أصيلة وبعض الجمال العربيه لتوضع في خدمة الباشا . وفي الحال تجري صفقة بين الاتراك والبدوي يُدفع بموجبها مقدار معين من المال ليعلن الباشا أن المراعي المذكورة أصبحت تخص الشيخ فيغزو القبيلة الاخرى ، وتكون الحرب هي النتيجة النهائية لهذه اللعبة . يقتل بعض الرجال في الحرب من كلا الطرفين وتؤسر بعض الخيول . عندها ينصل الباشا من كل وعوده ليترك صديقه الشيخ بخوض الحرب بمفرده .. ان هذه القصة تعبر عن أسباب نصف حروب البدو في هذا القرن . وهناك قصص أخرى كثيرة عن الحروب في البادية ، وكأن التاريخ يعيد نفسه فيها من جديد وبسرعة . ومع ذلك فالحرب ليست كارثة رهيبة كما هي الحال بين الامم المتمدنة التي تقوم حروبها على القتل والحرق والتدمير الشامل حتى يستسلم العدو ، بينما تكون القاعدة في البادية ألطف منها . فالهدف هو ملكية العدو وليس العدو نفسه ، وفي القتال لا يتمنى المتقاتلون الخراب الشامل بل تقتصر العقوبة القصوى للاندحار على خسارة قطعان المواشي والخيام والاثاث والخيول .. ان حروب البدو لا تتجاوز هذه الحدود ، ويكون العدو مقدسا ومحميا عندما يكون أعزل من السلاح ، أو عندما يكون راجلا ، كما أن الاسرى لا يستعبدون ولا يطلب عنهم من الفدية غير الخيول . ومن النادر أن تجد العداء الشخصي في كلا الطرفين ، أوأن تجد الدم يراق دون مبرر وفي غمار المعركة يتبادل الشباب المتحمس طعنات الرماح ، ولن يقتل أي شخص الا عن طريق المصادفة . وفي الواقع يعتبر من الاعمال الفظيعة أن تقتل رجلا بدون حق ، لأن هدف القتال قد تحقق بجعل العدو يترجل عن فرسه ليداوي جروحه . تبدأ المعركة البدوية كما في أيام البطولة بسلسلة من القتال الفردي

حيث يهرب فيه الضعيف ويلاحقه القوي ، ثم تتحول العملية الى مراوغة وكر وفر تتحكم بنتائجها مرونة وسرعة الخيول ، وربما تقود المطاردة المتقاتلين بعيدا عن ساحة المعركة ، فتبدأ قوة الهارب بالتلاشي فيستسلم ملقيا بنفسه على الارض ويصيح : « دخيل » أي أنا أستسلم ! بعدها يقوم المنتصر فيضع عقاله في عنق المستسلم ليصبح بعدها أسيره . والعقال هو حبل من شعر الجمل يلبسه البدوي ، ولكنه في الحرب يدليه على كتفه لأن البدو يتحاربون ، وهم حاسرو الرؤوس .

تصبح فرس الاسير وسلاحه ملكا للمنتصر حتى عندما يتم اطلاق سراحه فيما بعد ، والاسير لا يمكنه المشاركة بعدها في القتال . واذا ما أسرت فرسه عند استسلامه فسوف يترك ليأخذ طريقه بسلام راجعا الى أهله مشيا على الاقدام . ولكن اذا هربت الفرس وأنقذها قوم الاسير عندها يجب على الاسير أن يرافق آسره الى خيمته حيث تتم استضافته بشكل جيد ، الا أنه سيبقى رهينة حتى تسلم الفرس عوضا عنه ، ثم يسمح له بعدها بالمغادرة .

علينا أن نتساءل لماذا لا تستهدف الحياة وحدها في الحرب ؟ والجواب علينا أن نبحث عنه في طبيعة الاسلحة المستخدمة . فالاسلحة النارية لا تستخدم في الحرب كما أن تبعة ادعاء الاضرار في نهاية الحرب له ثقله في الموضوع . فالقبيلة التي تتسبب في قتل خمسين روحا يتوجب عليها دفع دية ثقيلة في نهاية الحرب . والخيول الأسيرة قد تستعاد أحياناً في شروط السلام المعقود بين القبيلتين ، الا أن هذه من الناحية العملية غير واردة لأن الذين غنموا الخيول يتلهفون لبيعها أو مبادلتها مع قبائل غير متورطة في الحرب ، عندها يتجنبون احتمال مثل هذه الاستعادة ، وعندما تعود المياه الى مجاريها وتدفع دية الرجال من الابل وأعتقد أنها تقدر خمسين جملا عن كل قتيل ، كما هو الحال في القتل العمد والقاتل ذاته غير معني بدفع المبلغ لأنه يفرض على القبيلة كلها . والموت في الحرب لا يسبب ضغينة بين عائلة المقتول والقاتل ، أما لو قتل شخص في الحرب من قبل آخر كان يطلبه ثأرا فان في موته نهاية حتمية للشجار .

ان هذا القانون الانساني في الحرب تظهر فيه بعض الثغرات لأن حياة شيخ القبيلة تستهدف دون أن يلفظ كلمة « دخيل » التي قد لا تقبل ، ولهذا فان مدبغ بن مرشد قتله جماعة من الرولة الذين قابلوه بقوة كبيرة في حالة حرب بين السبعة والرولة ، وعندما هرب بفرسه الجيدة سقط بعد أن تعثرت في حفرة يربوع • وعلى الرغم من ترجله وتركه للسلاح فقد انقضوا عليه وقتلوه • الا أن هذا المثال يعتبر من الامثلة غير العادية لأن السبعة كانت مشغولة بموت زعيمها ، وحملوا الفرس مسؤولية سقوطه واللحاق به • وفي هذه الحالة بقيت الضغينة قائمة بين ابن مرشد وابن شعلان لأن موت مدبغ اعتبر غير نظامي ، ولهذا قام صديقنا مشهور منذ بضعة أشهر بقتل خمسة فرسان من الرولة ثأرا لدم والده •

ان حياة الشيخ لا يمكن اعتبارها أكثر من حياة شخص عادي ، أما في هذه الحالة فقد طولب بخمسة أشخاص من الرولة لأن الذين قتلوه كانوا خمسة •

ان حكايات سفك الدم التي رواها « بالغريف » وآخرون في مذكراتهم قد تكون صحيحة عند القبائل الاخرى التي زاروها ، الا أنها غير صحيحة بين شمر والعنزة حتى أن التقرير الذي وصف أسرى يُقتلون في مخيم الرولة تبين لنا فيما بعد أنه لا أساس له من الصحة ، وقد أنكر صدق الحادث كل من عرف البدو وعاش بينهم •

* * *

الفصــل الثامن والعشرون (١)

ملحــق

مشروع سكة حديد وادي الفرات ـ النقل النهري ـ الادارة التركية ـ نجاحها الجزئي ـ الفشل ـ تطلعات نحو المستقبل .

اقترح علي أن أقول كلمات تتعلق بمستقبل البلاد التي زرناها أو التي ذكرت في هذا الكتاب ، وعلى الاخص فيما يتعلق بحصولنا على طريق بري نحو الهند ومشروع الخط الحديدي المقترح بناؤه بين البحر الابيض المتوسط والخليج العربي . فليس من المستغرب أن يقوم خط حديدي في البادية ، وكل شيء يمكن حدوثه في أيام الانتصارات الهندسية الرائعة في وقتنا الحاضر .

ولكن هناك مجموعة من التحديات التي تواجه خطة التنفيذ والتي أخذت تواجه البناء ذاته وان لم يكن في البناء والتشييد فهي في كيفية العمل في مثل هذا الطريق . ويبدو أن الآمال في تحقيق المكاسب المالية من وراء هذا المشروع تعتبر الآن ضربا من الوهم والخيال فاما أن يقام الخط في سهل النهر ، واما أن يقام فوق الهضبة المطلة على النهر . وفي الحالة الاولى سوف يتعرض الخط لخطر الفيضان واحتمال تغيرات المجرى المستمرة في النهر ، بينما يتطلب الامر في الحالة الثانية شق الاقنية ومد الجسور لأن هناك شبكة من المسيلات والوديان التي تقطع البادية متجهة نحو النهر ، يضاف الى ذلك كله معدلات ارتفاع سهل النهر في بضع مئات من الاقدام فوق سرير النهر نفسه ، وقد لا يثبت الماء في مستوى واحد دوما ، والتلال الوعرة التي يجب شق الطرق من خلالها ، وهذا يتطلب جهودا مكثفة لشق طريق عبر البادية .

---

(١) موضوع الخيل الذي وضعه ولفرد في هذا الفصل سينشر في بحث مستقل ان شاء الله .

ومن الملاحظ أن المنطقة الواقعة بين « دمشق » وعنة تمتلك مجموعة من الاحواض المائية السطحية ، يجري فيها الماء العذب ولكنها تعتمد في تغذيتها على أمطار الخريف علما أن المطر لا يهطل بشكل منتظم ، ولهذا فقد تجف تلك الاحواض صيفا بشكل كامل • غير أن العقبة الاكثر خطورة ستكون في كيفية استخدام الخط بالنسبة لأشهر السنة ، فباستثناء الاشهر المعتدلة الحرارة لا أعتقد بأن كثيرا من المسافرين يفضلون ركوب القطار في رحلة تطول آلاف الاميال تحت حرارة الشمس المحرقة في الحماد ، ما بين شهري أيار وتشرين الاول كل عام • ان الحد الاعلى لدرجة الحرارة اليومية في أبرد البيوت في بغداد خلال شهر حزيران هو « ١٠٧° » ، بينما قد يرتفع الميزان⁽¹⁾ هناك الى «١٢٠° ــ ١٢٢°» وستكون الحرارة في البادية أشد من ذلك بكثير،وما لم نقام محطات استراحة تأوي المسافرين في ساعات الحر الشديد فسوف يكون السفر على ذلك الخط شبه مستحيل على الاوربيين ، وبطبيعة الحال ستحتاج هذه المحطات الى الحراسة والحماية لأنه من غير المحتمل أن يحترم العنزة حرمة هذه المحطات •

أما من الناحية التجارية فسوف نأخذ بعين الاعتبار وفرة البضائع التي تنقل في فصل الشتاء في وقت لا تتوفر فيه المواصلات المحلية ، غير أن قرويي الفرات هم فقراء جدا ولن يتمكنوا من دفع الحد الادنى من الاثمان التي تطلبها منهم قيادة السكة ، بينما قوافلهم التجارية على ظهور الابل ستكون أرخص لهم بكثير مما يترتب عليهم دفعه الى سكة الحديد ، والوقت بالنسبة لهم لا قيمة له مطلقا •

ان شعبية نهر الفرات ضعيفة الى أدنى حد في هذه الايام ، كما أن الكثافة السكانية قليلة على هذا الطريق • فمن المفترض أن هناك خمسين ألف نسمة بين بغداد وحاب واذا كان العدد الحقيقي أكبر مما افترضه فسيكون خمسهم على

---

(١) لم تذكر الليدي اسم الميزان الحراري ، ولكن الارقام العالية هذه لا بد ان تكون لمقياس فهرنهايت •

الاقل يتمركز في السهل المنخفض جنوب مدينة « عنة » وعلى الرغم من أن المسافة بين«عنة» وحلب تقدر بثلاثمائة ميل فلن تجد قرية واحدة جديرة بالاهمية على هذا الطريق ، ومن المحتمل أن لا يزيد عدد السكان المدون هناك أكثر من عشرة آلاف نسمة .

ومن الجدير بالذكر أن الخط الحديدي النافع سيكون مجديا اذا ماشيد قرب طريق القوافل القديم بين أورفه والموصل ، لأنه سوف يمر في منطقة زراعية وفي ضواحي المدن الكبرى . ولكنني لن أتوقع تحقيق النجاحات على الصعيد المالي في مثل هذه الظروف لأن السنوات الاولى من عمر الخط الحديدي ستكون عديمة الفائدة بالنسبة لبقايا الشعب الاشوري وللمساحات الكبيرة من التربة غير المحروثة والتي هي في متناول اليد بين حلب والبحر . ومن الصعوبة على المهاجرين اختيار أدغال شجر الطرفاء على دجلة والفرات كمكان لائق لمستعمراتهم الجديدة ، لأن أرض الطمي على ضفاف الواديين تكون محدودة جدا لاتفي بمتطلبات الاستثمار بشكل كاف .

ولم أجد ميزة حسنة لاقامة مثل هذا المشروع سوى عودة الخصب الى السهل البابلي جنوب بغداد ، لأنه كان في الماضي من السهول الخصبة في العالم، الا أنه من غير المعقول أن يعاد ازدهاره مثلما كان بدون النفقات الهائلة لترميم وبناء أقنية الصرف البابلية . وبدون شبكات الري لا يمكن للمنطقة أن تنمو من جديد، وبطبيعة الحال ستكون الكلفة المالية باهظة حتى لأغنى بلد في العالم.

ان الخطة الوحيدة لتحسين الاتصالات بين البحر الابيض المتوسط والخليج العربي أراها ناجعة بانشاء خط للقوارب البخارية يمخر عباب نهر الفرات فيما لو خطط لها بشكل صحيح ، وسوف تعطي ثمارها ، وربما ريعها سيغطي التكاليف المصروفة .

وعلى مدار العام يصلح نهر الفرات لملاحة القوارب في غاطس ثمانية عشر انشا . وقوارب مدحت باشا أخفقت في مواصلة سفرها في النهر لأنها كانت كبيرة جدا .

ان خط القوارب البخارية الذي اقترحه سيلبي الحاجات المحلية بشكل كاف ويستطيع أن يبحر بمعدل أسعار زهيدة جدا اذا ما قيست بمتطلبات الخط الحديدي • يضاف الى ذلك كون القوارب في مأمن من خطر تدخل البدو ؛ وسوف يكون وقود آلاتها البخارية من حطب الطرفاء المتوفر على نهر الفرات • وان خطة كهذه ستكون على أية حال ذات فائدة محدودة بالنسبة للهند •

ان انشاء شبكة النقل المائية أصلح مساوىء الاتراك ونظام حكمهم الحالي في هذه المنطقة ومن المحتمل أن تتطور البلاد بشكل طبيعي على الرغم من أنه لن يتم ذلك سريعا أو في الغد المنظور • انني لا أتعاطف مع الاتراك في جزيرة العرب ، وأقل ما يمكن قوله في نظام ادارتهم : انه فاسد كليا ، ولكن لا أعتقد أن نظرية حكمهم لتلك الديار سيئة ، وهي التي تقوم على حماية القبائل الامنة وكبح جماح الحروب وتشجيع كل الذين يرغبون بزراعة الارض وجعل الطرق العامة آمنة واحتلال الريف عسكريا وعقد التحالف مع زعماء البدو وتقديم الاغراءات لهم للعمل في مهمة « البوليس » في البادية • ومثل هذه الافكار لن يأتي الاوربيون بأفضل منها • ونقطة الخلاف تكمن في الممارسات التي يفشل الاتراك بسببها في تحقيق أهدافهم • وأخاف حاليا من الاخطاء التي لا تقبل العلاج •• الا أنهم لم يفشلوا كلية حتى الآن •

أما من الناحية العسكرية فكم تبجح الباشوات ببعض الحقائق والنتائج التي تم انجازها في هذا المجال بالمقارنة مع السنين الماضية ، الا أن البلد لم يحقق خطوات حثيثة باتجاه المدنية والحضارة المعاصرة ، غير ان قوة قبائل البدو قد أضعفت بشكل كبير خلال تلك الفترة وان لم تحطم تماما ، ومن المنتظر ــ اذا ما تحقق نفس المقدار من التقدم ــ في العشرين سنة أن يختفي العنزة من البادية السورية العليا ، وقد تستجيب قبيلة شمر لظروف الحياة المستقرة في بلاد مابين النهرين ، في وقت يتم فيه زرع وادي الفرات اللحقي بشكل كامل ، وقد يضعف ماء النهر في المستقبل ، وقد يجف في أشهر الصيف! •

ان البدو الحقيقيين يجب أن يعودوا الى نجد من حيث أتوا . وان لم يفعلوا فعليهم أن يهجروا حياتهم المستقلة في البادية .

ان هذه التفاؤلات التركية لها ما يبررها اذا ما ساروا في طريق تحقيقها بدقة . الا أنني لا أؤمن في استمرارية التجديد في تركية ولا حتى بالمحافظة على القوة العسكرية لوقت غير محدود من الزمن . وخطيئة النظام التركي الاولية ــ كما شاهدتها في البادية ــ هي الخطيئة ذاتها التي تؤثر في مجريات الامور في كامل الامبراطورية . والضربة القاضية تكمن في أن الاوزة التي تبيض البيض الذهبي تقتل كل يوم في تركيا ، أو أنها تسرق دون رحمة ، وقد تنهب لادخار بيضتها الاخيرة وعلى سبيل المثال : قبائل الرعاة الامنة المستقرة ــ على الرغم من أنها محمية من غارات العنزة وشمر ــ تسلب من قبل الحكومة ولم يطرأ عليها أي تغيير سوى تغير السيادة غير المحترمة . فالولدة قبيلة غنية منذ عشرين سنة عندما كانت في حلف العنزة ، غير أنها اليوم في فقر مدقع بسبب ابتزاز الباشوات في حلب . والجبور على نهر دجلة كانوا من الرعاة المجدين . ويبدو أن حياتهم وظروف عيشهم تغيرت عما كانت عليه عندما عاش بينهم ليارد عام ١٨٤٥ م .

ان البدو الوحيدين الذين يملكون القوة تحت الحكم التركي هم الحديديون لأنهم على احتكاك دائم بسكان المدن ، ومن المحتمل أنهم في احترام بمنأى عن غارات السلب العام والغزو المتواصل ، ومن الصعب والمدهش أن تظن بأن ذلك هو وراء حالتهم الجيدة بالنسبة للقبائل الفقيرة من حولهم .

ان أكبر القبائل المالكة للابل تكون في ترحال دائم وغالبا ما تكون بعيدة عن متناول يد الحكومة . وقد رفضت كل العروض لتهجر حياة البداوة وتقبل بالاستقرار والزراعة . ان القوة العدوانية عند البدو قد تقلصت كثيرا بسبب اقامة المواقع العسكرية على جانبي النهر ، وبسبب توفر الاسلحة النارية الدقيقة بين أيدي الجنود الاتراك ، يضاف الى ذلك قطع الدعم والامداد الذي كانوا يتلقونه من البادية مصدر ثروتهم القديم . ولكن لم يؤثر فيهم ذلك حتى الآن .

ان العنزة وشمر ما زالوا في استقلال مطلق عن السلطات ، كما كانوا عليه في الايام الاولى من وصولهم الى البادية ، وبقيت شخصيتهم القديمة ونمط حياتهم بدون تغيير يذكر .

انني أتصور بأنه سيأتي اليوم الذي تنفد فيه كنوز القسطنطينية ، لأن طرق الامداد العسكري وخط سكة الحديد المقترح على طول الفرات وطريق النقل النهري بالقوارب البخارية ستهجر كلها عندما يستبدل البدو رماحهم بالاسلحة النارية الحديثة ، وستتمكن قبائل البدو من احكام قبضتها على الوادي من جديد وبقوة هائلة .

وسوف لن تندم قبائل الرعاة وسكان القرى بعودتهم الى الحياة المستقرة من جديد وسيكونون كما كان أسلافهم في المنطقة منذ مئات السنين ... عندها سيكون تعاطفي معهم وليس مع التقدم الحضاري . ومن أجل مصلحتهم سأهتف : يحيا السلطان ولكن هل تظهر قوة أخرى في البادية ؟ لا أدري ؟

* * *

الفهرس

رقم الصفحة	الموضوع
٥	**مقدمة الترجمة**
١٥	**الاهداء**
١٧	**تقديم**
٢٣	**الفصل الاول** اهداف الرحلة ــ زيارة الجمعية الجغرافية الملكية ــ سرنا باتجاه حلب ــ الرحلة عبر اسكندرون ــ قصة التاجر المتجول عن الفرات ــ حبة حلب ــ حططنا الرحال في آسيا .
٢٩	**الفصل الثاني** ميناء اسكندرون ــ بقايا شركة الشرق ــ تاجر بغال ينقلنا الى حلب ــ جياد البونى في بيلان ــ عبرنا بوابات سورية ــ مقتل تاجر البغال ــ الجنود الاتراك ــ لهو على العاصي ــ ليلة في خان ــ عواصف ثلجية ــ حصان ميت ــ قرية طوقان ــ اليوم الاخير من بؤس الشتاء ــ الوصول الى حلب .
٤١	**الفصل الثالث** في مضافة كريم ــ حكايات السيد الاقطاعي ــ قصة جدعان مع الباشا ووفائه لصديقه احمد ــ العنزة في نجعتهم ــ التفكير بزيارة البدو ــ سيد احمد واليهود ــ الشحاذ الوقح لايعرف الاستسلام.
٥٥	**الفصل الرابع** قلعة حلب ــ سجون حلب ــ العدالة الغريبة ــ كرو الكردي ــ نصف كروان للقاتل وغضب الراي العام .
٦٣	**الفصل الخامس** اشترينا الخيل لأننا قررنا اللحاق بالعنزة ــ هاجر ــ اخبار الصحراء ــ شائعات الحرب ــ جدعان في موقف حرج ــ اختلاط الامور في الصحراء ــ فصل في السياسة .
٧٥	**الفصل السادس** غادرنا حلب ــ تجوال في الظلام ــ قرية عربية ــ الصحراء ــ نحن والفرات ــ الدرك او الضابطية ــ منفى كئيب وطبق من الدراج ــ عسكرنا في العراء قرب النهر .
٨٩	**الفصل السابع** أسود منطقة الفرات ــ صيادو العفادلة ــ البدوي برهوم ــ قائمقام الرقة ــ الحمار البري ــ لهو في غابة الطرفاء ــ الحصان المدهش ــ وصولنا الى الدير .

رقم الصفحة الموضوع

١٠٣ **الفصل الثامن**
حسين باشا وسلطته الموروثة ـ سياسة العثمانيين في الصحراء فرق تسد ـ وضعنا تحت المراقبة ومنعنا بلباقة من زيارة العنزة ـ الدير افضل سوق للخيول العربية الاصيلة ـ المعلومات الاولية عن شمر وعن بطلهم عبد الكريم ومغامراته وموته ـ الدير في خطر ـ الدركي الخائن ـ سقطت في البئر وانقذت ـ رحلنا الى بغداد .

١٢٣ **الفصل التاسع**
انطلاقة سعيدة ـ انضممنا الى قافلة بغداد ـ ابن الحصان ـ سيدات من الاتراك في الرحلة ـ كيف تقيد الحصان الحرون ـ الصالحية ـ مخيم العقيل ـ مدير البوكمال ـ الذئاب في الليل ـ الخنازير البرية ـ سجل اداء عريف الملاحين ـ بستان النخيل ـ وصلنا الى عنة .

١٣٧ **الفصل العاشر**
غزوة بدوية ـ تحدثنا الى شبح ـ وعد زينل اغا ـ التصميم على الرحيل ـ القائمقام يرافقنا ـ سطم يضيفنا ـ وجبة بدوية ـ اخبار من الوطن .

١٦٣ **الفصل الحادي عشر**
بغداد الحديثة في منطقة متواضعة ـ اسباب زوال مجدها ـ الطاعون ـ مدحت باشا يهدم اسوارها ـ وجهة نظر الدكتور كولفيل بالبدو ـ امير هندي ـ ثروة عاكف باشا ـ جواده الفحل ـ اشترينا الحمير والجمال للهروب من بغداد .

١٨٣ **الفصل الثاني عشر**
ملك اود في بيته الريفي ـ أيدينا حملت بالهدايا ـ بادية الجزيرة العراقية ـ متع الحرية ـ عبورنا للبادية ـ انذارات كاذبة ـ اصطياد الذئب ـ وصولنا الى شمر .

٢١٥ **الفصل الثالث عشر**
مقر فرحان في الترقاط ـ ابناؤه وزوجاته ـ تصرفنا بدبلوماسية ـ بدانا في عبور الجزيرة ـ اسماعيل على حصان من لحم ودم ـ سمير كان في استقبالنا ـ وصفه لنجد وحكامها وخيولها .

٢٣٣ **الفصل الرابع عشر**
مدينة الحضر ـ المتاعب التي عانيناها في الاثار ـ سمير يضعنا على الطريق ـ طوينا بيتنا وانطلقنا نحو الغرب ـ مشاجرة مع اسماعيل فيتركنا ـ بحيرات الملح ـ في مخاضة عبر الطين ـ الرجل العجوز السخيف ـ وأخيرا مع فارس .

رقم الصفحة الموضوع

٢٥٥ **الفصل الخامس عشر**

زعيم من البادية وامه الخاتون عمشة ـ الاولاد المؤدبون ـ طلال ـ فارس في رحلة صيد ـ يعبر النهر سباحة ـ قسم الاخاء ـ رشيد ابن علي وشيخ السموكا ـ اليزيدية ـ طوف في الخابور ـ ابل تسبح ـ وداعا لفارس ـ عدو على فرس في الدير .

٢٨٣ **الفصل السادس عشر**

نواجه المصاعب مع صاحب الموت الشريف ـ يظن بنا من الجواسيس ـ قادرلي باشا ـ مبادؤه السامية ـ تركيا بلاد الحرية ـ وعدنا بدوي من المهيد لياخذنا الى جدعان .

٢٩٥ **الفصل السابع عشر**

في الصحراء ثانية ـ المرشد يخذلنا ـ محمد الطالب ـ نجمع الكما ـ يُلقى القبض علينا ـ في الطريق الى تدمر ـ صيد الثعالب ـ زيارة الى لصوص العمور ـ الوصول الى تدمر .

٣١٥ **الفصل الثامن عشر**

السياسة في البادية ـ الصراع الدامي ـ علي بك الشركسي ـ مؤامرات وخطط مضادة ـ لقاء في المخيم ـ المدير يوبخ من أجل واجباته ـ اخبار عن العنزة .

٣٢٨ **الفصل التاسع عشر**

الخدعة الغريبة والخيارات الاربعة ـ اربعون دقيقة سريعة حاسمة ـ وصل القنصل أخيرا ـ في طريقنا الى الحماد ـ أغنية قبرة البادية ـ غزو حقيقي ـ نبحث عن العنزة ـ جبل الغراب ـ نكتشف الخيام ـ جدعان يتزوج للمرة الخامسة عشرة لكنه غير سعيد ـ نبل البوادي ـ جدول حول سلالات الخيول ـ نكلف بمهمة الى الرولة .

٣٥٥ **الفصل العشرون**

فرحان ابن هديب ـ القمصة وخيولهم ـ محمد الدوخي ـ دعوى قضائية في الصحراء ـ قبيلة من صيادي الغزال ـ فرس بطين ـ الرولة تهاجم السبعة ـ رعب يتلوه انسحاب ـ مشهور بن مرشد أخونا الجديد ـ شح الماء ـ نغادر مخيم العنزة ونضطر للمسير الى بئر سكر .

رقم الصفحة	الموضوع
٣٧٩	**الفصل الحادي والعشرين** السير تحت الشمس المحرقة ـ ولد علي وأغنامهم ـ وصلنا الى مخيم الرولة ـ مائة وخمسون ألف جمل ـ سطام ابن شعلان في استقبالنا ـ مقابلات دبلوماسية ـ زوجة سطام ـ العطفة ـ اختبار لمحمد ـ وداعا أيتها البادية .
٣٩٥	**الفصل الثاني والعشرون** كلمات اخيرة ـ دفاع عن الجمل ـ سطام في المدينة ـ وداعا ـ جماعة الياهو .
٤٠١	**الفصل الثالث والعشرون** جغرافية شمال الجزيرة العربية ـ معالم البادية الطبيعية ـ هجره القبائل ـ وادي الفرات ـ القرى في البادية ـ بعض الاشارات لواضعي الخرائط .
٤١١	**الفصل الرابع والعشرون** تاريخ البادية ـ غزوات العنزة وشمر ـ انهيار الحضارة في وادي الفرات ـ اعادة فتحها من قبل الاتراك ـ مكانتهم الحالية في الجزيرة العربية ـ سجل القبائل البدوية ـ بحث عن السبعة .
٤٣١	**الفصل الخامس والعشرون** السمات الطيبة للبدو الاعراب ـ قصيرو الاعمار ـ افكارهم الخاطئة ـ انسانيتهم ـ احترامهم للقانون ـ يتخلفون عن غيرهم في مجال الصدق والاعتراف بالجميل ـ حبهم الطفولي للمال ـ كرم الضيافة ـ نساء البدو .
٤٤٢	**الفصل السادس والعشرون** ديانة البدو لاتتعدى حدود الايمان ـ لايقيمون الشعائر والاحتفالات ـ الايمان والقسم ـ ايمانهم غير واضح بحياة الآخرة ـ تندر الخرافات بينهم ـ الفضيلة نظام مطلق ـ طقوس الزواج .
٤٥٣	**الفصل السابع والعشرون** دستور البدو السياسي ـ الحرية ـ المساواة ـ تعصبهم للسلطة ـ قوانين الحرب ـ الظعائن .
٤٦٣	**الفصل الثامن والعشرون** مشروع سكة حديد وادي الفرات ـ النقل النهري ـ الادارة التركية ـ نجاحها الجزئي ـ الفشل ـ تطلعات نحو المستقبل .

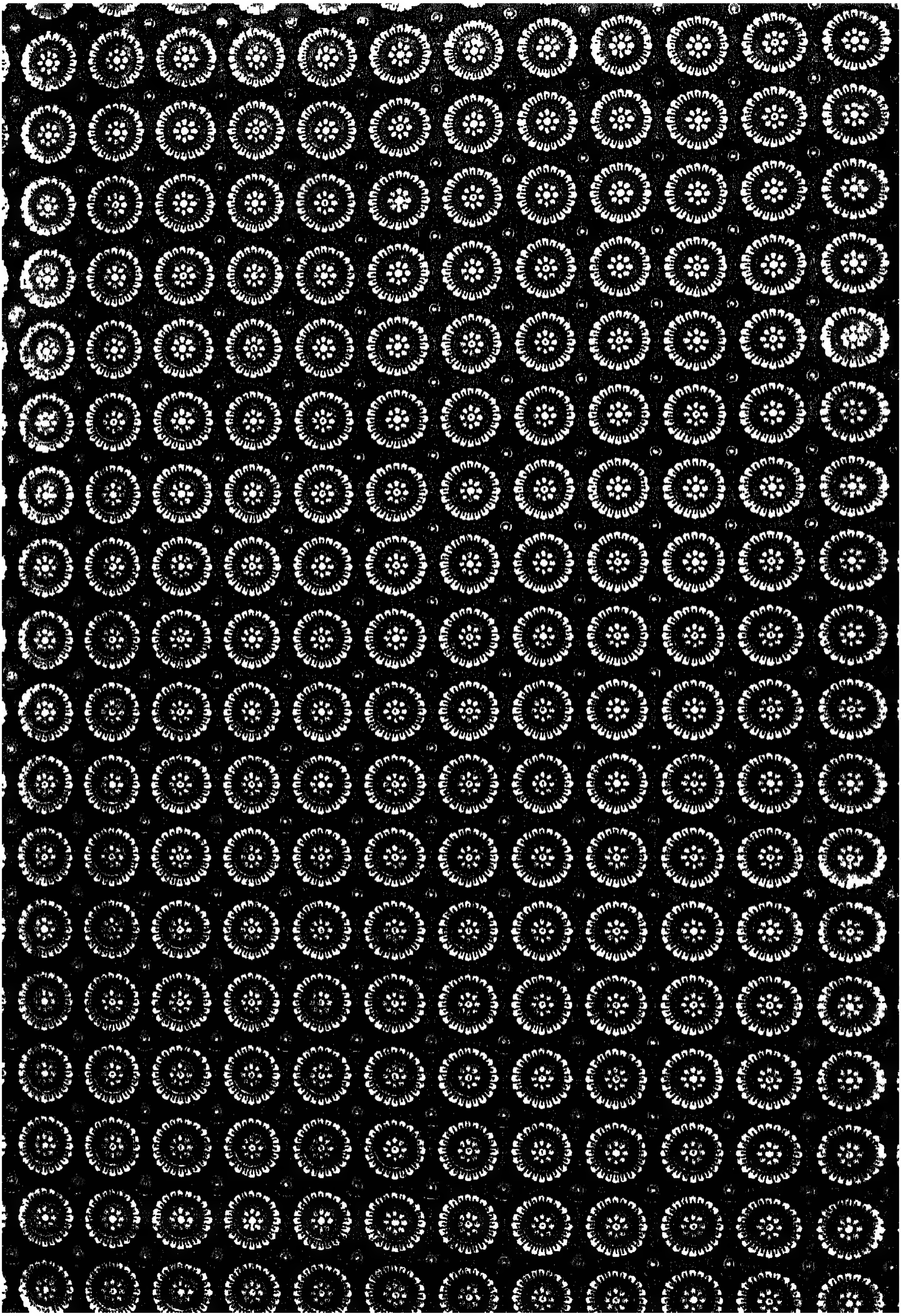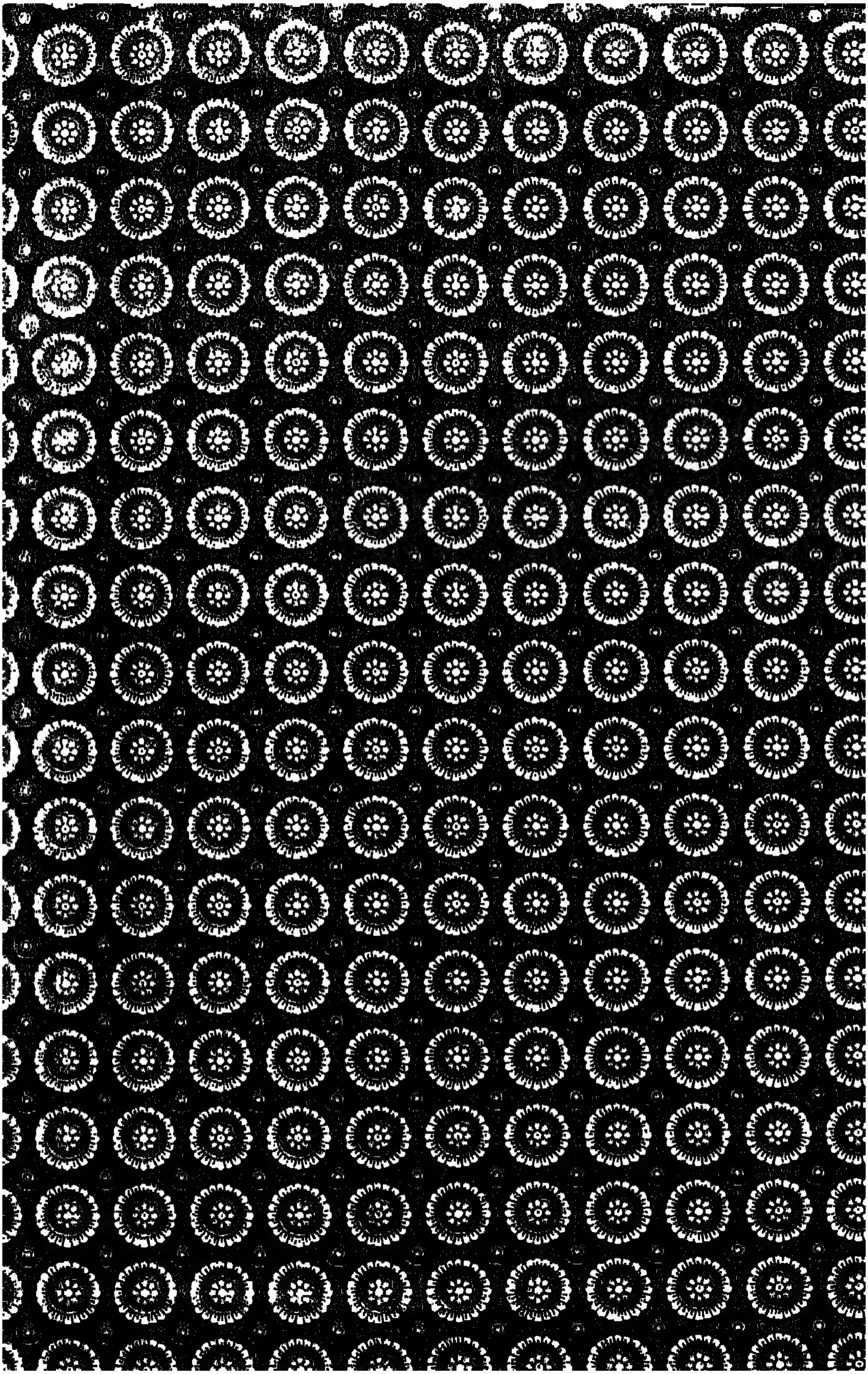طبع من هذا الكتاب ١٥٠٠ نسخة ـ مطبعة الملاح ـ دمشق